ألسنــا أمَّــةً وسَطَــاً

تأليف

أ. د عقيل حسين عقيل

2011

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

ينفتح الخطاب المعاصر على مصطلحات متعدّدة ترتبط اغلبها بالحوار المعرفي الحاصل بين أطراف تبحث عن حلّ فيما ترى أو فيما تعتقد، ومن بين هذه المصطلحات كانت الوسطيّة التي شغلت حيزاً في النسق الإنساني بوعي أم بغيره، فأصداؤها عالية على جميع المستويات، ذلك أنَّ مكانتها ارتبطت بقراءات متعددة مما جعلها حاضرة في كلِّ الأحداث العظام بوصفها الباب الذي يمكن من خلاله الخروج من صدامات وتأزّمات لم تكن بالحسبان، ونحن في كتابنا هذا آثرنا أنْ نطرح كلّ ما من شأنه أنْ يُسهِم في بيان حقيقة الوسطيّة، فكان استطلاعنا لما فهمه البعض من الوسطيّة هو البداية للوصول إلى الكيفية التي تبلور فيها هذا المصطلح، فالمعرفة متفاوتة ومتقلِّبة بين أحضان جاهزة تقود الناس فيما ترى لا فيما ترى الحقيقة، ذلك أنّ الخطوة الأولى في فهم الوسطيّة لدى البعض كانت خطوة خاطئة فكان الانزواء الحاصل قد فتح الثغرات المتكررة ممَّا حمَّل الحياة ما لا تحتمل.

إنَّ التكرار الحاصل لاستنطاق الوسطيّة بحسب المرجعيات المختلفة طرح أفكاراً مغايرة لما يجب أنْ تكون عليه الوسطيّة، وهذا بدوره ملأ الساحة الفكريّة بالكثير من الرؤى التي تقترب أو لا تقترب من حقيقية الوسطيّة، فحقيقتها هي ما ننشده في هذا الكتاب؛ فهي ليست ملتقى بين طرفين؛ وإنَّما هي الوصول إلى حقيقة الخير والحقّ والعدل، أو الوصول إلى اقرب نقطة ممكنة من حقائق الخير والحقّ والعدل، لا على حساب الحقّ ولا على حساب طرف، بل نوع من التوازن في إصدار الأحكام العقلية

المطمئنة للنفوس بنزوعها إلى الحقّ بما يقبله المنطق في الحكم على القضايا، وبهذا تكون الوسطيّة قد شغلت الحيز المطلوب ضمن الوجود الإنساني برمّته دون الركون إلى جانب دون جانب آخر، وهذا يتطابق مع منهج الكتاب الذي ارتأى أنْ لا ترتبط الوسطيّة بالمفهوم الديني البحت دون المفاهيم الأخرى، فالمنطلقات التي اتكأنا عليها جلبت حالة من الالتفاف حول هذا المفهوم بجعله منفتحاً على الجميع ممّا ولَّد لدينا إصراراً على المضي لتبليغه خارج دوائره المعتادة كي يتحقَّق منه ما هو مراد.

إن تعدّد الخطابات أحدث تشويها للوسطيّة فقد حُمّلت ما لا تحتمل، فكان الانزياح المتحقّق هو حالة من الانفراج لكلِّ من أراد أنْ يبحث عن حلّ، حلٌّ فيه كلّ المواصفات الخاصّة التي تشير إلى ميول صاحبه إلا أنّنا جعلنا هذه القراءات أحد المنطلقات الموضوعية التي انطلقنا منها لتبيان حقيقية الوسطيّة وما يتحقّق منها في حالة إتباعها كما أرادها سبحانه وتعالى.

نأمل أن يكون هذا الكتاب محاولة جديدة لتبيان ماهية الوسطيّة وتوضيح دلالاتها وما تحمل من معطيات ذات علاقة بالقول والفعل والسلوك والعمل .

اللهم أرنا الحقَّ حقاً وارزقنا إتباعه وارنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

وآخر دعوانا أنْ الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمَّد وعلى جميع أنبياء الله ورُسُله.

الأمَّة الوسَط

معرفة الأمّة الوسَط (الوسطيّة) يستدعي الوقوف على مصدرها ومعانيها ودلالاتها اللفظية والشرعية والاصطلاحية للوصول إلى جميع هذه المفاهيم وما تعنيه من الدلالات العلمية والقبول المنطقي للدلالة، ذلك أنّ الوسَطيّة في اللغة غير الوسَطيّة في الشرع، وكذلك في المفهوم للمصطلح المتداول على ألسنة المفكِّرين والمثقّفين وفي كتاباتهم مما وقفنا عليه ومما وجدناه.

إنّ كلمة (وسَط) هي الجذر اللغوي لهذا المصطلح وما له من مشتقّات ثابت في النصوص ولا خلاف فيه منذ وجوده على دلالته الشرعيّة بين الفقهاء والعلماء من أهل الذكر، غير أنَّ الخلاف في المفهوم ظهر عندما استُخدم المصطلح لدفع تهمة التطرّف عن الدين، فنشأ الخلاف في المفهوم بين المفكّرين والمثقّفين لتباين مواردهم الثقافية وما يصدرون عنها من آراء أدّت إلى اختلاف الرؤى لتعدد الموارد، بينما كان الإجماع من الفقهاء والعلماء على المفهوم العلمي المنطقي للوسطيّة، بوصفه المنهج الحقّ الذي بعث به الأنبياء والمرسلون صلى الله عليهم وسلّم من حيث أنّه الصراط الذي يرسم خط العلاقة من ثلاثة جوانب:

. العلاقة بين العقل والنفس التي تكوّن الإنسان السويّ.

. العلاقة بين الإنسان والإنسان.

. العلاقة بين الإنسان وخالقه.

وعلى هذا الأساس يكون المصطلح شمولي الدلالة وإنْ لم يأتِ على الجزئيات، ولذا نرى أنّ مفهوم مصطلح الوسطيّة من هذا المنطلق يحمل كل المؤهّلات من الدلالة العلمية والعملية التي جعلته حقيقة مسلّمة من منطلقاته الفكريّة في القضايا التي يعالجها.

غير أنّ متطلبات العصر ومستجداته وما طرأ فيه من أحداث أعطت المصطلح أوّلية تصدّر التناول في الإجماع على اللفظ مع إيجاد إشكالية الوصول إلى المفهوم الذي وقع عليه الخلاف لتباين الرؤى الناتج عن تعدّد مصادر الثقافة من جانب، وتضارب المصالح التي تريد أن تسخّر المصطلح خدمة لها من جانب آخر.

فقد أصبح مصطلح الوسطيّة لفظ متداول بشكل يغطي مساحات كبيرة من مجالات الفكر والثقافة والسياسة ووسائل الإعلام إثر تنامي مصطلحي التطرّف والإرهاب في العقود الثلاثة الماضية، حتى بدت الوسطيّة مركباً لكلّ من هبّ ودبّ لما ينال المصطلح من اهتمام المفكّرين وطرح في وسائل الإعلام بحيث أصبح شعار المرحلة ولغة عصرها الفكريّة ومفهوم جيلها الحالي لرسم سياسات المستقبل، كلّ ذلك يجري في ظل تخبّط بين اللفظ والمعنى، وبين الدلالة والمفهوم ممّا أدّى إلى اضطراب في الوعي لحقيقية المصطلح الأمر الذي نتج عنه تعدّد في المفاهيم وتبعثر في الدلالات، فتفرّقت بهم السُبل عن سبيله.

ومن أجل معرفة أبعاد الوسطيّة في المعنى والدلالة والمفهوم في الجانب الفكري المنطقي، لابدّ من الرجوع إلى الجذر اللغوي لهذا المصطلح واستخلاص ما جاء من معاني الوسَط في المعاجم اللغوية، وما جاء في التفاسير؛ فقد ذكر ابن منظور في لسان العرب أنّ: "وسط الشيء ما بين طرفيه فإذا سكّنتَ السين من وسْط صار ظرفاً، واعلم أنّ الوسط قد يأتي صفة وإنّ أصله أن يكون اسماً من جهة أنّ أوسط الشيء أفضله وخياره كوسط المرعى خير من طرفيه وكوسط الدابة للركوب خير من طرفيها لتمكّن الراكب، والوسط غير الطرف (الحرف) مصداقاً لقوله تعالى: {وَمِنَ

النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ}[1] على طرفٍ من دينه غير متوسّط فيه ولا متمكّن؛ فلمَّا كان وسَط الشيء أفضله وأعدله جاز أن يقع صفة وذلك في مثل قوله تعالى وتقدس: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}[2] أمّةً وسطاً تُحقّ الحقَّ ولا تفعل ما يخالفه، ومن يفعل من أفراد الأمّة ما يخالف ذلك لا يكون على الحقِ، ولا يُتّبع، بل هو في حاجة لمن يرشده السبيل الحقّ، وهؤلاء حالهم حال السفهاء {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[3] فمع أنّ الصراط المستقيم بيّناً إلا أنّ البعض لم يتّبعه، أي مع أنّ الحقّ بيّناً إلا أنّ البعض على ضلالٍ، ولهذا فإنّ أمّة الوسط هي أمّة (الحقّ) الذي هو الصراط المستقيم، ولأنّ الصراط المستقيم هو الحقّ جاء قوله (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)؛ فقوله تعالى (وَكَذَلِكَ) تعود ممّا تعود إليه (صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فكما أنّ الصراط مستقيم، كذلك أمّة الوسَط هي الأمة المستقيمة، ولأنّ الاستقامة على عكس معنى الاعوجاج؛ فهي الحقّ في مقابل الباطل، ولأنّ الاستقامة حقّ، جاء التشبيه بقوله تعالى (وَكَذَلِكَ) أمّة الوسط على الحقِ استقامة، ولذا لو لم تكن أمّة الوسط (أمّة الحقّ) ما جعلها الله تعالى شهيدة على الناس، وبماذا ستكون شهيدة عليهم؟ وهل يمكن أن يكون شيئاً غير الحقّ (حقّ) شهادة على الناس؟

[1] الحج 11.

[2] البقرة 143.

[3] البقرة 142.

إذن (أمّةً وسطاً) هي (أمّةً حقاً) ولأنّها كذلك، جعلها الله تعالى شاهدةُ حقّ على الناس، وجعل رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام شهيداً على الأمّة، ولذا لو لم تكن الأمّة، أمّة حقّ، ما جعلها الله شهيدة على الناس، ولو لم يكن رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام شهيد حقّ ما جعله الله شهيداً على الأمَّة؛ فهذا الوسط وحقيقة معناه، وأمّا الوسْط بسكون السين فهو ظرف لا اسم جاء على وزن نظيره في المعنى وهو بيِّنٌ تقول: جلست وسْط القوم أي بينهم"[4].

وجاء في تاج العروس قوله: "وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً، قال الزجاج: فيه قولان قال بعضهم: أي عدلاً وقال بعضهم: خياراً، اللفظان مختلفان والمعنى واحد لأنّ العدل خير والخير عدل"[5].

وأمّا ما جاء من معنى (وسطاً) عند العلماء من المفسّرين فقد أجمعوا على أنّه العدل ولم يخرجوا به عن المعنى اللغوي حيث قال الرازي: "اعلم أنّه إذا كان الوسط اسماً حرّكتَ الوسط كقوله: (أُمَّةً وَسَطًا) والظرف مخفّف تقول: جلست وسْط القوم، واختلفوا في تفسير الوسط وذكروا أموراً. أحدها: أنّ الوسَط هو العدل والدليل عليه الآية والخبر والشعر والنقل والمعنى، أمّا الآية فقوله تعالى: (قَالَ أَوْسَطُهُمْ) أي أعدلهم.

وعود على الآية الكريمة (قَالَ أَوْسَطُهُمْ) أي قال الذي يلتقون عنده ويجمعون عليه ولا يختلفون، لهذا فإن خير الأمور أوسَطها، أيّ أحقّها وأصدقها.

ولذا فمن حيث المفهوم والدلالة ينبغي أن نميِّز بين كلمة (وسَط) وبين كلمة (وسْط) فالأولى لم تكن بينيّة (ظرفيّة مكانيّة) بل هي الدالة على

---

[4] – لسان العرب، ج7، ص426.

[5] – تاج العروس، ج1، ص5031.

المتميّز بما يُميّز به من قول أو فعل أو عمل أو سلوك أو خاصيّة وجودة؛ وعلى هذا المفهوم يكون (وسَط الماء) أعذبه، في مقابل من يقول (وسْط الماء) منتصفه، مما يجعل الأولى (وسَط الماء) دالة على الخاصيّة والجودة، والثانية (وسْط الماء) من حيث المنتصف المكاني، ومن هنا يتضح الفارق الدلالي، فمنتصف الماء أو مركزه ليس بالضرورة أن يكون عذباً بل قد يكون عكراً، أمّا (وسَط الماء) فدلالته العذوبة التي بها تمّز الماء، وهكذا يكون (وسَط البياض) أنصعه، ويكون (وسْط البياض) منتصفه.

وعلى هذه المعاني اللفظيّة والدلاليّة يكون (وسَط البيت) خير مجالسه أو خير مجالسٍ فيه، في مقابل دلالة المفهوم (وسْط البيت) منتصفه، وهذا المعنى في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع لا يجعلنا قادرين على القول جازمين أنّ (وسْط البيت) خير مكانٍ فيه، بل يجوز أن يكون أسوءه مكاناً. وعلى المستوى البشري يكون (وسَط الناس) خيرهم وأفضلهم، أمّا (وسْط الناس) أمر لا يتحقق مكانه بين الناس إلا تقريباً إحصائياً، وهذا يجعلنا نقول أنّ (وسَط الناس) قدوتهم الحسنة التي بها يقتدون في معالجة الأمور وحُسن التصرّف حيالها والأخذ بالعبر كما يأخذون بالفضائل الخيّرة والقيم الحميدة.

إنّ مصطلح الوسطيّة ليس له وجود من لفظه (وسَطيّة) في أيٍّ من المعاجم العربية ولم نقف عليه على الأقل، وإنّما ورد جذره اللغوي كما جاء في القرآن الكريم (وسَط) مصداقاً لقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}[6]. والذين ابتدعوا المصطلح ليفوزوا بقصب السبق وقعوا في النقصان عندما حمّلوا المصطلح

---

[6] – البقرة 143.

ما لا يحتمل؛ فنتج عنه تضارب أدّى إلى تعدّد المفاهيم حيث أضافوا له ياء النسبة والتاء الدالّة على التأنيث، فخرجوا بذلك عن حقيقة المصطلح وجوهره واكتفوا بالانتساب إليه بدلاً عن تقمّصه وتمثّله.

فالوسطيّة كما قدّموها تدلّ على الانتساب إلى الوسط، وهذا الانتساب قد يكون قريباً ملازماً كانتساب الابن لأبيه، وقد يكون بعيداً مترامياً كانتساب ابن القبيلة لأبيها الأعلى، وبهذا خرجوا من الوسط إلى الوسطيّة التي أعطت لكلّ واحد مفهوماً يختلف عن سواه، ومن الملاحظ أن جميع من تكلّم في الوسطيّة عندما يريد أن يقف على المعنى أو يصل إلى المفهوم فإنّه يعود إلى كلمة (وسط) وينسى المسافة التي ضربتها ياء النسبة بين (وسط) وبين من ينتسب إليه، فنشأ التداخل في القضايا وزادت التاء الدالة التأنيث الأمر سوءً في الالتباس وغموض المفهوم على المفكرين وعلى المتلقين، ومن هنا اختلط مفهوم المصطلح على كثير من المفكِّرين والمثقّفين في تناول القضايا مثل:

. أمور وسط وأمور وسطيّة.

. أحكام وسط وأحكام وسطيّة.

. آراء وسط وآراء وسطيّة.

فأطلقت الوسطيّة على الجذر الثلاثي اللغوي دون الانتباه إلى بنائه الصرفي، والبناء الصرفي هو الذي يصرف اللفظ إلى المعنى المقصود، ولذا نجد اللغة ميّزت كلمة (وسَط . بالسين المفتوحة . التي تعطي معنى الحقّ، عن وسْط . بالسين الساكنة التي تعطي معنى (الظرفية والبينيّة) فقد اشترك لفظه واختلف معناه ودلالته ومفهومه، الأمر الذي لم يُعره اهتماماً واضعو المصطلح ومستخدموه، وخرجوا بدلالات كثيرة ومفاهيم متعدِّدة لمعنى الوسطيّة، وعلى ذلك قالوا إنّ كلمة (وسط) تستعمل في معانٍ

متعدَّدة ومفاهيم كثيرة، وهو ناشئ عن سوء فهم أو سوء تقدير أو غفلة أو سهو، والجواب على هذا أمر يسير، إذ أن وَسَط (مفتوح السين) هو اسم موصوف لا يعطي دلالة الزمان أو المكان في المفهوم إطلاقاً وإنما هو وصف، والوصف لا يمكن أن يفهم منه الظرفية أو البينيّة بحال من الأحوال، وطالما أنّه وصف فقد خرج عن الظرفية والبينيّة سواء أكانت زمانية أم مكانية، وأمّا وسْط (بالسين الساكنة) فهو الذي يعطي الدلالة الظرفية للزمان أو المكان ولا يمكن أن يوصف به، لأنّه لا يرقى إلى مرتبة الأسماء، وعليه لا يمكن أن نتّهم اللغة في التقصير، إذ أنّ واضع اللغة قد أعطى لكلّ لفظ مفهومه، ولكلّ دلالة لفظها وإنْ اشترك اللفظ في عدد الحروف، إلا أنّ له ما يميّزه في بنائه الصرفي في المفهوم والدلالة، ومن هنا نقول: أنَّ سوء الفهم اللغوي أو عدم إدراك المعنى أدّى إلى تداخل المعاني والخروج بمفاهيم متعدِّدة كان الخلاف بينها بديهيّاً.

إن الاتفاق حول المصطلح والخلاف في المفهوم نشأ من عدم فهم اللفظ الذي اشتُقّ منه المصطلح أصلاً، أو إهمال التمييز بين السين المتحركة والسين الساكنة ما ترتّب عليه البعد عن جوهر القضية في إعطائها دلالات كثيرة بعيدة في حقيقتها عن مفهومها.

ولذا لا نجد تطابق بين المصطلح وبين المفهوم لدى كثير ممن تناولوا الوسطيّة حيث يعطونها أبعاداً كثيرة ودلالات متعدّدة أدّت إلى مفاهيم مختلفة، وعندما يكون المصطلح معاكساً للمفهوم أو حتى موازياً له تكون النتيجة سلبيّة، ذلك أنّه ما لم يتطابق المصطلح مع المفهوم فإنّه لا يمكن أن يكسب إجماعاً، وعلى عكس ذلك عندما يتطابق اللفظ مع المعنى في المصطلح ومفهومه يكون الإجماع وتكون النتيجة إيجابيّة.

إنّ الخلاف لا يؤدّي إلى اتفاق، وإنّما يؤدّي إلى اتساع الهوة بين الأنا والآخر وخاصة عندما تمسّ المصطلحاتُ المعتقداتِ الدينية والنصوص ذات القداسة التي يجب أن يخرج الذين يتناولونها بمفهوم واحد متّفق عليه واضح المعالم جليّ القسمات كونها نصوص لا تحتمل الخطأ ولا تخلط المفاهيم.

إن اختلاط مفهوم الوسطيّة والخلاف به أدّى إلى تحميله ما لا يحتمل من معانٍ، ولذا جاءت مفاهيم الوسطية لدى هؤلاء احتمالية منها ما يكون:

. بمعنى الخيار والأفضل والعدل.

. قد ترد لما بين شيئين فاضلين.

. وتستعمل لما كان بين شرّين وهو خير.

. وتستعمل لما كان بين الجيّد والرديء، والخير والشَّرّ.

. وقد تُطلق على ما كان بين شيئين حسًّا، كوسط الطّريق، ووسط العصا.

وقد تأتي لمعانٍ أخرى قريبة من هذه المعاني.

غير أن الذي بيّناه ووقفنا عليه من معنى اللفظة ومدلولها لا يعطي إلّا مفهوماً واحداً جوهرياً هو الحقّ والعدل، ويتفاوت الخلق في القرب منه أو البعد عنه، لأنّها بهذا المفهوم هي وصف لصفة الحقّ وصفة العدل المعياريتين، وليست بينية بين شيئين حتى تكون ظرفية، ولو كانت ظرفية لامتنع بها الوصف، ولو كان مفهومها ظرفي لما وجب اتّباعها والأمر بها، وإنّما بهذا الحال هو مصطلح يقيس المسافات بين الأشياء المتماثلة والمختلفة والمتضادة والمتقاربة والمتباعدة، فأي وسطيّة بهذه المفاهيم تَتّبع؟ علماً أنّ المصطلح لم يكن الخلاف فيه مقتصراً على هذا العصر، وإنّما كان الإشكال موجوداً قديماً مع وضوح المفهوم والدلالة، ولذا لا ينكر ذلك

أحدٌ على أحدٍ انطلاقاً من تعدد المذاهب والاعتراف بها وما يصدر عنها من أحكام وفتاوى وتفاسير ورؤى متعددة في القضية الواحدة لأسباب منها:

. وحدة الدين والعقيدة.

. الصدور عن ثقافة واحدة.

. العلم بالمعاني اللغوية ودلالاتها ومفاهيمها.

. الاختلاف الناشئ كان من باب الرحمة في التيسير.

. القضايا التي يعالجها المصطلح وليدة المجتمع والبيئة والثقافة نفسها.

فإنْ كان ثمّة خلاف فهو بعيد كلّ البعد عن المبدأ، وإنّما كان ينصبّ على الطريقة والأسلوب في توصيف المفهوم للوصول إلى الوسطيّة المجمع عليها بأنّها الأحقّ أن تُتّبع.

إلا أننا نجد الآن التنافر من الاتفاق والخلاف حوله كبير، ومردّ ذلك إلى دخول ثقافات جديدة وأسباب لم تكن موجودة، وتطرّف في فرض الرؤى برفض الآخر، واعتماد القياس بثقافات أخرى على مصطلحات لغة مغايرة لتلك الثقافات.

الجدل الدائر على الوسطية الذي أفضى إلى الخلاف لم يكن حول مبدئية ثبات المصطلح والإقرار بوجوده، ولكنّ الرؤى المتباينة أدّت إلى خلاف في المفهوم الذي أنتج تعدّدية الفهم في تحديد المنطلقات الدلالية في التطبيق والسلوك، إذ أنّ الترجمة العملية للمفهوم العلمي لمعنى الوسطيّة جعل للمصطلح اتجاهات كثيرة أسقطت النتائج التطبيقية على الدلالة اللفظية؛ فخرجت بأكثر من مفهوم نظري استُخلص من النتائج التجريبية بطريقة الدعوة إلى الوسطيّة التي اعتمدها كلّ فريق انطلاقاً من الأسباب التي دعته إلى معالجة موضوع أو قضية لها بيئتها ومسبباتها السياسية

والاجتماعية والاقتصادية التي تختلف عن غيرها من مكان إلى آخر، ولذا نتج الجدل وكان الخلاف من هذا الباب أيضاً.

ومع الإقرار والقبول من الجميع بالوسطيّة أنّها مرجعية يُحتكم بها ويُحتكم إليها، إلا أنّ هذا الإجماع لم يرقَ إلى الاتفاق حول مفهوم واحد، وهذا يعني أنّ الخلاف لم يكن قائماً من قبل، ولكن الذي أوجده على ما نعتقد هي إفرازات معاصرة للجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية والفكرية.

فهل أن الوسطيّة الشرعية تختلف عن الوسطيّة الفكرية؟ نحن لا نتسرع القول، غير أنّ الوسطيّة في الشرع من أجل استنباط مفهومها والوقوف عليه لا بدّ أن يستند ذلك الاستنباط إلى ضوابط شرعية وإن كانت اجتهادية؛ فإنّ التباعد بين الاستنباطات الدلالية لا يؤدّي إلى التنافر أو الصدام بينها لأنّها محكومة بضوابط استنباط الأحكام من النصوص وتتعامل مع النصّ بما يحمل من قداسة فهي تنحو به منحى فضائلياً بجميع المعطيات الخيّرة كي تحاكي به مستوى التنزيل الذي لا يخل فيه الزمان والمكان متجاوزاً الظرفية والبينيّة ليكون صفة للحقيقة، فضلاً عن وعيها اللغوي ومعرفة دلالات الألفاظ اللغوية ومفاهيمها.

أمّا الاستنباطات الفكرية البحتة مع كونها اجتهادية؛ فإنّه يقع بينها التنافر والخلاف والصدام لأنّها لم تنطلق من قواعد الضبط التي تؤطّر الرؤى وتكبحها عن الجموح في فهم النصّ أو تحميله ما لا يحتمل، لأنّ هذه القراءات الفكرية لفهم النصّ لها منطلقات كثيرة متعدّدة ومتباينة وأحياناً متضاربة، ذلك لتعدّد الثقافات واختلاف المنطلقات الفكرية وتصادم المصالح الدنيوية، ومع ذلك فقد يصل البعض منها إلى نتائج مرضية للعقل فتكون صواباً ولكنها تحتمل الخطأ أيضاً.

وكثيراً ما نجد فهم البعض للوسطيّة ينحو منحىً يتنازل فيه عن حقّ أو يتساهل به لطرف على حساب طرف لأنّه فهم الوسطية على أنّها ظرف بيني، فإن كان ذلك قصداً فقد خرج من الوسطيّة إلى التطرّف، وإن كان جهلاً فقد خرج من أهلية الفهم في تحديد المفهوم، وهنا يكون مفهوم الوسطيّة هو السعي لإيجاد نقطة اتفاق يلتقي عليها أو حولها أطراف النزاع مع شعور البعض بالغبن الذي لحق به ليس من جوهر المصطلح وحقيقة معناه، وإنّما من القصور الناتج عن عدم فهم الجوهر والحقيقة التي يحملها المصطلح، مما يجعل هذا الفهم للوسطيّة والحكم به أن يخلق طرفاً آخر في النزاع.

ومن أجل الوصول إلى الوسطيّة وتحديد مفهومها وجب الالتفات إلى أصول ثابتة وعوامل متغيّرة كثيرة، تحتّم على المتتبع مراعاتها في التنظير والتطبيق، لأنّ قصر النظر في أمر من الأمور يؤدّي إلى خلافه ومجانبة الصواب فيه.

وعند النظر في أيّ قضية من القضايا لتحديد علاقتها بالوسطيّة ومدى قربها أو بعدها منها يتطلب أولاً تحديد الوسطيّة من خلال مفهومها، ومن ثمّ دقة النظر والاعتبار في حقيقة هذه القضيّة وجوهرها دون الاقتصار على ظاهرها، ثم النظر إلى أيّ أساس من أسس الوسطيّة هي أقرب، وأيّ وسطيّة تُعتمد في القياس، هل هي الوسطيّة الفضلى الداعية إلى الخير من الحقّ والعدل، أم الوسطيّة بين القليل والكثير، أم وسطيّة بين الجيد والرديء، أم أنها وسطيّة بين الشدّة واللين، وهنا يختلط أمر الوسطيّة بالوسط والأوسط، بخروجه من الوصفية الاسمية إلى الظرفية الزمانية أو المكانية؛ فليس بالضرورة أن يكون تلازم بين الوسط والوسطيّة، لأنّه من المفهوم والمدلول وجب أن تكون كلّ وسطيّة هي وسط وليس كلّ وسط

وسطيّة، ولا يلزم من كلّ وسط أن يكون دليلاً على الوسطيّة؛ وذلك لوجود الوسط الزماني والوسط المكاني والوسط القولي والوسط الفعلي والوسط السلوكي وهكذا.

فالوسطيّة تنطلق من القواعد والضوابط اللغوية في تحديد المفهوم الذي يرسم المنطلقات المنهجية الفكرية والأسس المنطقية، فإذا ظهر قربها في حقيقية جوهرها بالعودة إلى الحقّ والعدل فهي داخلة في الوسطيّة، أمّا إذا كانت القضية إلى الغلو والإفراط والتفريط أقرب حقيقة؛ فهي تطرّف عن الوسطيّة وعن الحق والعدل.

ولذا ليس المقصود بالوسطية أنّها نقطة ملتقى الطرفين، وإنّما هي الوصول إلى حقيقة الخير والحقّ والاعتدال، أو الوصول إلى أقرب نقطة ممكنة من حقائق الخير والحقّ والعدل، لا على حساب الحقّ ولا على حساب طرف، بل نوع من التوازن في إصدار الأحكام العقلية المطمئنة للنفوس بنزوعها إلى الحقّ بما يقبله المنطق في الحكم على القضايا.

إذن ليس بالضرورة أنّ كلّ ما يعتبر وسطًا في المصطلح أن يكون له طرفان؛ فالحقّ وسط لا يقابله إلا الباطل والعدل وسط ولا يقابله إلا الظّلم، والصّدق وسط ولا يقابله إلا الكذب، وعليه فالحقّ والعدل والصدق حقائق وسطيّة ليس لها أبعاد زمانية أو مكانية تكون ظرفاً حتى يكون لها أطراف تُقاس نسبتها إلى نقطة الملتقى مع هذه الحقائق، وإنّما يقاس عليها بما يضادها أو يخالفها من حقائق مضادة لها كالباطل والظلم والكذب.

وعلى هذا تكون الوسطيّة الحكم العدل المنطلق من الحقّ على القضية المطروحة الذي قد لا يرضي الجميع، لأنّ البعض يرى الوسطيّة نقطة التقاء يرضي طرفي القضية ببعض التنازلات ويعتبر ذلك وسطيّة أدّت إلى حلّ، فهنا أخرج الوسطيّة من الوصفية إلى الظرفيّة.

فالوسطيّة ليست مجرّد اتفاق على الالتقاء حول نقطة تكون وسطاً بين أطراف النزاع بعيدة عن المصدر؛ فإن كانت كذلك؛ فهي وسطيّة جزئيَّة مرحلية، ومفهوم الوسطيّة بهذا المعنى قد درج عليه كثير من المثقّفين والمفكّرين لاسيما الذين تصدّوا للحلّ في مسألة التطرّف بين الأنا والآخر، فخرجوا بفهم ناقص مجتزأ، أدَّى إلى إساءة فهم معنى الوسطيَّة التي لم تؤتهم ثمارها، والذين يسلكون هذا المسلك في معالجة قضيّة ما تحت اسم الوسطيّة؛ فقد ابتعدوا عن المصطلح كمسمى وعن المعنى كمفهوم وخرجوا إلى مصطلح آخر وحلٍّ آخر من حيث يدرون أو لا يدرون؛ فاختلط عليهم الأمر بين الوسطيّة التي أمر بها الله تعالى ووجب اتباعها في قوله: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) وبين البينيّة التيسيرية في قوله تعالى: {وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ}[7]. فوسط الشيء على ما نراه، هو حقيقته وجوهره، وأمّا أوسط الشيء فهو أقربه وأيسره، ولقد ذهب كثير من العلماء والمفكّرين والمثقّفين إلى أنّ الوسط والأوسط في معنى واحد ومفهوم واحد، غير أنّ دلائل القرائن اللغوية في كلّ من الآيتين تشير إلى غير هذا، لأننا عندما نقرأ (أمّةً وسطاً) نجدها مقطوعة عن الإضافة بتنوينها فيكون إعرابها بدلاً من أمّة، وعلى هذا يكون المعنى (جعلناكم أمّة، جعلناكم وسطاً) فلو حذفنا إحدى الكلمتين لقامت الأخرى مقامها ولكن اجتماع الكلمتين كان من أجل بيان النوع والصفة معاً، فأعطت معنى كلّ صفات الخير والفضائل بالشمول لنوع الأمة ومنحها

[7] – المائدة 89

حقّ الشهادة، ولو أُريد للفظ جزء لكانت الآية (وكذلك جعلناكم أمّةَ وسطٍ) بين الأمم لستم خيرها ولستم شرّها، وبذلك تنتفي الشهادة على الناس.

وأمّا في الآية الأخرى (مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ) حيث نجد أن أوسط مضافة إلى (ما) الاسم الموصول بمعنى الذي، ومعلوم أن الإضافة تحدد نوع المضاف، ولذلك عدّدها وحصرها في أربعة أشياء هي الإطعام والكسوة وتحرير رقبة أو صيام، وهنا يتضح الفرق الشاسع بين (وسطاً) الإطلاق والشمول وبين (أوسط) في الحصر والتحديد.

فالوسطيّة لا تعني السعي إلى إيجاد نقطة التقاء ومجاورة بين فكرين متباعدين أو فكراً بديلاً عنهما يؤدّي إلى التناقض بينهما ثمّ إلى اختلاف تكون نتيجته الصدام، وإنّما الوسطيّة هي الحقّ الذي يكمن فيه الحلّ، وهو الانصياع إلى الحقيقة التي قد لا يمتلكها أيّ من أطراف النزاع حول القضية، ولذا تكون الوسطيّة هي الحقيقة التي يفتقدها الحلّ، بل واجب أن يصبح القبول بها مطلباً من أجل إحقاق الحقّ.

ومن أجل الوصول إلى فهم مشترك للوسطيّة من خلال النصّ يجب إعمال العقل بما يقبله المنطق انطلاقاً من النصّ، ذلك أن العقل هو المركز في فهم النصّ وإخضاع النفس لهذا الفهم، فضلاً عن ذلك هو المصدر الأول من مصادر المعرفة البشرية العامة في الحياة، لأنّه يجمع بين علوم التنزيل وعلوم التأويل وعلوم الحياة، وباجتماع هذه العلوم في فهم الوسطيّة تصلح الدنيا والآخرة.

ولذا فإن مفاهيم الظرفية البينيّة والمنتصف ونقطة التوسّط بين الأشياء ليست تعبيراً صحيحاً عن مصطلح الوسطيّة؛ فالوسط كما بيّناه اعتماداً على اللغة ليس بالضرورة نقطة المنتصف، ذلك أن العدل والحقّ والتوازن

لا يتحقق في نقطة الوسط الظرفي المكاني أو الزماني؛ فقد تكون نقطة وسط بين باطلين، وليس هناك نقطة وسط بين حقين، لأن الحقّ واحد وهو حقيقة، والعدل واحد وهو حقيقة، والإنصاف واحد وهو حقيقة، وكل هذه الحقائق من الفضائل تنضوي تحت الخير الذي هو مطلب لهذه الحقائق، فإذا كان إنسان ما متوسط بين الكفر والإيمان بمفهوم إيمان المجتمع الذي يعيش فيه، فهل يكون في الوسط أم الوسطيّة؟ أم أنّه يخرج إلى مسمى آخر تحت مصطلح آخر؟

إنّ المجتمع المسلم يدخل من يتوسط الكفر والإيمان تحت مصطلح النفاق مصداقاً لقوله تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا}[8]، وهنا خرجت البينيّة من الوسطيّة ولا يقبل أحد أن ينسب إليها وإن كان يعمل بها.

وإن كان ثمّة منطق بهذا المفهوم؛ فإنّه يعبّر عن سوء فهم من جانب وعن قصور في التصوّر من جانب آخر، إذ ليس بالضرورة أن تفهم القضية بنقيضها، ولا الوقوف على حقيقة الإيمان من معنى الكفر، وهذا يقودنا إلى رفض القول بأنّ الدين الإسلامي وسط بين الأديان، لأن الدين واحد والرسالة واحدة وإن اختلفت الشرائع وتعدّد الأنبياء.

إن مثل هذا القول يقود معتنقه إلى شيء عظيم وهو القول بالبداءة على الله تعالى، بأنّ الله تعالى جعل اليهود أمّةً وسطاً، فلمّا لم تكن جعل النصارى أمّةً وسطاً، ولمّا بدا من النصارى ما بدا من اليهود جعل المسلمين أمّةً وسطاً.

---

[8] – النساء 143،142.

إن الذين يذهبون هذا المذهب في فهم أحد جوانب الوسطيّة ينسبون إلى الإسلام ما ليس فيه، ويدعون إلى نقيضه ذلك أنهم أخذوا آية (أمّةً وسطاً) وفلسفوا رؤيتهم للوسطيّة من خلال مفهومهم لها، لا من خلال النقل والعقل.

فالنقل ثابت بالنصوص القطعية التي تحدّد وسطيّة الدين:

. قال تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ}[9].

. قال تعالى: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ}[10].

. قال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ}[11].

فهذه النصوص قاطعة الدلالة في أنّ الإسلام للأديان السماوية هو وسطيّة لها، وأمّا من جانب العقل فإن ذلك الرأي في الوسطيّة يطعن في وحدة الرسالات.

وطالما أن الدين عند الله الإسلام، وإبراهيم صلى الله عليه وسلم هو الذي سمى المسلمين مسلمون، والمسلمون هم (أمّةً وسطاً) اختارها الله تعالى لتكون شهيدة على الناس؛ فهذه الوسطيّة تمثلت تباعاً في اليهود والنصارى والمسلمين على تداول الوسطيّة، بمعنى أنّ الصفة ثابتة والموصوف متغير، وعليه فالوسطيّة ليست عدلاً بين ظلمين، بل هي عدل فوقهما، وهي عدل قبل كلّ ظلم، وعدل بعد كلّ ظلم، ولئن كانت الوسطيّة عدلاً

---

[9] – آل عمران 19.

[10] – الحج 78.

[11] – المائدة 44.

بين ظلمين في قضية ما؛ فلا يعني هذا أنّ صفتها استتبت عدلاً من تناقضهما.
إنّ الوسطيّة حقيقة العدل التي تنشد التسامي بالبشرية نحو الفضائل نقلاً وعقلاً في الدين والدنيا تُبنى من خلالها أسس الحياة في التعامل من أجل الترقي بالإنسان وصولاً به إلى التقويم الأحسن الذي جعله عليه الله تعالى، لا على وسطيّة ظرفية بين طرفين متناقضين دبّ بينهما خلاف، فهذا المفهوم غاب عن تفكير البينيين ومنطقهم عندما توهّموا أن الوسطيّة ظرفاً بينيّاً، الأمر الذي أوقعهم في أخطاء التفكير المنهجي عند تناولهم للوسطيّة.
والأمّة الوسط هي خير أمّة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، تُحق الحقّ وتُزهق الباطل، وإنْ حكمت بين الناس بالحقّ عدلت، وإنْ كالت للناس أوفت كيلها وميزانها، إنّها المستخلفة في الأرض إصلاحاً وإعماراً، لا تُفسد ولا تُسفك الدماء فيها بغير حقّ، مُسلِمة وجهها لله واحداً أحداً لا شريك له، مؤمنة أنّهُ المَلك، مالك المُلك، بيده الخير وهو على كلِّ شيء قدير، وتشهد إيماناً تاماً أنّه إنْ أراد شيئاً يقول له كُن فيكون، وتشهد أنّ له رُسُلاً قصَّهم علينا ورُسُلاً لم يُقصصهم؛ فتصلّي وتسلّم على جميع رُسُل الله ولا تُفرِّق بين أحدٍ من رُسُله؛ فهي المؤمنة بذلك وبكلِّ ما أمر الخالق أنْ يؤمن به، تدعو النّاس كلّ النّاس هداية للحقّ فلا تظلم أحداً ولا تُكرِه، الأمر كلّ الأمر بينها شورى، وهي التي ستكون الشهيدة على الناس يوم يُبعثون ويسألون، ويكون رسول الله عليهم شهيداً مصداقاً لقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}[12].

---

[12] البقرة 143.

إذن الأمّة الوسَط هي الأمّة المركز ذات المعايير الخالدة التي بها تقاس الأمور قياساً موضوعياً، وهي المرجعيّة التي بها تُعيّر المقاييس وتدار الأطراف دون ميل ولا تحيُّز.

فالأمَّة من حيث المفهوم هي التي ترتكز في وحدتها على مجموعة من الفضائل والقيم الحميدة، تكون معاييراً لأفرادها اختياراً لا جبراً ولا قسراً ولا إكراهاً، وهي جامعة القيم، وبالتالي فإنَّ الأمَّة لا تكتسب هويتها دون أنْ تحقّق قيمها وفضائلها في كلِّ زمان وأي مكان ومع كل الأجناس، وهذا متحقّق في الأمَّة الوسط بقيم العدل والحقّ التي بها تسعى لتحقيق سيادتها إنْ فعلت وفقاً لِما يجب، ولكن إذا لم تفعل فأمر الوسطيّة لن يتحقّق مما يجعل العيب في سلوك الأمّة لا في فضائلها وقيمها.

الأمَّة الوسط أمَّة منفتحة على الآخرين تدعو للحقّ وبه تُبشّر وعليه تُحرّض، تفيد وتنفع، وتستفيد وتستنفع، دون أنْ يكون لشيءٍ على حسابِ الفضائل والقيم الحميدة التي تحمْل رسالتها للكافة، لذا لا يمكن لأمّةٍ ذات رسالةٍ خالدةٍ مستهدفة الكافة أنِ تنغلق على ذاتها وتقفل أبوابها في وجوه الآخرين، فكيف لها أن تدعو إلى الحقِ إذا انغلقت على نفسها وسدّت الأبواب وحرَّمت الاتصال والاختلاط الذي به يُترك الأثر الموجب في نفوس المدّعين للحقِّ!

أمَّةً وسطاً في إعطاء الفرد دوره كاملاً بما يفضي إلى إشراك الجميع من خلال الإفادة من طاقات الأفراد لتحقيق الذات الفردية المفضية لتحقيق ذات الأمَّة، في اعتدال وتوازن، بما يجعل الفرد راغباً في الانتماء لدائرة (نحن سوياً)، (نحن معاً) وفاعلاً في المشاركة في تطوّرِها والدَّفع بها نحو تحقيق أهدافها وغاياتها العظام في الإصلاح والبناء والإعمار والفلاح الذي

به تَصنع المستقبل العظيم حيث تكون فيه شاهدة على الناس ويكون الرسول عليهم شهيداً.

أمّةً وسطاً لا تسعى للتكميم، بل تسعى إلى فكّ الكِمَام لِيُقَالَ الحقّ دون أنْ يتردّد أحد في قوله، وأنْ يكون اللين أسلوب معاملة بين الناس، وأنْ يكون التقدير قيمة معياريّة من أجل أن تسود الفضائل وتُعِم.

الأمَّة الوسط ليست هي اللون الرمادي من خلط الأبيض بالأسود، بل هي التي تعطي اللون الأبيض خصوصيَّته التي تميّزه عن الأسود، والأسود كيانه الذي يجعله بدرجة الأبيض وليس دونه بأيّة درجة من درجات المفاضلة بين ماهيتين. وهي التي تُعطي للزّوجةِ مكانةً مرموقةً عاليةً لتكون فيها أمّاً متوّجة من أبنائها الذين يخفضون لها ولأبيهم جناح الذل من الرحمة إحساناً وتوفيقاً، {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا}[13].

ولذا فالأمّة الوسَط هي الأمّة مستهدفة التكوين لتكون طاعة لله تعالى بعلائق ومكارم أخلاق وحُسن سِيَر ورفعة ذوق، وهي لم تكن مقتصرة على عرقٍ أو لونٍ أو مكان أو زمان مُحدَّدين، دائرتها دائماً في حالة اتساع تنصهر فيها اللغات والأعراف استيعاباً ومنطقاً وتهذيباً.

الأمَّة الوسط هي الأمَّة الملتزمة بثوابتها التي تعدُّها معياراً أخلاقيا تقدِّره ولا تفرِّط في شيء منه تحت أي ظرف أو ضغط، وتحت أي عنوان أو شعار وإن كان تحت شعار الوسطيّة.

---

[13] الإسراء 23، 24.

الأمَّة الوسَط هي التي تنظر إلى ذاتها نظرة واقعيّة فلا تعالي ولا تكبُّر ولا تمايز ولا عنصريّة ولا تباهي، فالحقّ أنْ تكون الأمَّة ناظرة بمعيار الحقّ والعدل بدءاً من نظرتها لنفسها، ثم النظر إلى الآخر بنفس المنظار تقديراً واعتباراً.

الأمَّة الوسَط هي التي تتوافر لديها مؤهلات قيادة الناس نحو أهداف صناعة المستقبل المتميّز وتحقيق النُقلة إليه علماً ومعرفةً وإنتاجاً وتقنية، تقوده أساليب ممارسة الحريّة عدلاً وإصلاحاً وإعماراً مع وافر الإرادة في ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليات التي يسودها التقدير للفروق الفردية من حيث المقدرة والاستطاعة ولكلٍّ ظرفه دون أنْ يكون الظرف مبرراً لحرمان أحدٍ، مع مراعاة المهارة والتخصّص والخبرة في أداء المهام الواجب تأديتها عن خُلقٍ وأمانة.

والأمَّة لا ينبغي أن تكون مجموعة أفراد يجمعها جامع مشترك فحسب، فهذه المجموعة مصيرها الانتهاء والزوال بالموت أو الافتراق لسبب أو لآخر، ولكن يجب أن تكون الأمّة مكوّناً فضائلياً وقيمياً لتتحرّك بحريّة الموازنة بين الثوابت والمتغيرات، فتكون قادرة على إيجاد الحلول والمناهج التي تتلاءم مع معطيات العصر، وقادرة على مواجهة عواصف التشدُّد والتطرُّف من جهة، والانفلات والتفريط من جهة أخرى، فتعود بالناس نحو ما ينبغي أن يكونوا عليه.

وما من مثال أجلى وأوضح على ذلك من الإسلام، فهو أمَّة لا من حيث كونه مجموعة أفراد يربطها عقيدة وزمان ومكان، بل هو مجموعة قيم وفضائل صالحة لكلِّ زمان ومكان ولكلِّ فرد ولكلِّ جماعة، صالحة ليس على مستوى التفضيل بل على مستوى واقع ووقائع، فالإسلام يقدِّم منهجاً صالحاً لأنّه يتضمن القيم والفضائل التي تراعي إنسانية الإنسان، وتحسب

حساباً لرغباته، وتنظر بعين الاحترام والاعتبار والتقدير لجهوده، وذلك لأنَّ الإسلام لم يكن في قيمه وفضائله خاضعاً للزمن أو المكان أو الجنس، وهذا هو الذي أعطى ويعطي للإسلام دوره الريادي في الحضور على المستوى الإنساني كمؤثر قوي في مسيرة الحضارة الإنسانية جمعاء.

الأمَّة المؤهلة لتحقيق ذاتها هي التي تجانس بين قيم الفرد والجماعة في آن واحد، حيث يكون للفرد دور حقيقي في إرساء قيم الجماعة، وبهذه المعطية يتحول الفرد من الانغلاق على كينونته الفردية إلى الانفتاح نحو الجماعة لإرساء حقيقة الفرد الأمَّة وصولا إلى الأمَّة بشمولها.

الفرد الأمَّة

لاشك أنَّ الفرد له خصوصية معتبرة ومقدَّرة في منهج الوسطيّة، لأنَّ الوسطيّة منهج فكري لا يتعامل مع فكرة إلغاء الفرد وتذويبه لصالح الجماعة قسراً، ولكن لديه طريقة أخرى لنقل الفرد من أنا الفرد إلى أنا الجماعة، حيث تمكِّن الوسطيّة الفرد من إطلاق العنان لإبداعاته ومساهماته الفاعلة من أجل المجتمع، بل وتسهم في دعم ذات الفرد من خلال الاعتبار والتقدير للفرد في الجماعة، كذلك فالوسطيّة تقصر علاقتها بأفرادها من خلال تقديم الخيارات التي تمكِّنهم من الفرز، وتعينهم في الانتقاء لما هو أفضل سلوكاً وفكراً وفعلاً وعملاً دون إكراه ولا إلزام ولا قسر؛ فهي تقدِّم للفرد في الجماعة قيما وفضائل ترقى به إلى مصاف إنسانيته التي أرادها الله عز وجل له، ومن خلال مبدأ الاختيار للأفضل ستتحقّق الأمَّة المؤهلة للشهادة بمنهجها الذي أراده الله عز وجل وهو الوسطيّة.

ولكن متى يكون الفرد أمَّة؟

عندما يرقى الفرد إلى مستوى الأمَّة إيماناً وسلوكاً، فكراً وعملاً، والتزاماً بالقيم والفضائل مع رغبة حقيقة لسيادة هذه القيم والفضائل على المستوى الإنساني، لا عن رغبة عاطفيّة مجرّدة، بل عن قناعة وإيمان راسخين بأنَّ هذه القيم والفضائل لو قدّر لها أنْ تسود لتحقّقت الوسطيّة التي هي المنهج الأسمى الذي به تكون الحياة أكثر تنظيماً، وأقوى امتزاجاً علائقيا، بما يحقّق للفكر مساحة أوسع لتعاطي المقترحات والحلول التي تواجه أقسى وأعقد التأزمات على جميع الصُعد.

إنَّ مهمة الفرد الأمَّة تبدأ من الذات حيث عليه أن يسعى بكلِّ ما أوتي من وسائل لكي يكون أسوة حسنة من خلال التمسك بثوابته التي يؤمن حقيقة بأنّها مصدر للقيم والفضائل الكريمة، ويعمل بها في معاملاته الحياتية والفكرية تعاملاً صادقاً يؤهله ليؤثر في الآخر تأثيراً موجباً يمكِّن من نقل القناعات بقيم وفضائل ما يعتقد، وما من مثل أصدق تعبيراً عن فكرة الأسوة الحسنة من مجموعة التجار المسلمين الذين ذهبوا في تجارتهم إلى بلاد اندونيسيا وماليزيا وسنغافورة، هؤلاء الرجال الذين كان كلُّ واحدٍ منهم أمَّة باستحضاره لقيم وفضائل أمتَّه التي ينتمي إلى قناعاتها أكثر من انتمائه إلى جمعها، استطاعوا أن يؤثروا في أمَّة تأثيراً على صعيد تغيير الاعتقاد، وهو أمر لم يكن سهلاً وذلك لأنّ العقيدة قوّة روحية يصعب تغيرها بسهولة، ولكن قوة أكبر من قوّة الاعتقاد لدى أفراد معدودين استطاعت أنْ تغيِّر هذه القناعة، أفراد كانوا أمَّة في الصدق، أمَّة في الأمانة، أمَّة من أجل تعميم الخير، الأمر الذي أفضى إلى إثارة الانتباه إلى المؤثر في سلوك هؤلاء الأفراد وطرح التساؤلات عنه وصولاً إلى المعرفة التي أفضت إلى التغيير، وهكذا تحققت الأسوة الحسنة، فكان كلّ واحد من هؤلاء أمَّة بحقّ.

الفرد الأمَّة هو الذي يستحضر الجماعة في كل تعاملاته، وينطلق من قيمها وفضائلها اختياراً لا إكراها ذلك أنّ الإكراه غالباً ما يجعل تمثّل الإنسان للقيم والفضائل واهنا ودون مستوى تلك القيم والفضائل الأمر الذي يرجِّح عدم تحقّق الأسوة.

وفي ضوءِ الفكر الجمعي والالتزام الجمعي، والعقيدة الجمعية يمكن للفرد أن يحقّق فكرةِ الفرد الأمَّة، وبالرغم من يقيننا أن المسألة نسبية لكن قوة الانتماء للفكر ترجّح أنْ يكون تمثّل الفرد للجماعة في مستوى عالٍ يمكِّنه من التأثير في الآخر، ويتيح له تبيُّن ملامح الجماعة من خلال الفرد الأمَّة.

إن الإسلام الذي يقدّم الوسطيّة حلاً للتأزمات المعاصرة والمستقبليّة، ينظر إلى الفرد على أنّه واحد في أمَّة، وأمَّة في واحد وما قول الحقّ عز وجل عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنّه كان أمَّة إلّا دليل على نظرة الإسلام للفرد، نظرة تقرّر حقيقة أنّه بالأماكن أن يكون الفرد أمَّة، بل كان الفرد أمّة، مصداقاً لقوله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[14]، والمسألة لا تتعلّق بإبراهيم فقط بل هو حالة متحقّقة أولى أنْ تكون أسوة نسعى لتحقيقها في المجتمع، وهكذا كان الأنبياء والمرسلين كلّ واحد منهم أمَّة.

ولذا فالفرد الذي يتقدّم بخطوات نحو الآخر متطلعاً إلى الانفتاح على قضايا أمته، ليتداخل في كل ما يعنيها على السلب والإيجاب، هو في تأزُّماتها حاضر ومساهم في إيجاد الحلول، وفي انجازاتها أثره بارز ومؤثر، هذا الفرد هو الذي يمكن أن ننظر إلى صورته واضحة الملامح وسط الأمّة، لذا على الفرد الأمَّة أن يتحرّك وهو حامل أمته بفكرها

[14] النحل 120، 121.

وعقيدتها في كيانه ووجدانه وفكره وسلوكه وعمله، بهذا يمكن أن تتحقق فكرة الفرد الأمَّة، وعندما يكون كل فرد أمَّة في أمَّته، لاشك أن هذه الأمَّة ستكون بأرقى مستويات التأثير على جميع الصعد وصولا إلى سيادة قيمها وفضائها في كل الأوساط.

علاقة الأمَّة بوسطيتها

لقد مرّت الأمَّة الإسلامية بمراحل تُظهر علاقة الأمّة بوسطيّتها؛ فقد مرّت بمرحلة الأمثولة في تطبيق المنهج الوسطي وهي مرحلة عصر النبوة، التي تميّزت بإظهار الحقّ وتبيانه ودعوة الناس إليه، فجاء الحقّ هدى ورحمة وبشرى للمسلمين، {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}[15].

أمّة الوسَط فيها كتاب الله هو المرجعيّة الإعجازيّة وسُنّة رسوله الكريم هي المرجعيّة السلوكيّة، ولهذا فأمّة الوسَط تستمد الحلّ لمعضلاتها وتأزمات علاقاتها ممّا أمر به تعالى، وتستمد القدوة الحسنة من نبي الله الرسول محمَّد صلى الله عليه وسلّم وسنّته الكريمة؛ ففي فترته عليه الصلاة والسلام كان مشاوراً، وفاعلاً للخيرات، ومحرّضاً على أفعالها وهو على خُلقٍ عظيم، {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}[16]، والأمر الذي به تميّز بالخلق العظيم هو أمر خَلقِهِ صلى الله عليه وسلّم على الحمد خلقاً؛ فأسم مُحمَّد موصوف بما به حُمِّد مما جعل الاسم مُحمَّداً في حالة تطابق تام مع الصفة في الموصوف، وهذه من خصوصيات اسم النبي صلى الله عليه وسلم، فصار الاسم عين الصفة والصفة عين الموصوف.

---

[15] النحل 89.

[16] – القلم 4

ومُحمَّد تدل على أنّه مُحمَّد في خَلقِه وخُلقه وذاته، فهو على ما هو عليه موصوف بما يُمجَّد ويُخلَّد.

وجاءت صفة التحميد لسيدنا مُحَمَّدُ معظِّمة للموصوف بما يُحمد به ويُحمد عليه، ولهذا كان التطابق بين الصفة والموصوف في اسمه مُحمَّد الذي يدل على أنَّه المُحمَّد من الله تعالى تحميداً، ولذلك أتُخِذَ محمَّد في أمّته (أمّة الوسَط) أسوة حسنة في القول والفعل والعمل والسلوك؛ فكانت أمّته في فترة الرسالة خير أمّة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتسارع في الخيرات ولا تظلم أحداً.

ولأنّ محمَّد أسوة حسنة كان خير مشاورٍ لمن يتعلّق الأمر بهم، والشورى هي أخذ الرأي بعد تبيان الأمر واستيضاحه مصداقا لقوله تعالى: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}[17]، ويقول ابن منظور: "شاورهم تعني استخرج آراءهم"[18] أمّا الشيخ الشعراوي فيقول: "فالمشورة هي تلقيح الرأي بآراء متعددة"[19]. وهذا يدلّ على أنّ مفهوم الشورى في الدين الإسلامي يتعاظم عن مفهوم الديمقراطية حتى وإن تقاربت منها في الدلالة والمفهوم، فالشورى لا تقتصر على فئة أو جماعة دون أخرى بل هي قاعدة عريضة لكلِّ الناس مثنى وثلاث ورباع وأيّ عددٍ يمكن أن يكون في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع، ولذلك فممارسة الشورى حقّ للجميع الذكور والإناث، ولهذا لا أمر (أي أمر) في الدين الإسلامي إلا ويُعظَّم بالشورى.

---

17 آل عمران 159.

18 تفسير الجلالين . بيروت : دار الفكر ، ص 94 .

19 محمد متولي شعراوي ، تفسير الشعراوي . القاهرة : أخبار اليوم ، المجلد الثالث ، ص 1840 .

والأمر: هو، كل ما يتعلق بالإنسان من ممارسة حقوقه وأداء واجباته وحمْل مسؤولياته، سواءً أكان هذا الأمر سياسة داخلية أم خارجية أم أكان هذا الأمر في حالة السلم أو في حالة الحرب، وسواءً أكان اقتصاداً أم علاقات اجتماعية، ولذلك في الآية السابقة يخاطب الله عزّ وجلّ رسوله الكريم ويلزمه بالمشاورة في الأمر، أي وكأنّه يقول: في وجودك يا رسول الله لا ينبغي أن تقرّر أي شيء يتعلق بالناس نيابة عنهم، بل ما يتعلّق بهم من أمرٍ يجب أنْ تكون فيه في حالة شورى معهم، ولذلك كانت الآية (وشاوِرْهم في الأمر) موجَّهة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لتُبيّن له أهمية المشاورة في الأمر مع الذين يتعلّق الأمر بهم.

وبعد أنْ تتم المشاورة في الأمر الذي هو بين الناس (شركاء فيه) يجب أن يؤخذ القرار الذي أصبح العزم فيه واضحاً حيث لا تردد من بعد مشاورة تفضي إلى قرار عن وعي وإرادة، (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)، أي إذا بلغت مرحلة اتخاذ القرار، واتخذته بعد المشاورة فتوكل على الله لتنفيذه وفقا لِما صمّمت عليه عن بيّنة، أيّ لا تتأخر؛ فأمضي حيث ما عزمت فإنَّ الله يُحب المتوكلين عليه في تنفيذ أمورهم التي هي في مرضاته تعالى.

ولأنّ المشاورة حقّ لمن يتعلّق الأمر بهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: "أنتم أعرف بأمور دنياكم وأنا أعرف بأمور دينكم، وقال: ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمرهم"[20].

ولذلك كانت منابر المساجد في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلّم منابر دعوة وتبشير وشورى وفي كلِّ أمرٍ يتعلّق بالناس، ولهذا كان رسول الله

[20] الرازي ، ج 4، ص 445.

صلى الله عليه وسلّم مشاوراً لمن يتعلّق الأمر بهم سلماً وحرباً وعهداً وموثقاً.

كان رسول الله محمَّد في واقعة أحد مشاوراً لمن يتعلّق الأمر بهم فأشاروا عليه بالخروج، وعندما وقع ما وقع كان الجميع للمسؤولية متحمِّلين دون أن يُشار بها لأحدٍ بعينه، ولذا فقوله (وشاوِرْهم في الأمر) هي الباقية حتى وإن كانت نتائج بعض المشاورات ليست بالإيجابيات الظاهرة كما هو حال المشاورة لموقعة أحد، ولأنَّ الكمال لله وحده فلا استغراب أن يكون الناس الذين يتعلّق الأمر بهم على غير كمال فيقعون في مثل ما وقع فيه المتشاورون في موقعة أحد، ولأنَّ الشورى حقّ فلا ينبغي أن تُفسخ بأسباب عدم الكمال، بل به يجب أن تُرسَّخ بين الناس ليكونوا على الحقّ عدلاً ورحمة.

وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم مشاوراً حيث استشارهم في الخروج لبدر، وفي الخروج إلى أُحُد، وفي شأن الأسرى، واستشار عموم المقاتلين في رَدِّ سبي هوازن، وفي غير ذلك كثير، وفي مثل هذا الأمر لقد أخرج الخطيب عن عليّ قال: "قلت: يا رسول الله الأمر ينزل بعدَك لم يَنزل فيه قرآن ولم يسْمع منك فيه شيء قال: اجمعوا له العابِد من أمّتي واجعلوه بينكم شُورى ولا تقضوه برأي واحد"[21].

وفي حالة ما لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم معهم فمن بعده يصبح الأمر بينهم شورى مصداقا لقوله تعالى: {وأمْرُهُم شُورى بينهم}[22].

إذن بكل وضوح إنَّ الأمر الذي يتعلّق بالناس في فترة الرسول صلى الله عليه وسلم كان في حالة شورى بين الرسول والآخرين الذين يتعلّق الأمر

---

[21] التحرير والتنوير ، ج 3، ص 263.

[22] الشورى 38 .

بهم. أمَّا من بعده فيترك الأمر بين الذين يتعلّق بهم شورى يقرِّرون ما يشاءون فيه، وينفِّذونه كما يشاءون وفقا لما يرون، ولهذا لا ينبغي أن يتقدَّم أحد لينوب عن الناس فيما يتعلّق بهم من أمرٍ.

وكلمة (أمرُهُم) تتكون من جزأين هما:

. أمْرُ.

. وهُم.

فالأمر هو ما سبق تبيانه، أمّا (هُم) فجاءت مطلقة، أيّ كلّ من هم على علاقة ارتباط مع الأمر، ولفظة (بينهم) الظرفية تعني أنْ تقتصر الشورى في الأمر على الذين يعنيهم الأمر فقط ولا مكان لغيرهم، ولتأكيد هذه الخصوصية قال عزّ وجل (بينهم)، ولم يقل بين الحاكم والمحكومين، أو بين السادة والعبيد، أو بين المسؤول وغير المسؤول.

الشورى صفة أصيلة من صفات العقلاء كونها رافداً مهمّاً في تحسين الاختيار الذي يصبّ في قرار الإرادة الناتج عن الوعي الجمعي، ومَنْ شاور الناس شاركهم فيما يعقلون، وذلك من أجل تحرّي أفضل السُبل التي تقود إلى نجاح فكرة ما، ذلك أنّ أيّ قرار بإرادة لا يستند إلى المشاورة فهو مبني على نقص في الفكرة، ولذا فالعلاقة قويّة بين الإرادة والأمر والواقع والظرف الذي هو فيه، الإرادة قوّة تُمكِّن من اتخاذ قرارات وفق معطيات واقعية، وهذا الواقع إنما يتمثّل في أفراد المجتمع الذين يتعلّق الأمر بهم؛ فكلما كانت دائرة الشورى متَّسعة للذين يتعلّق الأمر بهم كان الاختيار أقرب إلى الواقع، أو مطابقاً له، وبالتالي كان قرار الإرادة ينسجم مع هذا الواقع الذي يُهيئ له في دائرة الممكن.

ولأنَّ الأعمال تتفاضل وتختلف درجاتها، وشرط نجاح الأعمال سلامة المعتقد، أو نجاح الفكرة، أو الأفكار التي تقوم عليها تلك الأعمال، ومن

أجل تطابق الفكرة النظرية مع الواقع العملي قدر المستطاع وجبت الشورى التي تُؤسس عليها أمّة الوسَط بما يحقّق الوسطيّة.

ولذا فالشورى لا تقتصر على فرد أو صديق أو جماعة دون أخرى، وإنّما كلّما اتّسعت دائرة الشورى، اتّسع مجال الاختيار، وحتى الذين لا تظن بهم خيراً يدخلون ضمن الشورى التي بأسبابها تتطهّر أنفسهم أو تقتدي للأحسن والأقوم؛ فمن خلال الشورى يتمّ الحصول على أفكار عقلية وخلاصة تجارب تستند إلى أساس واقعي، من خلال الذين تتمّ استشارتهم، فمجموع الأفكار التي يتمّ استخلاصها شورى إنّما هي نتاج تجارب وخبرات وحاجات متنوعة ومتطوّرة؛ إمّا مقتبسة من الواقع من خلال المشاهدة بإعمال الفكر وعملية التأمل، أو مكتسبة منه على أساس تجربة سابقة؛ فهذه الشورى وإن كانت فكرة ذهنية، إلا أنّها تُكوّن معطيات واقعية، وعلى هذا الأساس يستطيع المشاور أن يُركِّب من خلال إدراكه لِما هو واقع مدركات وتصورات جديدة تُسهم أو تؤدي إلى إنتاج معرفة مضافة بأساليب أكثر فائدة ونفعاً في صناعة المستقبل الأفضل.

وعليه فالشورى أمر تحقّقه امّة الوسط، وتعمل به، فهي فضيلة في مرضاة الله تعالى؛ فمن يريد أنْ يكون من أمّة الوسَط فعليه بالشورى في كلِّ أمر مستوجب الاستشارة فيه.

ولأنَّ الشورى من الفضائل التي جاءت في القرآن الكريم لِما تؤدي إليه من اختيار صحيح؛ فقد أمر الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام بها في قوله تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}[23].

---

[23] آل عمران 159.

وعليه نقول: المشورة هي اغناء الفكرة من استظهار آراء الآخرين لمعرفة ما لديهم من خبرة ومعرفة ورأي، وكذلك فهي تشدّ أواصر الرابطة الجماعية والمجتمعية بين من يتعلّق الأمر بهم؛ فالمشورة تنوّر الأفكار وتوضّح الأمور، ممّا يضفي زيادة في الفهم عندما يُقدِم العقل على الاختيار وخاصة في الأمور المصيريّة التي تحتاج إلى إمعان النظرة وتقليب الفكرة، وفي ذلك من الفوائد والمصالح ما لا يخفى على عاقل، إضافة إلى ذلك فإنّها للمسلم من العبادات التي يتقرَّب بها إلى الله تعالى.

إذن الاستشارة تؤدي إلى صواب الرأي، ولا يكاد المشاور أن يخطئ، وإن أخطأ عن غير عمدٍ فقد شارك من استشارهم في حمْل المسؤولية.

وعلى ما تقدم فإنّه كلّما اتّسعت دائرة الشورى، كان مجال الاختيار رحب في اقتناص الصواب الذي يخدم قرار الإرادة عند الإقدام على الفعل، (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) أي من بعد استكمال معطيات ممارسة الشورى تصبح الخيارات أمام المنفِّذين لِما ترتب عليها من قرارات متعدّدة مستوجبة التوكل الذي لا تردّد من بعده.

ولذا إذا أُرِيدَ للمجتمع أن يكون قويّاً مؤمناً بالواحد الصمد، عليه بتمكّين أفراده من ممارسة الحريّة بأسلوب الشورى في المجالات الآتية:

المجال الاجتماعي.

المجال الإنتاجي.

المجال السياسي.

المجال النفسي.

المجال الذوقي.

المجال الثقافي.

ولأنَّ أيّ أمر من الله لعباده يتطلّب من عباده استجابة؛ فقد استجاب الذين آمنوا لربِّهم بإقامة الصلاة وبجعل أمرهم بينهم شورى وهؤلاء هم الفائزون، قال تعالى: {وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}[24].

ولهذا لقد كانت الشورى هي القوّة التي ساندت الحقّ في فترة رسول الله وستظل قوّة مهابة ومقدَّرة من بعده عند المستخلفين في الأرض؛ فكان الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر التزاماً بها حتى ولو كان القرار المترتب عليها مخالفاً لرأيه.

ولأنّ أمر الحرب كأيّ أمر من أمور الناس شورى بينهم، فلا يجوز فيه الإجبار من أحد، الأمر الذي جعل الرسول صلى الله عليه وسلم لا يتجاوز التحريض على الجهاد بعد أن أُذن له وللمؤمنين بذلك، ومن لا يرغب في ذلك لا يكون إلا مع الخوالف.

وعليه لم يكن للرسول جيوشا نظامية كما هو حال المجتمعات من بعده، بل كان معه مقاتلون من أجل إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل وبكلِّ اشتياق ورغبة مما جعلهم الموصوفون في القرآن الكريم بـ(المجاهدين)، أمَّا أمر الجيوش اليوم فهو عبارة عن موظفين مأجورين من قبل الدولة للدفاع عنها أو عن الحكومة، وهذه الجيوش عندما يُكتب عليها الحرب تدخله متثاقلة مما يجعل المجنّدين غير راضين وليس لهم حرية التخلُّف عن تنفيذ الأوامر التي تصدر لهم، وهم لا رأي لهم، ولهذا فالهزائم فيها مما يجعل الهزائم العسكرية علامة من علامات الجيوش المأجورة. ولهذا لا خير في متباطئ متثاقل مصداقاً

[24] الشورى 38.

لقوله تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم: {فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين}[25].

وبالرغم من الخسارة الحربية للمسلمين في بعض المعارك التي خاضوها ضد الذين كادوا لهم المكائد ومكروا بهم مكراً إلا أنَّ الانتصارات كانت الحليف الأكثر تكراراً لهم وذلك نتيجة الإيمان بالقضية التي جاهدوا في سبيلها بالقوّة، قوّة العقيدة وقوّة التوحيد وقوّة الحُجَّة وقوّة النفس وقوّة الإرادة.

ولذا فالفرق كبير بين من يقاتل من أجل قضية وبين من يقاتل من أجل حكومة؛ فالذي يقاتل من أجل قضية دينية أو وطنية فهو يقاتل في حقيقة الأمر من أجل كرامة شخصية يكون لها الاعتبار والتقدير والاحترام بين الناس، ويكون لها الاعتبار في المستقبل الخالد مما يحقّق للمقاتل النصر أو الاستشهاد، أمَّا الذي يقاتل بغير قضيّة فلا يكون له اعتبار لا في الحاضر ولا في المستقبل، فيكون في حالة استسلام وهزيمة ويكون الندم له رفيقاً.

وعليه جاء الأمر في قوله تعالى: (شَاوِرْهُمْ) مطلقاً لا مقيداً على أمرٍ محددٍ، أي شاورهم يا محمَّد في كلِّ أمر من أمورهم المؤدية إلى علاقات بينهم.

ولأنّ الشورى هي البوتقة للصواب والرشاد فهي حقّ يجب أن يُعطى ويُمكَّن الناس منه، وإنْ لم يعط سيتم أخذه كلّما تهيئة له الظروف.

والشورى في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لها مرامي منها:

. تُمكِّن من معرفة خير الأمور بين الناس وأشرها.

. تُمكِّن من اتباع أمر الله بين العباد وبالعباد.

---

[25] النساء ، 83 .

. تُمكِّن المتشاورين من المعرفة الحقّ.

. تُمكِّن من معرفة واكتشاف المتميِّزين في المجتمع فكراً واستعداداً وقدرةً وقدوةً حسنة.

. تُمكِّن المشاركين فيها من المشاركة في حمْل أعباء المسؤوليات الجسام.

. تُمكِّن أصحاب الأفكار والرياء من بوتقة أفكارهم ورؤاهم في قرارات قابلة للتنفيذ وفقا لِما هو متاح لديهم من إمكانات.

. تُحسِّن من المستوى المعرفي للمتشاورين وترتقي بهم إلى ما يفيد وينفع.

. تُمكِّن الأفراد والجماعات من الانتماء إلى النظام الذي أقرَّ لهم حقّ المشاورة.

ولأنّ النبي الكريم محمَّد صلى الله عليه وسلم جاء بالحقِ آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر فهو لابدّ وأن يكون محلاًّ للطيبات، قال تعالى: {وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ}[26].

ولأنّ النبي الكريم جاء آمراً بالمعروف وناهٍ عن المنكر ومحلاًّ للطيبات فليس له بدّ إلا أن يحرِّم الخبائث، قال تعالى: {وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[27]، ولذلك يكون النبي قد وضع عن المؤمنين إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

ولأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حكيم؛ فهو يمتلك الحكمة التي بها يوعظ الآخرين من بعده لعلهم يهتدون، ومع أنّ الإنسان في كثيرٍ من الأحيان هو في حاجة لمن يعظه، إلّا أنّه قد يكون رافضاً للموعظة إنْ لم

[26] الأعراف 157.

[27] الأعراف 157.

تكن بالتي هي أحسن، ولهذا أمر الله تعالى رسوله الكريم بأنْ يدعوإلى سبيله عز وجل الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ}[28].

ولهذا كان النبي عليه الصلاة والسلام خير مجادلٍ في إحقاق الحقّ بالتي هي أحسن وأقوم، ذلك لأنّ الجدل إصرار في الحوار يؤدي إلى اقتناع عن إرادة، ويستند الجدل على قوة الحُجَّة وإيمان المحاجج وقوة رسالته التي بها يحاجج، وإن خرج الجدل عن التي هي أحسن قد تكون النتيجة ما لا يحمد عقباه وهو الصدام والنزاع، {وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}[29]، قال تعالى (جادلهم) ولم يقل (حاورهم)، فالمجادلة فيها مكابدة ودرجة عالية من التحمل، وعدم الإسراع في الخروج من الموضوع، إلى أن تتحقّق القناعات بعد مكاشفات، وحُجج دامغة، ليس فيها تزوير أو تهرّب من إحقاق الحقّ، وعلى المحَاوِر أن لا يُستفزّ من قِبل المُحاور الآخر، فالاستفزاز قد يُنهي زمن المجادلة التي لا ينبغي أن تُهزم بالاستفزازات غير المسؤولة من قِبل الآخر. أمّا قوله (حاورهم) ففيها شيء من التخفيف إذا ما قورنت بالمجادلة، ففي المجادلة إصرار، وعدم إعطاء الفرصة لمن يريد أن ينهي الجدل قبل الوصول إلى نتائج مقنعة، وفيها التحذير والإنذار، وفيها التوعد إذا لم يتمّ الاتفاق، وفيها معرفة العواقب.

أمَّا الحوار فقد لا تكون فيه مكابدة، يعتمد على قوّة الحُجّة، التي لا تستوجب الوعيد والتهديد، وفي الحوار شفافية ومنطق اعتبار الأنا والآخر.

في حالة التعنّت وفشل المجادلة، يتم تسخير الإمكانات لكفِّ من يمتلك القوّة المهددة للحقِ عمّا يهدف إليه من مشاكل أو مآسي، ولذا يعتبر المال

---

[28] النحل 125.

[29] النحل 125.

والنفس العنصران التاليان في الاستخدام بعد عدم التفهُّم لِما دار من حوار بين المتجادلين بالحُجّة، والمتجادلون عندما يفقدون قواعد الركون إلى المحاجّة المنطقية، قد يضطروا إلى الخصام الذي لا طائل من ورائه إلا الاختلاف والاقتتال.

إذن الأساس أن يتم التجادل والحوار بالتي هي أحسن، وعندما يصل الحوار والمجادلة إلى طريق مسدود فلا بدَّ من المواجهة العلنية بما هو أسوى حيث ينقسم الناس إلى فئتين، فئة مع الحق، وفئة مع الباطل. وعندما يحدث الصراع فقد يمتد من أصحاب الحقِ إلى المناصرين لهم من جهة، وبين أصحاب الباطل والمناصرين لهم من جهة أخرى. ولهذا فحدود الحرب عندما تبدأ تكون معروفة، ولكن عندما تستمر لا تُعرف حدودها، ولذا فعلى المتحاورين أن يضعوا في اعتباراتهم في الحوار المنطقي حدوث المتوقع وغير المتوقع حتى لا يتمّ الاستغراب بعدما تحدث المفاجأة.

وعليه فالقبول بالمحاجَّة هو قبول بالوسَطيّة، والخروج عنها خروج عن الوسَطيّة، وعندما يخرج أطراف الحوار عن حدود المجادلة دون تفهّم لبعضهم بعضاً، أو دون تفهّم لقضاياهم ولِما يجب وما لا يجب تجاهها، فقد يحدث بينهم الصدام الذي تُسخّر له كل الإمكانات والقوة اللازمة للمواجهة أو للتصدي، وبطبيعة الحال المواجهة لن تكون إلّا بالأنفس المؤيدة والمعارضة للفكرة (موضوع الاختلاف).

إذن عندما تُغيَّب الحجّة بين المتجادلين بالتي هي أحسن يُفسَح المجال للخصام، وللصدام، وللتطرّف، الذي يتطلّب حشد الإمكانات المادية من مال وعتاد، ثم بعد ذلك تحشد الأنفس القادرة على خوض الحرب، وعندما تشتعل نار الحرب، تُقدَّم الأنفس فداء للدين أو الفكرة التي تمَّ الاعتراض عليها. وبرغم ذلك لابدَّ للحرب أنْ تتوقف بالمغالبة أو بالتحاور لوقف سفك

الدماء، ولأجل ذلك ينبغي أنْ يعود أطراف الحوار إلى طاولة التفاوض والمجادلة بالتي هي أحسن للوصول إلى الوسَطيّة.

ولأن النبي محمَّد صلى الله عليه وسلم عدله مستمد من العدل المطلق فهو طائعُ للأمر الذي استوجب عليه اتباع العدل بعد الدعوة والاستقامة المأمور بهما، قال تعالى: {فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آَمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}[30].

فهذه وصية جامعة تحث على العدل المطلق لمن أراد أن يلحق بركب العدل؛ فالله العدل يأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يستقيم كما أمره على منهج العدل الذي أنزله عليه كما انزله على من قبله من الأنبياء والرُسُل، ولذا فمن أراد أن يلحق بركب العدل فعليه باتباع نبي العدل على شريعة العدل، والاكتفاء بما أنزل على النبي الذي أُمر ليعدل فعدل، أمّا الأمر بعدم اتباع الأهواء فهو أمر مقصده مفضٍ إلى تحقيق الوسَطيّة وذلك بتجنّب الأنانيّة الفرديّة (الأهواء) التي هي من أبرز مثبطات الوسَطيّة.

وعليه فالعدل ميزان وقسط به يتم الفصل بين المحتكمين، أو الشركاء والخلطاء دون ظلم أو انحياز، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}[31].

---

[30] الشورى، 15.

[31] النساء 58، 59.

ولأنَّ الله هو أحكم الحاكمين؛ فهو يرى ما لا يرى المخلوق في أمره وأمر من حوله، فعندما بعث محمَّد عليه الصلاة والسلام رسولاً مصِّدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ليحكم بينهم بما أنزل الله وهو أحكم الحاكمين، كان أمره تعالى لنبيّه محمَّد أن لا يتَّبع أهواء المختلفين في أمرهم وأن يحكم فيهم بما أنزل الله في كتابه الحكيم الذي لا انحياز فيه إلا للحقّ، قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آَتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}[32].

ولأنّه أحكم الحاكمين وحكمه الحقّ بالمطلق فالحكم بما أنزل يُعدُّ اتباع وطاعة لأمره ونهيه ولذا فعلى الذين يلتزمون بما أنزل في أحكامهم بين الناس هم من المستخلفين في الأرض بالحقّ؛ فمن تبعهم كان منهم ومن ضلَّ عمَّا يحكمون به وهو الحقّ فلعلَّ ذلك لازدياد ذنوبهم وفسقهم، قال تعالى: {وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ}[33].

وبعد هذا العرض الموجز عن الفترة الأمثولة والإنموذج الأمثل فأين الأمّة اليوم من وسطيّتها؟ ألا يكون النصّ الاعجازي على الحقِ ثابتاً لا يتغيّر؟ ألا تكون سُنّة رسوله الكريم قادرة على خلق الإنسان القدوة الذي يُحقّ الحقّ ويُزهق الباطل! ولأنّ الحقّ ثابت إعجازاً وسنّة، إذن من الذي يتغيّر

---

[32] المائدة 48.

[33] المائدة 49.

عنه؟ ألا يكون البعض من الذين اتخذوا الإسلام عنواناً هم الذين يذهبون ويضلون عمّا يرشد به ويرشُد إليه هذا العنوان العظيم؟

إنَّ وجود النبي صلَّى الله عليه وسلَّم في الأمَّة الوسَط جعل التطبيق يخضع للتوجيه والتبيين دون إكراه وعنف وقسر، ولعل المثال الأبرز في دقة وصواب التوجيه حديث نبوي شريف كثيراً ما يحتجّ به المُنظِّرون لوسطيّة الإسلام، ونحن نخالفهم في كون الحديث حُجَّة على مثالية التطبيق وليس مجرد التنظير، فقد ذكر البخاري حديثاً نصه: "حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِى مَرْيَمَ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ أَخْبَرَنَا حُمَيْدُ بْنُ أَبِى حُمَيْدٍ الطَّوِيلُ أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رضى الله عنه يَقُولُ جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِىِّ صلّى الله عليه وسلَّم يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِىِّ صلى الله عليه وسلَّم فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا فَقَالُوا وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِىِّ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ . قَالَ أَحَدُهُمْ أَمَّا أَنَا فَإِنِّى أُصَلِّى اللَّيْلَ أَبَدًا. وَقَالَ آخَرُ أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ. وَقَالَ آخَرُ أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا؛ فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلَّم؛ فَقَالَ (أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَاللَّهِ إِنِّى لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّى أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّى وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِى فَلَيْسَ مِنِّى)"[34].

هذا التوجيه هو الذي أعطى الوسطيّة مثالية في التطبيق في عصر النبوة لأنَّ الحديث يتحوّل بالإنسان من تطرُّفه إلى الوسطيّة التي تتوافق إلى حدٍّ كبير جداً مع طبيعته، وإيراد حديث واحد لا يعني أنّه الحديث الوحيد الذي يعبِّر عن علاقة الأمَّة بوسطيّتها في عصر النبوة، بل إنَّ الأحاديث والسيرة النبوية عموماً تفصح أيمَّا إفصاح عن مثالية تطبيق الوسطيّة في هذا العصر بتوجيه المعلِّم والموجِّه النبي المرسل محمَّد صلى الله عليه وسلَّم.

---

[34] صحيح البخاري ج 17 ، ص 84.

كذلك تميزت هذه المرحلة بتجذير علاقة جديدة مع الآخر، تقوم على التقدير والاحترام والاعتبار، فقد سنَّ الرسول الكريم محمّد صلَّى الله عليه وسلَّم قاعدة التعامل مع الآخر يمثلها حديثه عن الجار، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلَّم "مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِى بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ"[35].

-أليست هذه من معطيات الأمَّة الوسَط؟

كما إنَّ العقيدة الراسخة التي تصل في كثير من الأحيان إلى درجات التسليم اليقيني أسهمت بشكل كبير في مثالية تطبيق المنهج الوسطي في عصر النبوة، إذ طالما رغبت النفوس والعقول في بيان حقيقة هذه العقيدة التي تقوم على القيم والفضائل وتهدف إلى إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل.

كما كان لوضوح الأهداف وتوافر الوسائل دوره البارز في إرساء قيم وفضائل الوسطيّة في ذلك العصر.

لقد كان عصر النبوة عصر إرساء الثوابت أكثر من كونه عصر المتغيرات، إذ كان كلُّ ما يصدر عن النبي من كلام الله عز وجل ثابتاً وقطعياً، وأغلب ما كان يصدر عنه صلّى الله عليه وسلَّم من توجيهات ثابتة أيضا بنصّ قول الله عز وجل: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى}[36]، وقوله تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}[37].

---

35 صحيح مسلم ج 8 ، ص 37.

36 النجم1-5.

37 الحشر 7.

لكنَّ المتغيرات التي وصل بعضها حدَّ التناقض ظهرت بعد وفاة النبي الذي لم يوصِ بأحدٍ يتولى أمور الأمّة من بعده وذلك ليقينه بما أمره الله تعالى به أن يكون الأمر من بعده بين الناس شورى؛ فقد أفرزت وفاته واقعاً جديداً على الساحة، واقعاً فيه شيء من التناقض والتضاد الفكري المفضي إلى الخلاف ممثلاً بما حدث في بيعة السقيفة وما بعدها مما كان نتاجاً لهذه المعالجة لمتغير مهم في مسيرة الأمَّة، لقد تمّت مبايعة أبوبكر رضي الله عنه بأغلبيّة من كان حاضراً بالسقيفة، مبايعة لولاية الأمر وليس مبايعة لاستخلاف رسول الله، فالرسول يستخلفه الله ولا يستخلفه الناس، أي أنّ الرسول يصطفيه الله اصطفاءً ويجتبيه اجتباءً، ولأنّ محمَّداً خاتم الأنبياء والمرسلين، لذا فمن يأتي من بعده لن يكون خليفة له، بل خليفة لمن تولى أمرهم رعايةً وعن إرادة حيث لا إكراه في الدين؛ فالرسول والنبي لا يخلفه إلا نبي رسول، ولأنّ أبوبكر لم يكن كذلك؛ فهو لم يكن خليفة لرسول الله ولكنّه خليفة على الأمّة اختياراً.

بعد بيعة أبي بكر أستمر الإيمان والإسلام قوة على الأرض، وفي مقابل ذلك ظهرت الردة من قِبَلِ ضعاف الإيمان، وحُسِم الأمر بانتصار الأمّة الوسّط بقيادة أبوبكر الصديق وازداد الإسلام على قوته قوة بانتشاره في المشارق والمغارب، فتوحات لا رسالة لها إلا توحيد الخالق وإحقاق الحقّ ونشر العدل بين الناس طاعة.

هذه البيعة التي أُريد لها أن تكون حلّاً لأزمة كان التعاطي معها مفتاحاً لأزمات كثيرة تأسس عليها خلاف عميق، وفي هذا الأمر الكثير يتساءلون:

أين الأمَّة من وسطيّتها؟

وفي خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ازداد التوازن والاعتدال إلى فكر وسلوك الأمَّة من خلال حزم عمر في إحقاق الحقِّ وإزهاق الباطل، وكذلك من خلال عدل عمر رضي الله عنه الذي بدأه بسلسلة طويلة من الأعمال تهدف إلى تحقيق الوسطيّة في الأمّة على أرض الواقع، من أهمها:

- تعهد الخليفة بأداء الحقوق المالية للرعيّة كاملة من خراج وفيء، لا يحتجن منه شيئاً ولا يضعه في غير محلّه، بل سيزيد عطاياهم وأرزاقهم باستمرار الجهاد والحض على العمل وضبط الأداء المالي للدولة.

- قام بتطوير المؤسسة المالية، وضبط مصادر بيت المال وأوجه الإنفاق في الدولة.

- مطالبة الرعيّة بأداء واجبها من النصح لخليفتها والسمع والطاعة له في غير معصية لله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما يشيع الرقابة الإسلامية في المجتمع[38].

وكذلك تم تطبيق الشورى على نطاق واسع في الأمَّة انتهاجاً لثابتٍ من ثوابت الإسلام، {وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}[39].

لقد انتهج عمر رضي الله عنه سُبل مبدأ الشورى في الأمَّة، فكان لا يستأثر بالأمر دون المسلمين ولا يستبدُّ عليهم في شأن من الشؤون العامة، فإذا نزل به أمر لا يبرمه حتى يجمع المسلمين ويناقش الرأي معهم ويستشيرهم[40]، وقد تهاوت في أيامه عروش كسرى وقيصر، وقضى على

---

38 أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، الدكتور على الصلابي، ج 1 ، ص 113.

39 الشورى 28.

40 أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ج 1 ، ص 117.

أعظم دولتين في ذلك الزمان[41]؛ فأين الأمة اليوم من هذه المواقف العظيمة، وأين هي من وسَطيّتها!

ثمَّ تَبَعَ ذلك متغيرات جديدة بدأت مسيرة طويلة من التناقضات والخلافات الفكريّة التي وصلت في كثير من الأحيان إلى التقاتل مثل حادثة الفتنة الكبرى، الفتنة التي قُتل فيها خليفة المسلمين عثمان بن عفان رضي الله عنه بيد المسلمين، لاشك أنَّها حادثة مدمِّرة لمعطيات الوسطيّة ولتأسيسها الفكري والاجتماعي.

ولذا فأين الأمَّة من وسطيّتها؟

ثم تبعتها حرب الجمل بين السيدة عائشة وبعض الصحابة وقسم من المسلمين من جهة، وبين سيدنا على وقسم آخر من المسلمين من جهة أخرى، ثم ما أعقبها من حرب بين معاوية وعلي، وهكذا كما في بقية مراحل الخلاف في مسيرة الأمَّة؛ فهل هذه هي الأمّة الوسَط؟

ومن بعد ذلك تتهيأ الظروف، مع انتباه العقول، واستعداد الرجال لإعادة الأمَّة إلى وسطيّتها، أو لإعادة الوسطيّة إلى الأمَّة، وذلك في خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، حيث أعيد الاعتبار لميزان الحقّ والعدل، وساد الاعتدال والتوازن مرة أخرى، وذلك من خلال جعل عمر بن عبد العزيز العدل قيمة معياريّة ثابتة لا متغيرة طيلة فترة خلافته، ولعل عدل عمر من أهم أسبابه يرجع إلى إيمانه بأنّ العدل أحد نواميس الله في كونه ويقينه التام بأنّ العدل مرتكز أساسي من مرتكزات الوسَطيّة في امّة الوسَط، وثمرة من ثمرات إيمانها، وأنَّه من صفات المؤمنين المحبّين لقواعد الحقّ، وإلى إحساس عمر بوطأة الظلم للناس في خلافة بعض مَن سبقه من الخلفاء والأمراء بالإضافة إلى السبب الأهم وهو: ما أمر الله به من

---

[41] أوجز الخطاب في بيان موقف الشيعة من الأصحاب، ج 1، ص 23.

العدل والإحسان، وأنّهما على رأس الأسس العامة لأحكام الشرائع السماوية، وما نمّاه الإسلام في نفس عمر، من حب للعدل وإحياء لقيمه، وهذه صورة من عدله، "فتورد ما رواه الآجري من أنّ رجلاً ذمّياً من أهل حمص قدم على عمر، فقال: يا أمير المؤمنين: أسألك كتاب الله عز وجل، قال: وما ذاك، قال العباس بن الوليد بن عبد الملك: اغتصبني أرضي . والعباس جالس . فقال له: يا عباس ما تقول؟ قال: أقطعنيها يا أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، وكتب لي بها سجلاً، فقال عمر: ما تقول يا ذمي؟ قال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله عز وجل. فقال عمر: كتاب الله أحقّ أن يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك، فأردد عليه يا عباس ضيعته فردّها عليه"[42].

وهنا نستطيع القول أنّ الأمَّة التي شهدت مثالية في تطبيق الوسطيّة في عدد من المراحل شهدت انهياراً تاماً لنظام التطبيق ومنهجيته في مراحل أخرى.

أمّا المرحلة الحاضرة وبالرغم من تصاعد وتعالى الأصوات التي تدعو للوسطيّة، ووجود الظروف المهيأة للتطبيق في أوساط الأمَّة، لكن الوسطيّة بكل معطياتها غير متحقِّقة، ليس لعلَّة في الوسطيّة ذاتها بل لوجود عديد الأسباب التي تُضيِّق دائرة الحضور والتطبيق لصالح دائرة التغييب والإلغاء.

أمّة تتّبع القول المذهبي وكأنَّه قول مطلق، وتتّبع أراء بعض المفسِّرين دون أن تتبيّن حقيقة ما يُفسِّرون، وتنقسم بين سُنّة وشيعة، ونيران الفتنة بينها تُوقد تحليلاً وتحريماً بغير حقّ؛ فهل هذه أمةً وسَطاً!

[42] عمر بن عبد العزيز معالم الإصلاح والتجديد، الدكتور على الصلابي ج 3 ، ص 362.

أمّة تنتشر الفتن فيها، ويكفِّر بعضها بعضاً، ويتزندق بعضها على البعض، ويتطرَّفون إلى ما يؤدي إلى سفك الدماء بينهم، هل هذه أمّةً وسطاً!

أمّة تظهر البدع فيها، وتنتشر فيها المفسدة في الأمانة والأخلاق، تُطفِّفَ الكيل والميزان، وتزوّر الحقائق في صناديق الانتخابات وفي التقارير المقدمة لولاة الأمر، ولا تشهد بالحقّ خوفاً وطمعاً، هل هذه الأمّة هي أمّةً وسَطاً؟

أمّة تتفشى البدع فيها، والشعوذة، ويكيد بعضها لبعضٍ، ويمكر بعضها ببعضٍ، وإن سَرِقَ فيها الأمير سامحته وإن سرق فيها الفقير قطعت يده؛ فهل هذه أمّةً وسطَاً!

أمّة لا تُظهر الزكاة جهاراً نهاراً، وتلغي كلمة الجهاد والفداء من مقرراتها التعليميّة والإعلاميّة والثقافيّة، وتزوّر الانتخابات بغير حقّ، وولاة أمرها لا رقيب عليهم وهي أمّة على رقابها الرقيب والقريب والحسيب والنسيب سلاطين متوّجين بلا تيجان إلى جانب بعض الأجهزة القامعة لحريتهم؛ فهل أمّة هذا حالها يمكن أن تكون أمّةً وسَطاً!

أمّة بكاملها تورَّث من الأجداد إلى الأحفاد، وتُقمع كلما رفعت صوتاً من أصواتها، وتُغيّب وتُهتك أعراضها، ويُعذّب بعض أبنائها في مراكز الشرطة ويُدفع بهم إلى الزنزانات، هل هذه أمّةً وسَطاً!

أمّة لا رأى لها في رأيها، تقبل بتقديم التنازلات، ولم تكن راضيّة على نفسها ولا على معاشها ولا على حاضرها ومستقبلها؛ فهل يمكن لها أنْ تصنع المستقبل الأفضل والأجود والأنفع والأكرم!

أمّة قراراتها توجّه من الخارج، وثرواتها من أجلها لا تستثمر، بعض من أراضيها محتلّة برضا وُلاة أمرها، الصومال القنابل والتفخيخ، العراق القنابل

والتفخيخ، إفغانستان القنابل والتفخيخ، السودان تأزمات في الشمال والجنوب والتهديد من الخارج كلَّ يوم، فلسطين الحجارة في مواجهة الطائرات والقنابل المحرّمة دولياً، الجولان تحت الاحتلال، الباكستان تعدهم جميعاً وقلوبهم شتى، المسلمون في جميع بوابات السفر يُفتشون مع فائق التحقير.

إذن ليس من الغريب أن تظهر أصوات منادية بتطبيق الوسطيّة، لأنّها منهج حقّ يهدف إلى غايات نبيلة عديدة، ولكن من الملفت أن يظهر في أوساط الفكر من يرى أنَّ الوسطيّة لا تتماشى مع متطلبات العصر، ولا تتجانس مع الظروف المحيطة بالمسيرة الإنسانية، هذا الاتجاه الفكري أخذ منحيين هما:

- فكري تنظيري.
- عملي تطبيقي.

أمّا بالنسبة للفكري التنظيري فهذا مجال يمكن أن يجد له من المفكرين القادرين على تقديم الصورة الحقيقة للوسطية، ومدى مجانستها للظروف المحيطة بالمسيرة الإنسانية، وتطابقها مع متطلبات العصر، الأمر الذي يفضي في النهاية إلى إيجاد توازن فكري ينتج عنه لا محالة رجاحة فكر على فكر، ولأنَّ الوسطيّة حقّ؛ فلاشكَّ أنَّ معطياتها ستكون أقوى مما يجعل فكرها سائداً في أوساط الناس.

أما المنحى العملي التطبيقي فهو المنحى الأكثر تأثيراً في عدم تحقيق الوسطيّة في الأمَّة، ذلك أنَّ العمل هنا يتّجه نحو تطبيقات معاكسة للوسطيّة، ويمكن أن نضع عدداً من الظواهر المسبّبة لعدم تحقيق الوسطيّة، منها:

1 . النوازع الفردية:

بدون شكّ الفرد الأمَّة هو الذي يسعى لتحقيق منهج الوسطيّة في الأمَّة عندما يختار بإرادة أن يكون وسطيّاً، لكنَّ تخلي الفرد عن دوره وعن حقيقة وجوده، وتمثُّله لقيم وفضائل الأمَّة أفضى إلى واقع جديد مفاده أنّ الفرد يتصرّف بفرديته التي هي مضاد إرادي أو لا إرادي لتحقيق مبدأ الفرد الأمَّة، وبهذه الفردية المفرطة والأنانية ترتكز موانع تحقيق الوسطيّة، وما لم تتخلّص الأمَّة من فرديّة أفرادها وتحولهم من الأنا الأناني إلى الأنا الجمعي فلن يكون بإمكان الأمَّة أن تحقِّق وسطيّتها لتكون شاهدة على الناس.

2 . الفكر المضاد:

ينقسم الفكر المضاد على قسمين هما:

. فكر واع بما يسوّق له (تعمداً).

. فكر جاهل بحقيقة ما يدعو إليه (لا قصداً).

الفكر الواعي بما يسوّق له يتمثل في التيار المضاد لفكر الإسلام على نحو ممنهج، هذا الأمر غير مقصور على غير المسلمين؛ فعلى مرِّ التاريخ هناك مفكرون مسلمون يتعاطون بأفكار منحرفة لمضادَّة الفكر الإسلامي عموماً؛ فمنهم من يحاول البحث عمَّا يعتقده ضعفاً أو ما يصفه بالتخلّف في تاريخ الإسلام ليتخذه مطعناً في الفكر الإسلامي، لذلك تراه يطالب بحذف وشطب بعض من فضائله العظيمة.

مثل هذا الفكر يمثِّل عملية مواجهة مع منابع الوسطيّة ومعطياتها بمحاجّة غير موضوعيّة وبأسباب تتلمذ على أفكار معادية للإسلام ولأمّة الوسَط التي يُراد لها أن تكون سائدة حقاً وعدلاً بين الناس.

. الفكر الجاهل بما يدعو له.

المسلم غير الواعي بأساليب التبشير والدعاية للإسلام حقاً وعدلاً قد يسيء إلى الفكر الإسلامي وإلى الوسطيّة عن غير عمدٍ بما يَقدِم عليه من قولٍ أو فعلٍ أو عملٍ؛ فمثل ذلك قد يكون من موانع تحقيق الوسطيّة ونشرها بين الناس، ولذا فمن يعمل بغير علمٍ سيكون متخبّطاً في دائرة عشواء، وهو كحاطب ليل يأتي بالغث والسمين بسبب قصور الفهم لحقيقة المنهج ودقائق العقيدة، الأمر الذي يجعل من تقديم الوسطيّة وسيلة ضعيفة واهنة ومهزوزة.

3 . المصلحة والنفعية.

من أبرز ما تواجهه الوسطيّة على صعيد التطبيق المصالح والمنافع الفردية والجماعية، ذلك أنَّ هذه المصالح غالباً ما تعمل لصالح الأنا، وتستثني مصالح ومنافع الآخر من حساباتها إلا ما جاء عرضاً في طريقها، وبما أنَّ الوسطيّة تعمل للأمّة وتجمع في منظورها مصالح الأمَّة، فلاشك أنَّ التناقض سيحصل بين المصلحية والنفعية من جهة، وبين الوسطيّة من جهة أخرى، فإذا تولى أصحاب المنافع والمصالح السيادة على المقدّرات، وكان لهم أثر بارز في تسيير حياة الأمَّة التي يفترض أن تكون الوسطيّة منهجها فلاشك أنّهم سيعارضون وبإرادة تطبيق الوسطيّة ويمنعون تحقيقها في حياة الأمَّة.

وبناء على ذلك لسائلٍ أنْ يتساءل:

ما موقف أولياء الأمر من الوسطيّة؟

لقد كانت الأمَّة تنهض برؤسائها وأبطالها وأفذاذها، حين كان هؤلاء على درجة عالية من الالتزام العقدي والفهم الحقيقي لدورهم في قيادة الأمَّة، لكن الأمَّة ابتليت فيما بعد ببعض الولاة الأقل شأن من شأنها.

فمثل هؤلاء لم يأخذوا بالوسطيّة وثوابتها، بل أخذوا بأقوالٍ وأفعالٍ وأعمالٍ وسلوكياتٍ لا تصبُّ إلا في صالح بقائهم على رأس هرم السلطة وبأية وسيلة، منها:

أ . ممارستهم التوسُّط هروبا من الوسطيَّة.

التوسُّط ليس فرضاً سالباً في قراءة الحدث، ولكن أن يكون هو الحلّ بغض النظر عن الثوابت والمتغيرات فهذا هو أس المخالفة.

ب . تعطيل الأحكام وتبديلها.

إنَّ ضعف بعض الحكّام في مواجهة حقيقتهم دفعهم إلى مبدأ منافي لإحقاق الحقّ وسيادة العدل بين الناس؛ مما جعل بعض منهم يَقدِم على تعطيل بعض الأحكام، وتبديل أخرى، فولي الأمر الذي يتعاطى الخمرة لابدَّ له أن يعطِّل حكم شاربها، وولي الأمر الذي تمتد يده إلى المال العام لاشكّ أنّه سيغض النظر عن سرَّاق المال العام، وولي الأمر الذي تنفرط حبات شهوته أمام المتع الحرام لاشكَّ سيكون أضعف من إقامة الحدِّ على الزناة، وهكذا فإنَّ حقيقة ولاة الأمر كانت من أبرز معوقات تحقيق الوسطية.

ج . التجهيل:

الجهلاء وحدهم هم من يتمسّكون بالجهل، ومن يسلِّم بقبوله حقيقةً وأمراً واقعاً، ويسوّغ أسباب كثيرة يحاول فيها دفع الشبهة عنه بالتجهيل كأن يلقي اللوم على الآخر في سيادة الجهل في الأمَّة، الآخر ممثلا بالمستعمر وبنقص الموارد، وغير ذلك.

والتجهيل في الأمَّة عمل ممنهج وإن كان مُقنَّعا ببراقع عدة، كأن يكون هناك تعليم في الأمَّة لكنَّه تجهيل أكثر من كونه تعليم وتعلُّم، فماذا يعني أن تكون البلاد مليئة بالمدارس وليس فيها معلّمين مؤهلين لأن ينهضوا

بالجيل إلى العلم والعمل الجاد؛ فهؤلاء سيقومون بنقل جهالتهم إلى الأجيال، الأمر الذي يفضي إلى تجهيل أمَّة بأكملها.

إنَّ مثل هؤلاء من ولاة الأمر أكثر ما يرعبهم أن تكون الأمَّة في أرقى مستويات العلم والتعلُّم، لأنَّ هذا الأمر سيجعل الأمَّة تكتشف حقيقتهم، وسيفضي ولاشكّ إلى رفضهم وإسقاطهم عن تلك الكراسي التي يترفّعون بها على الناس وهم في حقيقة الأمر الخوف يملأهم ولكنّهم لا يتعظون.

د . خلق التأزُّمات المفتعلة:

عندما تبدأ الأمَّة بالانتباه لواقعها فإنَّها أول ما تبدأ هو طرح التساؤلات عن واقعها، وعن مسببات أزماتها، وعدم تمتّعها بحقوقها، وعدم تمكينها من أداء واجباتها وحمْل مسؤولياتها، هذا الأمر يقلق كثيراً بعض أولي الأمر لأنَّ كلَّ هذه التساؤلات ستنتهي عندهم، وهم يعرفون جيداً أنَّهم المرمى لكلِّ سهام النقد، مما جعلهم يفكِّرون ويعملون على إيجاد تأزمات لتعيش الأمّة بكاملها في دوامتها المفتعلة كوسيلة لإلهاء الفكر عن الباحث عن أسباب مشكلته الأساسية ومكمن حلولها.

ولذا تُخلق التأزمات المفتعلة من واقع حياة الأمَّة وحاجاتها، فيوم يعيش الناس في دوامة رفع أسعار الخبز، ويوم تعيش الأمَّة أزمة رفع أسعار الوقود، ويوم تعيش أزمة سكن، ويوم أزمة بطالة، ويوم أزمة حقوق، ويوم أزمة واجبات، ويوم أزمة ماء، ويوم أزمة كهرباء، ويوم تشعل فيه الحكومة نار الفتنة بين المواطنين وبأيّ عِلّة، وإذا لم تنفع كل هذه التأزمات المفتعلة فإنَّه لابدَّ من تفخيم الأزمات كأن تتحوّل من أزمات داخلية إلى أزمات خارجية، حتى تصبح الأمَّة على توتر حدودي مع دولة جارة أو غير جارة ولكن الأقربون أولى بالفتنة، وهكذا تمتدُّ الفتن مع المنظمات والمؤسسات

الدولية، وكلّ ذلك لأجل أن تتصرف الأمَّة عمّا يمكّنها من صناعة المستقبل الأفضل والأجود والأنفع وبلوغ ما يجب.

وعليه، أين الوسطية في أمّة هذا حالها؟

ولقائلٍ للحقِ أن يقوله، أنَّ الأمّة الوسَط هي بحقٍ أمَّة عظيمة تستحقّ التعظيم، أمّة منذُ فجر الإسلام لها رسالة خالدة وللناس كافة، آمنت بها وبشّرت ودعت إليها، وجاهدت في سبيلها، حتى عمّت المشارق والمغارب؛ فلا تشرق الشمس إلا بعد أن تستأذن من هذه الأمّة العظيمة؛ فتأذن لها بآذان الفجر أن تشرق فتشرق. أمّة هيّ هكذا إلا تكون أمّة عظيمة؟

علومها النافعة انتشرت في الأرض ونشرت التقدُّمَ في كل ميادين المعرفة، ألا تكون هذه الأمّة العظيمة أمةً وسَطاً!

رسالة أمَّة الوسَط هي الدين عند المسلمين، وهي الديانة الثانية في القارة الأمريكية (شمالها وجنوبها) وهي الديانة الثانية في دول أوروبا غير المسلمة من شرقها إلى غربها، وهي الديانة الثانية في بلاد الهند والصين، وهي الديانة الثانية في قارة أسيا، وهي الديانة الثانية في بلدان القارة الأفريقية غير المسلمة، وهي الديانة الثانية في روسيا. أمّة نشرت رسالتها في كل المعمورة ألا تكون أمّة تستحقّ التقدير والاعتبار والاعتراف بأنّها العظيمة على كل الأمم؟

أمّةُ طوت عصر الجهالة بظلمتهِ الحالكة، طوته بجملة واحدة (لا إله إلا الله محمَّد رسول الله)، ألا توصف هذه الأمّة بحقٍ أنّها أمّة عظيمة؟

أمّةُ منذُ فجر عصرها المزدهر وهي تتعرّض للاحتلال وتقاوم بكلِّ ما تمتلك من قوة حتى حقّقت النصر استشهاداً أو تحريراً؛ فكيف لا توصف بالأمّة الوسط العظيمة.

أمّةُ تعرّضت لجميع أنواع الاعتداءات وأنواع الاستعمار حبشي وفارسي ومغولي وأوروبي (الإيطالي والفرنسي والانجليزي والألماني والاسباني والبرتغالي) وكذلك الاعتداءات والاحتلال الأمريكي عام 1805م على ليبيا، ومن بعدها وفي هذا العصر احتلالها للعراق وأفغانستان. أمّةُ تعرّضت لأسوأ أنواع الاحتلال وعلى رأسها الاحتلال الصهيوني لفلسطين منذ عام 1948 إلى هذا العام في هذا القرن.

أمّة منذ زمن طيّها عصر الجاهليّة وإلى يومنا هذا تتعرَّض للاعتداءات والاحتلال دون أنْ تستسلم لأحدٍ من المستعمرين والمحتلّين كما استسلمت الأمم الأخرى، الألمان بدون شكّ أمّة عظيمة ومئات الآلاف من الجنود الأمريكان لا يزلون يجثمون بقوة القواعد العسكريّة على تراب وطنهم، واليابانيين بدون شكّ أمّةُ عظيمة وإلى اليوم بلدهم يجثم على ترابه مئات الآلاف من الجند الأمريكان ولا مقاومة، أمّة لم تثأر للموتى اليابانيين في هوريشيما وناجازاكي استسلمت للأمر الواقع، ومثل هذه الأمة أمم أخرى استسلمت. فقط أمّة واحدة لم تستسلم ولن هي الأمّة الإسلامية (أمّة الوسَط) ألا يحقُّ لنا القول أنّها أمَّتنا العظيمة؟

في سبيل تراب الوطن وتحريره من المستعمرين يَقدِم المسلم على الموت رغبةً ومطلباً وهو يعلم أنّه سيحقِّق النصر أو يستشهد دونه ليكون جسده من بعده في الحياة الدنيا معبر يعبر عليه المقاتلون إلى ضفاف النصر، ويكون في الحياة الآخرة في المقامات العظام في الجنة، أمّة أبناؤها يتنافسون في سبيل بلوغ هذه الغايات وهم يقولون (من يطلب الموت تُكتب له الحياة) ألا تكون أمّةً عظيمةً (أمّةً وسَطاً)؟

أمّة لا تخاف الموت والموت يخافها، تغضب وتثور من أجل الكرامة والعرض، أمّة هدفها الآخر تبشيراً ودعوة وإنذاراً وتحريضاً بالحقّ وعلى الحقّ، وغايتها الجنة، ألا تكون أمّةً عظيمة (أمّةً وسَطاً)؟

شهادة أمّة الوسَط

الشهادة هي ما يُدلى به إظهاراً للحقِ من الباطل، وهي دليل إثبات القول والفعل والعمل والسلوك سالبة وموجبة وفقاً لقاعدة لكلّ عملهُ، وهي اعتراف على الآخرين الذين هم في كثيرٍ من الأحيان إذا اقترفوا جرماً أو ارتكبوا ذنباً أنكروا الحقّ عند السؤال، والشهادة قد تكون من فردٍ عدلٍ وقد تكون من أمّة بكاملها، مصداقاً لقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}[43].

فقوله (جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) تدل على أنّهم مجعولون أمّةً وسطاً من أجل أن يكونوا على الحقّ الذي به يُشهد على أفعال وأعمال الناس، ولهذا فهم مجعولون للشهادة الحقّ عدلاً، وإنْ لم يكونوا كذلك يصبحون مخالفين لِما جُعلوا من أجله (شهداء على الناس حقّاً وعدلاً).

إذن الجعل بالنسبة للأمّة هو الذي يُراد لها أن تصير عليه، وليس هو ما خُلقت عليه خلقاً؛ فهو غاية ما يجب، ولأنّه غاية ما يجب؛ فقد يكون بعض من الأمّة على غير ما يجب، وإذا كانوا على غير ما يجب، لن يكونوا شهداء على الناس، وذلك بمخالفتهم أوامر تحقيق الغاية (أمّةً وسطاً).

ولأنّ الوسطيّة لم تُخلق الأمّة عليها خلقاً، جاء الجعل مسألة تحويليّة تخييريّة حيث لا إكراه في الدين، ولهذا فمن يأخذ بالأسباب يُصبح أمّة وتكون أمّته أمّةً وسطاً على الناس شهيدةً، ويكون الرسول المبشِّر بها أمّةً

[43] البقرة 143.

وسطاً خير شاهدٍ عدلٍ عليها وعلى من بشّرتهم ودعتهم ليكونوا في الأرض مصلحين ومعمِّرين لا مفسدين فيها ولا سافكي دماء بغير حقّ، ولهذا عند السؤال تكون المرافعات بالحقّ والحكم بالعدل حيث لا تزوير للشهادة (رُفعت الأقلام وجفّت الصحف)، {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا}[44].

إذن شهادة الرسول صلى الله عليه وسلّم هي شهادة على الأعمال وفقاً لمعايير الحقّ وموازينه التي بَشّر بها ودعا إليها؛ فهو لم يكن شهيداً على الناس بصفاتهم وألوانهم، بل هو الشهيد عليهم بأعمالهم التي سيأتون حاملينها بيمينهم أو بشمالهم أو على ظهورهم، وهذه المعطية تجعل الرسول شاهداً على ما فعلوا من خلال شهادته عند العرض على ما يحملونه دون أن تُخفى منهم خافية، ولأنّه اليوم الذي تُعرض فيه الأعمال دون أن تُخفى خافيّة، لذا فالرسول شهيد بما يراه حقّ اليقين محمولاً يمناً أو محمولاً يساراً أو خلف الظهر، (فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا).

ولذا؛ فشهادة الحقّ يمكن أن تكون لك ويمكن أن تكون عليك؛ فالذي أُوتيَ كتابه بيمينه تكون الشهادة له من الأمّة الوسط اعترافاً، وتكون الشهادة عليه من محمّد الرسول الخاتم للناس كافة إكراماً ورحمةً من الرحمن الرحيم.

أمّا أولئك الذين سيأتون حاملين أوزارهم على ظهورهم تكون الأمّة الوسط شهيدة عليهم بالحقّ أنهم من الأرذلين، ويكون الرسول شهيداً عليهم حقّاً

---

[44] الإسراء 71، 72.

وعدلاً أنّهم من الأخسرين بما جاءوا به من أوزارٍ، {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ}[45].

ولذا يجب أن تقوم الأمّة الوسط برسالتها في الأرض حقّاً وعدلاً وتُصلح وتعمِّر وتفلح ولا تُفسد فيها ولا تسفك الدماء بغير حقٍّ، وأنْ تدعو الناس كلّ الناس إلى ذلك وأنْ تُبشِّرهم بما بُشّرت به من الرسول الخاتم، وأنْ تُحرِّضهم على الخير وأفعاله وأعماله بين الناس، ولتعلم أنّها الأمّة المسؤولة على ذلك؛ فإنْ فعلت، فعلت خيراً، وإنْ لم تفعل؛ فستكون هي المساءلة على ذلك، ولهذا لا بدَّ أنْ يكون الرسول يوم العرض شهيداً عليها أمام الله عند السؤال والحساب، وهو أيضاً شهيدُ فيها باعتباره نبيّها المصطفى وأحد أفراها الكرام، فإنْ شهدت على من تشهد أنّها قدّ بلّغت بما بُلِّغت به، إلّا أنّ البعض ممن تشهد عليهم لم يستجيب ويؤمن؛ فستكون شهادتها حقّ أنّها فعلت؛ فيشهد الرسول الكريم عليها حقّاً. ولكن إنْ قصّرت أو امتنعت أو خالفت ما يجب الدعوة به والدعوة إليه؛ فستكون شهادة الرسول عليها أنّها قد خالفت أو قصّرت مما يجعل المسائل من الناس في دائرةِ الممكن بمفهوم الحياة الدنيا حاصل على مبررات المغفرة والرحمة ويكون حِساب التقصير على ظهر الأمّة التي ينبغي لها أنْ تدعو وتبشِّر حتى يؤمن الناس بالحقّ ويتّبعوه حقّاً.

ولأنَّ لكلٍّ حِسابه وجزائه ثواباً أو عقاباً قال تعالى: {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ

---

[45] الأنعام 31.

بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ}[46].

ومع أنّه القول الحقّ؛ إلا أنّ البعض لا يؤمن؟ ولأنّه قول رسولٍ كريم؛ فكيف لا يكون الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم شهيداً على الناس بالحقّ الذي به بُعِث رسولاً، وشهيداً على ما تشهد به الأمّة الوسط التي هو الشهيد عليها، ولذا لا تقتصر شهادة الرسول على فترة نبوّته ودعوته وزمنه في الحياة الدنيا كما يظن البعض، بل شهادة الرسول صلى الله عليه وسلّم شهادة حقّ، والحقّ في الدارين هو حقٌّ باقٍ لا يتغيّر؛ فمن عَمِلَ صالحاً يكون الحكم عليه بالحقّ صلاحاً له، ومن ضلَّ يكون الحكم عليه بالحقِ ضلالاً عليه؛ فليس على الرسول إلا البلاغ، ومن آمن بالرسول ليس له بدٌّ إلا أنْ يُبلِّغ ما بُلِّغ به ليكون عند الشهادة مُبرَّأً من النواقص والتقصير، {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}[47].

ولأنّ الرسول قد بلَّغ الرسالة، إذن يجب على الأمّة المبلّغة والمكلّفة أنْ تأخذ بالرسالة، وأنْ تأخذ بما آتاها الرسول، وأنْ تنتهي عمّا نهاها عنه، وأنْ تتقي الله في كلِّ ما أخذته عن الرسول، لتكون أمّةً وسطاً شهيدةً على

---

[46] الحاقّة 18 . 40.

[47] المائدة 67.

الناس، {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[48].

ومع أنّ كلّ ما أمر الله به ونهى عنه هو في الكتاب المحفوظ رسالةً تامّة للناس كافةً، إلا أنّ بعضاً من الرسالة كان تبيانه على يدِ الرسول صلى الله عليه وسلّم؛ فالصلاة والزكاة على سبيل المثال اللتان هما من أمر الله تعالى جاء تبيان كيفيتهما العملية على يد الرسول، ولهذا قال تعالى: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا).

وبما أنّ أتى به الرسول نأخذه فرضاً وأمراً من الله تعالى وما نهانا عنه ننتهي فرضاً وأمراً من الله تعالى، إذن كيف لا يكون الرسول شهيداً على الأعمال المثبتة لأفعال الأخذ لِما آتانا به طاعةً لأمر الله، وكيف لا يكون الرسول شهيداً على الأعمال المثبتة لأفعال الانتهاء التي نهانا عنها طاعة لأمر الله؟

ومع أنّه أمْرُ أخذٍ وانتهاءٍ إلا أنّ الناس لم يكونوا أمّةً واحدةً على أمر الأخذ وأمر الانتهاء؛ فهناك من أخذ بالأمرِ، وهناك من عصى، وفي مقابل ذلك هناك من انتهى عمّا نُهي عنه، وهناك من لم ينته، ولهذا لابدّ أنْ يكون الرسول هو الشهيد على كل أمرٍ أتىَ به للناس كافة وكل نهي نهى عنه.

وعليه إنْ كانت الأمّة على الحقّ، شهد لها رسول الله بذلك، وإنْ ضلَّ من ضلّ منها؛ فتكون الشهادة على ضلاله حقّ.

ولأنّ شهادة الرسول الكريم على الأمّة والناس كافة متحقّقة في قوله تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا}[49]

---

[48] الحشر 7.

[49] النساء 41، 42.

إذن هذه الشهادة هي شهادة رسول الله صلى الله عليه وسلّم في الدار الآخرة، إنّها الشهادة الباقية إلى أنْ تقوم الساعة ويأتي يوم الحساب، وهذه الشهادة تختلف عن شهادة عيسى عليه الصلاة والسلام التي اقتصرت فقط على سؤالٍ واحدٍ يتعلّق بمحدود الجمع في فترة حياة عيسى، {أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ}[50]؟

فكانت الإجابة من النبي الكريم عيسى صلى الله عليه وسلّم وهو المعني بالسؤال لا غيره، {قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[51].

ولذا يطرح نسق أمّة الوسط مغايرات متعدّدة تنحو جانباً بحركة متعرّجة قد تكون يميناً أو شمالا بحسب من يقودها، فيكون ذلك خروجاً عن منهج الوسطيّة الذي ارتضاه الله لعباده، فالخروج كان ضمن كينونة واضحة المعالم غير خاضعة لتأويلات سابقة في كثير من الأحيان، وهذا يطرح حداثة الخروج ضمن بعض الأمثلة التي نرى فيها ذلك، فقوم لوط مثلا نرى أنّ فعلهم لم يكن ينتمي إلى أي ماض يمكن أن يكون جزءاً منه، {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ

---

[50] المائدة 116.

[51] المائدة 116 . 119.

إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ}[52]، هذا الفعل المشين فيه بداية لنوع جديد من الخروج لم يكن متحقِّقا سابقا كما أن تحقَّق الخروج فيه مستقبلا هو استمرارية المكوث خارج الوسطيّة التي يجب أن تكون؛ فهل ممن يرتكب مثل هذه الأفعال المشينة أن يكون من الأمّة الشاهدة!

إنَّ الأقوام السابقة كعاد وثمود اختطت لنفسها طريقاً مغايراً للنسق المراد، فقد جمعت سلبيات متنوعة وأحاطتها بشمولية ملفتة للنظر اشتملت على اتباع أعمى لا يحيد يميناً ولا شمالاً مما خلق حالة واضحة المعالم تستقطب كلّ ما هو حولها دون الأخذ بأي جديد سواء على مستوى الدعوة الموجهة إليهم أو على مستوى تحريك العقول باتجاه جديد يكون من ورائه التغيير الذي يجب أن يكون، فنفورهم من الدعوة يحمل تبعات متعددة تبتعد وقد تقترب من حالة التشبّث التي ينتمون إليها، إذ يقول تعالى: {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُود إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}[53]، هذه الآيات الكريمة تطرح دعوة عاد وثمود من بدايتها إلى نهايتها في حالة يتبيّن من خلالها

---

52 – الأعراف 80 – 81 .

53 – فصلت 13 – 118 .

الأصول الفكرية التي ينتمون إليها؛ فقد خلقت لهم هذه الأصول حالة من التوافق على نبذ ما يجب أن يكون لهم من اتباع دعوات الرُسُل الكرام عليهم الصلاة والسلام، وهذا الأمر ينفتح على الوسطيّة من خلال الدوران حولها دون الولوج فيها مما يخلق قطباً أوحد هو قطب السلبيّة الذي يكون به الخيار السيئ؛ فيمنح معتنقيه العقاب الإلهي نتيجة ما كانوا عليه، ولهذا كانت التبعيّة التي عرضناها هي السبب في خلق معايير متعددة كلها لا تنتمي إلى الوسطيّة، فلا يحدث أي اتفاق يمكن أن يهيأ أي طرف للحلّ مما يخلق حالة من الانزواء الكلي تكون نهايتها عائمة بين أطراف لم تكن اختياراتهم صائبة؛ فالخطاب القرآني جاء بأساليب مختلفة بالترهيب والترغيب والتذكير والاتعاظ والإحالة إلى السابقين، فضلا عن بيان العقيدة الصحيحة التي يجب أن تكون، فالخيار قائم على الاختيار الذي تتبني عليه النهاية التي يريدها الله تعالى، نهاية تكون الوسطيّة هي ظلها الظليل فلا يكون بعدها إلا أن تتحقق الشهادة، أمّا إذا تغيّر المسلك المراد وأصرّ قوم عاد وثمود على ما يعتقدون فهل مثل هؤلاء يمكن أن يكونوا من أمّة الشهادة؟

إنّ النسق الدعوي يستمر فنرى من خلاله أنَّ الخروج عن الوسطيّة لم يكن في أمّة فقط، بل نجده تمثّل في شخص وإن كان هذا الشخص ينتمي إلى أمّة بحالها، فقارون مثلا تحقّق فيه الخروج عن الوسطيّة، {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}[54]، هذه الآيات الكريمة

[54] – القصص 76 – 77 .

تحيل إلى الخروج عن الوسطيّة التي يخرج منها ما يريد أن يسلك سبلاً مغايرةً يكمن فيها ما يعتقده سواء أكان ذلك على مستوى البعد المقروء أم على مستوى البعد المتوقع، وهنا تتبلور معطيات مغايرة فلا تكون وفق أي بُعد مراد مما يمنح الخروج علامات استفهام متعددة لا تجد لها أي جواب يمكن أن يغلق أبواب الأسئلة المتكررة؛ فقارون تحقَّق فيه الخروج السافر عن الوسطيّة، هذا الخروج خلق حالة من الانقسام الجزئي في جانب من جوانب الوسطيّة؛ فهو وإنْ كان ضمن حالة آنية ووقتية إلا أنَّ تبعاته تكون منفتحة نحو المستقبل ضمن صيغة التكرار التي لازمت مغايرات الوسطيّة، فالخروج مستمر ضمن البحث عن انزواءات يُظن فيها تحقيق ما تريده النفس الإنسانية بطريقة صحيحة إلّا أنّه يتحقق في تلك اللحظة الاختيارية الخروج السافر.

إنَّ الوسطيّة تمنح الجميع القوة والإصرار والمضي في تحقيق ما تصبوا إليه، فبها تكون الشهادة التي لا تتحقق إلا بتحقق معاييرها؛ فتكون لها بنية خاصة لا يكون الانتماء إليها عاماً بل يكون خاصاً، ونقصد بالخاص هو مَنْ تحقّق فيه مَنْ يكون من الأمّة الشاهدة، فلا يمكن لغيره من اختراق هذه البنية المركّبة بآليات متعدِّدة تسمو على كثير من الاختيارات والادعاءات وإنْ كثر أصحابها، ورغم التحقّق الواسع للوسطيّة إلّا أنّ ثمارها قد تسقط أحياناً قبل وقت نضجها مما تكسبها توقفاً بسيطاً يقودها نحو استفهامات تمنحها أموراً منها:

. الوقوف على آليات التفكير التي ينهجها الآخر، فتكون هذه العملية عملية استطلاعية لكلِّ الأجزاء المكوّنة لها، وهذا لا يمنح الوسطيّة أي إضافات جديدة يكون على أساسها تحقيق ما مراد؛ ذلك أنّ الوسطيّة منبثقة من أصولٍ ومرجعيات ثابتة؛ فالاستطلاعية التي نحن بشأنها تكمن بها أمور

عدة يكون من ورائها معرفة ما يقع ضمن دائرة النظرة الواعية التي تريد إعادة كل شيء إلى مكانه الطبيعي.

. محاولة التعرُّف إلى أسباب الخروج التي تحصل، ذلك أنّ تحقّقها لم يكن لمرة واحدة، بل يتكرّر حتى ضمن النسق الواحد الذي نرى فيه أن التكرار لا يمكن أن يتحقق.

. استدراك ما يمكن استدراكه وهنا لا تتعاظم الأمور بقدر ما تظهر بصورة أفضل، فالاستدراك حالة صحيَّة يكون من ورائها محاولة البحث عن أفضل الطرق المؤدية إلى الإصلاح، وذلك ضمن خلق حالة من التتبع المستمر تكون منسلخة عن كل أهواء، وهذا يمنحها سمة الثبات الكلي في الوصول إلى ما تريد، فعندما يحضر الاستدراك تكون ساعة الصفر قد اقتربت ليس بطبع الحال بخصوص البداية، بل بخصوص النهاية التي يجب أن تكون.

ونعود إلى قارون وما فعله فنقول: هل قارون هذا من الأمّة الشاهدة؟

هذا السؤال يقلب كثيراً من التصورات المتخلفة التي خلقت لنفسها كينونة ارتبطت بواقع تعتقد أنَّ الخلاص لا يكون إلا فيها، وهذا يبيّن عتمة النظرة الموجودة التي تتكرر مراراً وبأشكال عدة؛ فهي لا ترجع إلى الماضي وتقرأه قراءة واعية فتقف عند قارون ومن هم على مثله وقفت يكون فيها الهدم والبناء في الوقت نفسه، ذلك أنَّ الشخصيات السلبية لا تكمن فيها كل السلبيات، بل أنّ سلبياتها هي دروس وعبر لكل من يريد أن يبحث عن حل حقيقي يفتح أبواب الحياة نحو بداية جديدة.

إنّ الوسطيّة لا تنهج أسلوب الإقصاء، فهي تسعى جاهدة إلى إيجاد حالة من الواقعية العملية التي يمكن أن تدخل في كل مكان، ليس على أساس التنظير فقط، بل على أساس إظهار كل شيء على حقيقة تمنحه سمة

الإصلاح الكلي، فالوسطيّة رسمت للناس جميعا طريق الخلاص، فكان إتباعها والارتباط بها الخلاص بعينيه، خلاص دنيوي وأخروي لكن هذا لا يتحقق وفق الشكل العام الذي يجب أن يكون، فالسامري اختط لنفسه طريقاً مغايراً للوسطيّة التي يجب أن تكون؛ فمسلكه منحه خروجاً عنها، {قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا}[55]، هذا الخرق لدعوة موسى عليه الصلاة والسلام، هو خرق للوسطيّة التي يجب أن تكون، فالسامري منح نفسه سمة الخروج التي يكون على أساسها التعلّق بأفكار مغايرة للدعوة الكريمة التي يسعها إليها موسى عليه الصلاة والسلام، دعوة تكمن فيها الوسطيّة التي من شأنها أن تجعل الناس يلتفون حولها فتكون حصنهم المنيع في الدارين، فمثل السامري هل يمكن أن يكون من الأمة الشاهدة؟

تتعدد الانحرافات العقدية بين بني البشر فتكون الآثار التي تتركها آثار مؤلمة في كثير من الأحيان وهذا طبعاً من الجانب المعنوي الذي يكون أحد إفرازات الأفكار المطروحة، فاليهود مثلا ذهبوا إلى القول أنّ العُزير هو ابن الله، والنصارى ذهبوا إلى القول بأن المسيح هو ابن الله، {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}[56]، هذان القولان فيهما خروج عن العقيدة أدى بدوره إلى خروج عن الوسطيّة التي

---

[55] – طه 95 – 98

[56] – التوبة 30 .

يكون من خلالها الشهادة، فالشهادة يكمن فيها المعيار الذي يلتف حوله من ينتمي إليه؛ فالخروج هنا من خلال القولين يحمل في طياته انبعاث حالة من التراجع عن الأصول التي يجب أن يكونوا عليها، ونعني بذلك اليهود والنصارى، فالقوة بالبنوة هو خرق للعقيدة الصحيحة وهو قول يخرجهم من الوسطيّة التي تكون شاهدة على الناس، فهل يمكن أن نقول أن مثل هؤلاء ممكن أن تكون الشهادة لهم؟

إنَّ اليهود والنصارى خرجوا عن الأصول التي يجب أن يكونوا عليها، إذ بلغ بهم الأمر إلى تحريف كلام الله تعالى، فأصبح سمة ملازمة لهم، {مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا}[57]، وبذلك تكون الأصول التي أصبحوا ينتمون إليها لم تعدّ تلك الأصول التي أرادها الله تعالى لهم؛ فهل من الممكن أن تكون هذه الأمة شاهدة؟

لم يكترث اليهود والنصارى من التعلق بخيوط واهية ضانين أنّها توصلهم لِما يريدون، فالابتعاد عن الأصول وفق أي طريقة يرتضونها منحهم بعداً عن الله تعالى، هذا البعد يطرح عدة أمور منها:

. الانجرار وراء غايات واهية غير مرتبطة بأيَّة حقيقة تكون مستندة عليها إلا أنها مستندة على حقيقة واحدة هي الكذب والافتراء.

. فقدانهم للطرق المفضية للوسطية، هذا الفقدان تحقّق من خلال الابتعاد عن الأصول التي أرادها الله تعالى لهم؛ فتكون بذلك الوسطيّة لهم بعيدة التحقّق وفق أصولها التي تمنح الشهادة.

---

[57] – النساء 46 .

. عدم تمثّلهم للوسطيّة يعني عدم تمثّلهم للخيارات الإصلاحية التي يجب أن تكون، فيكونون بذلك قد اختطّوا لأنفسهم المجال الذي ارتضوه بأنفسهم مما يجعل تبعاته تعود عليهم دون غيرهم.

. اكتساب صفة التحريف يجعلهم خارج الشهادة التي كان من المفروض أن تكون لهم، فيصبحوا بها من المشهود عليهم.

يكتنف السياق العام المرتبط بأنساق متعدّدة تجاذبات متعدّدة تحمل نزعة الابتعاد عن الأصول التي يجب أن تكون؛ فالتناقضات القائمة لا تمثل الوسطيّة بقدر ما تمثل الانسلاخ الحاصل في التفكير المبثوث بين جدران واهية تريد أن تحقّق مبتغاها بالطريقة التي تريدها، ولهذا يمكننا أن نقف عند نقاط عدة نجد فيها انتفاء حصول الوسطيّة المرادة ومنها:

. التخلي عن الثوابت:

تنفتح الحياة على مدركات واعية تكون هي المحفِّز لما يجب أن يكون، وهذا يخلق حالة من الاندراج وراء أصول متعدّدة تكمن فيها الثوابت التي لا يمكن أن تتغير بأيّ شكل من الأشكال، فالمصالح المختلفة التي يلتف الناس بها تسقط مدركاتهم بما ينتمون إليه؛ فيكون التخلي هو السمة الملصقة بهم دون غيرها، هذا التخلي لا يكون وفق اختيارات مرتبطة بالوسطيّة التي يجب أن تكون، ولهذا عدم تمثيلهم لها هو نتيجة طبيعة لاختراق سنن الإتباع التي يجب أنْ تكون.

. التنازل عن الحقوق:

تقوم الحياة على مرتكزات عدة من أهمها الحقوق؛ فالحقوق يكون على أساسها خلق المعايير المختلفة التي تنظم الحياة وتعطيها صبغة الاسترداد والتقاضي والفصل، هذه الصبغة تكون بطبيعة الحال متحقّقة في

التعاملات الحياتية بمختلف أشكالها لكن السؤال الذي يمكن أن يطرح في هذا المقام هل الحقوق تتحقق كما يجب؟

إنَّ قراءة الواقع المتاحة تطرح أمراً مغايراً ألا وهو ضياع الحقوق، وذلك بسبب التنازلات؛ فالتنازلات الحاصلة أربكت الحياة وألقت بها في طريق مسدود، ذلك أنّ الأمر كما نعتقد فيه انسحاب مبرمج حتى يمكن القول عنه أنّه بوعي واضح، هذه الوصفية التي يمتلكها المتنازل ستكون وبالا عليه؛ لأنّه تنازل عن حقوق ليست له بأيّ شكل من الأشكال، فكل ما يترتب على التنازلات ستكون نهايته غير داخلة في الوسطيّة التي لا تقبل أبداً بالتنازل عن الحقوق، وتعتبر التنازل شرخاً كبيراً لا علاج له مما يجعل من يتنازل عن الحقوق خارج دائرة الوسطيّة، وبهذه الحالة هل يكون من أمثال هذا وغيره من الأمّة الشاهدة؟

إنّ التنازل يسقط الحقّ ويجعل صاحبه بداية نهايته متحقّقة؛ فلا نبتعد كثيراً عن واقعنا المؤلم الذي نجد فيه التنازل سيّد المواقف؛ فالذي حصل ويحصل اليوم في فلسطين هو بمثابة تنازل عن كثيرٍ من الحقوق؛ فالمفاوضات التي جرت من القرن الماضي إلى يومنا هذا لم تفض إلى حلٍّ يريح الفلسطينيين ويعيد إليهم حقوقهم تامة.

الحقّ والباطل:

هذه الثنائية هي مرتكز الحياة فبها يكون الفصل وبها يكون الثواب والعقاب، ويكون بها المعيار الذي يحقّق ما يريده الله سبحانه وتعالى، إلا أن الناس يحيدون عن تحقّق هذه الثنائية وذلك ضمن توجهاتهم العقدية المختلفة التي من خلالها ينتهجون مناهج تبعدهم عن تحقيق هذه الثنائية، وهذا يفسح المجال لمغادرة الوسطيّة والمكوث خارجها مما يخلق حالة من الابتعاد يكمن فيها تحقّق الانعزال التام الذي يفرق الناس ويجعلهم ضمن

سياج علائقي واحد، هذا السياج يربطهم ويمنحهم سمة واحدة يصدق عليهم الاستفهام القائل هل يمكن لهؤلاء المنعزلين أن يكونوا من الأمّة الشاهدة؟

إنّ القرآن الكريم طرح هذه الثنائية في مناسبات عدة ارتبطت بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى وبالتعريف بالأمم المختلفة التي سلكت مسلكاً مغايراً لما يريده الله جل جلاله، {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[58]، وقوله تعالى:{ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[59]، الخطاب في هاتين الآيتين يعرض الحقّ والباطل ضمن أصول الدعوة التي يريدها الله تعالى، فالانحراف عنها سيكون خروجاً عن الأصول التي تعطي كلّ ذي حقٍّ حقَّه، فتسير الحياة بأنساق مختلفة تتشظى فيها الإحالات الواجب تحقيقها مما يظهر الحقّ والباطل في أماكن جديدة لم ترتبط بهم أبدا، أماكن يكمن فيها الخروج عن الوسطيّة، الوسطيّة التي تريد الناس جميعاً أن يأخذ كل واحد منهم حقّه، فإذا لم يتحقّق ذلك هل يمكن لهذه الأمّة أن تكون الأمّة الشاهدة؟

سفك الدماء:

تُسفك الدماء بين الناس بأسباب مختلفة منها ما يتحقّق فيها الحقّ، ومنها ما يتحقّق فيها الباطل، وبين هذه وتلك تنعقد كثير من الأمور، ويترتب عليها ما يترتب، هذه النظرة لا تكون خالية من إحالات بمعنى أنّه لا بدَّ

---

[58] – البقرة 40 – 42 .

[59] – آل عمران 71 .

أن يكون هناك أصول تحدد سفك الدماء بطريقة تجعل الحياة تسير وفق نظام يعطي لكل ذي حقٍ حقَّه، {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[60]، هذه الآية الكريمة تطرح الأصول التي يجب أن تكون في إحقاق الحقّ؛ فالأمر لا يكون وفق اجتهادات خاصة تمنح ما يريد أحكاماً خاصة، بل أنّ الأمور لا بدَّ أن تسير وفق المنهج الرباني الذي اقتضاه سبحانه؛ فالقصاص الذي يكون به إزالة للحياة، فإنّ هذه الإزالة تكمن فيها الحياة؛ لأنَّ تحقّق القصاص يكون به ردع لكلِّ من تسوِّل نفسه المضي في طريق يكون به خروجاً عن المنهج الذي ارتضاه الله تعالى لعباده، فيحصل الاعتداء والقتل وكلّ ذلك وغيره مما يخرج صاحبه من الوسطيّة التي يكمن فيها الامتثال لكلِّ الأوامر والنواهي الخيّرة؛ فسفك الدماء بغير حقّ يخرج الناس من الوسطيّة التي تعمل على دمج الناس في الحياة وتمكينهم من الوصول إلى المكانة التي ينبغي أن يكونوا فيها، مكانة ترتقي بهم إلى تحقيق الإصلاح المنشود.

إنّ تحقّق الوسطيّة في هذا الأمر مرتبط كل الارتباط بالتمسّك بما أراده الله تعالى، {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}[61]، في هذه الآيات الكريمة تكمن الوسطيّة التي تكون شاهدة، فالدم لا يكون إلا وفق الحدود التي حدّدها الباري جل جلاله وما عدا ذلك يعد خروجاً عن تلك الحدود التي تكمن فيها الوسطيّة، فالوسطيّة ترتبط بالأصول التي تفصل بين كلِّ ما يقع

[60] – البقرة 179 .

[61] – الفرقان 68 – 70 .

بين الناس، وتمنحهم الحقّ الذي يوصلهم إلى تحقيق العدالة التي يتشكل من خلالها التوجّه المفضي إلى خلق رؤى واضحة المعالم يكون الركون إليها هو السمة المرادة.

الوسطيّة بين الثابت والمُتغيِّر

الوسطيّة تتطلّب دقة في اختيار مساراتها الفكرية، ذلك أنَّها تتطلّب فهماً دقيقاً لحقيقة الاختيار ومنهج السلوك وغاية الانتهاء، مع انتباه إلى ضرورة المحافظة على الثوابت، فلا يجب الانحراف عنها، وكذلك فهي تتطلّب مرونة واعية في التعامل مع المُتغيِّرات كي لا يحدث الانفلات والتفريط.

والوسطيّة تستطيع تنظيم العلاقة بين الثابت والمُتغيِّر في التطبيق بما يُظهر الحقّ سائداً في صُعد الحياة المختلفة، اقتصادياً وسياسياً ودينياً واجتماعياً.

ومن المهم القول أن الوسطيّة لا تعني أن تنأى نحو الوسط بغضّ النظر عن الموازنة بين الثوابت والمُتغيِّرات، لأنَّ في ذلك إخلال بالقيم السائدة لاسيما في النصوص الثابتة، فيتحقق مراد ترك البعض من تلك النصوص أو إغفال مضامينها عمداً.

فالوسطيّة تتعامل مع النصوص الثابتة على أنّها نصوص كلية، يُكمِّل بعضها بعضاً، ويُفسِّر بعضها بعضاً، ومن خلال فهم العلائق الدلالية للنصوص الثابتة يمكن للوسطية أن تأتي بالحقّ في أيّة مسألة بما يلاءم العصر والظروف والحاجات المتطوّرة ومشبعاتها المتنوّعة وفقاً للمُتغيِّرات الإنسانية، دون أن يتمَّ الإتيان بالبديل الضدي في حلّ الأزمات، كأن تأتي بالباطل في قضية ما على أساس دعوى أن الحقّ في الثابت لا يتناسب مع الوسطيّة!

وقبل البدء في بيان مسار تعامل الوسطيّة مع الثابت والمُتغيّر، تساؤلاتٍ تُطرح:

. ألا يكون من الأفضل للفكر الإنساني أن تعد الثوابت عند اختيار الوسطيّة حلّاً!

. ألا يكون الثابت المطلق هو ما يأتي من المطلق الأعظم جل جلاله!

. ألا يكون كل مادون ذلك هو غير مُطلق ونسبيٍ!

الثابت المطلق هو ما ثبت نصاً لا فهماً ولا تأويلاً، حيث يمكن القول على القول في الثابت، وما التباين في التفاسير الكثيرة للنصوص الثابتة ومنها القرآن مثلا والتي تصل في بعض الأحيان إلى التعارض والتناقض إلا دليل على أن الثابت مُتغيّر في تفسيره ثابت في نصه، {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آَيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آَمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}[62].

هذا الأمر لا يعني على الإطلاق أن النصّ الثابت فيه تناقض بل يعني بشكل واضح أنّ فهم النصّ الثابت هو مُتغيِّر، وهي قاعدة يمكن الاستفادة منها لإحداث التوازن بين الثابت والمُتغيّر.

وهذه حقيقة أن القرآن هو خطاب الله عز وجل إلى البشرية في كلِّ زمان ومكان، يحمل في مضامينه المنبثقة من نصوصه الثابت حلاً لأزمات المجتمعات في كلِّ زمان ومكان، وهذا لا يتأتّى دون امتلاك الفهم والقدرة على الاستنباط، ومهارة تجديد القراءة للنصِّ الثابت مرة بعد مرة.

---

[62] آل عمران 7.

هذا الأمر لا يقتصر على القرآن، فطلاب المسيح كتبوا من مصدرٍ واحدٍ أناجيل عديدة مع أنَّ الإنجيل واحد، وهذا راجع إلى الفهم المُتغيِّر.

إن القراءة المُتغيِّرة هي السبيل الناجع والوحيد لجعل النصوص الثابتة قابلة للحياة، فلو أنّ النصارى بقوا على قراءة تلاميذ المسيح من بعده لنصّ الإنجيل الواحد دون أن يمتلكوا قدرة تجديد القراءة لمعاصرة الحياة فلا شكّ أن ذلك سيتعارض مع التطورات الهائلة التي يمر بها العالم.

ولذا فالوسطيّة تتمسّك بالثوابت تمسّك العارف أن هذه الثوابت لا يمكن أن تحمل في مضامينها شيء من الانحراف أو التطرُّف بل هي في أساسها وسط ووسطيّة، لذلك تبقى الثوابت ثوابت لا يتم التنازل عنها أو الطعن فيها، تحت شعار التنازل من أجل الوسطيّة، وعلى دعاة الوسطيّة أن يُبيِّنوا للآخر أنَّ تمسّكهم بالثوابت ليس تزمّتاً ولا تعنُّتاً بل هي قناعة واضحة مفادها أنَّ الثوابت هي منهج وسطي في أصله فلا يمكن أن نتخلى عما هو وسطيّ في الأصل من أجل الوصول إلى الوسطيّة، لأنّ في هذا الأمر تناقض واضح بين الغاية والمنهج المتبع للوصول إلى الهدف.

ولكن في مجال المُتغيِّرات يمكن وبشكل ما أن ننظر معاً في المُتغيِّرات التي يقرأها الآخر على أنّها متشدّدة أو عنيفة أو متطرّفة من أجل الوصول إلى ما هو وسطي في هذه المُتغيِّرات، وهذه هي الدائرة التي يمكن إظهار المرونة فيها دون تعقيد ولا تسييس ولا تنّعت.

ومن صور الموازنة بين الثوابت والمُتغيِّرات النظرة إلى المعاصرة والحداثة، حيث يمكن أن نستقبل المفيد الإنساني في الحياة المعاصرة، ونواجه المخل المفسد الإنساني، مواجهة التبيين لا مواجهة الصدِّ المجرد، فالصدُّ المجرد عن التبيين والتوضيح لا يمكن أن يمنح مجالا في الوسطيّة، بل نقبل على أن نأتي ببيان موجبات الرفض بما يجعل الآخر على درجة من القناعة

بصواب الموقف الأمر الذي يفضي إلى بقاء الأنا والآخر في دائرة الوسطيّة (نحن سوياً) و (نحن معاً).

إنَّ النظرة إلى الحياة على أنَّها دائرة نشترك فيها مع الآخرين في مهمة الإعمار أمر يدفع بنا نحو الوسطيّة التي تقوم على الموازنة بين الثوابت والمُتغيِّرات، حيث بهذه القناعة يمكن الأخذ من الآخر كلّ ما هو مفيد، فيكون مشترك بيننا، لنا وله، وعند ذاك نحن معاً في وسط واحد، وكذلك يمكن أن يأخذ الآخر منّا إذا كان لدينا ما يستحقّ أن يؤخذ فيكون معنا في وسط واحد ونسير معاً بمنهج الوسطيّة حيث لا مكان للتطرّف.

هذا المبدأ متحقق فعلاً في أوساط المجتمعات الإنسانية، بالأخذ المتبادل والتعاطي المتبادل الذي يُمكِّن من الفهم والتفهّم المشترك مما يجعل الوسطيّة متجسّدة في القول الحقّ، والفعل العدل، والعمل المتطلّع للإنتاج، والسلوك الاستيعابي قدوة حسنة بين الناس.

إذن فالوسطيّة منفتحة على الجميع بمعاييرها المتوازنة من خلال التمسّك بالثوابت والتطلّع للآخر مع التعاطي مع المُتغيّرات بوعي وإرادة، ولا يمكن أن تتحقّق الوسطيّة بدون أن يكون هناك انفتاح في النظرة إلى الآخر، وقبول التعاطي معه والاستفادة من تجاربه الموجبة ومقاربة أفكاره إلى الحقّ وإحقاقه، مع مراعاة صور التوازن بين الانتماء والتطوّر، بين الدين والدنيا، بين اعتبار الفضائل الخيِّرة وتقدير القيم الحميدة.

ولسائلٍ أن يسأل:

ما الثابت وما المُتغيِّر؟ وما علاقتهما بالوسطيّة؟

إن الحكم بتمييز ثابت عن مُتغيِّر راجع إلى طبيعة القناعات السائدة من مجتمع لآخر، ذلك أن الثابت عند أهل الشرق ربما يكون مُتغيِّر عند أهل الغرب، والثابت عند المسلمين قد يكون مُتغيِّراً عند المسيحيين، وبعض

الثابت عند الشيعي مُتغيِّر عند السني، وهكذا فالمسألة غير مرتبطة بالدين ولا بالطائفة ولا بالمجتمع بقدر ما هي متعلّقة بالقناعات الثابتة.

فالمُتغيِّر في ضوء هذا العرض هو (مُتغيِّر مُتغيِّر)، حيث تتفاوت نسبة اعتباره من مجتمع لآخر، ومن فرد لآخر، ومن دين لآخر، وهكذا بل تتجاوز المتفاوتات لتصل في بعض الأحيان إلى التغيير بالمطلق.

هذه المسألة أعطت المُتغيِّر حيوية في الحضور في دائرة الوسطيّة، من جانب هذه المرونة التي أضحت من خصائص المُتغيِّر، الأمر الذي أمكن معه التعامل مع المُتغيِّر من أجل إحقاق حقّ ترضى به جميع الأطراف من خلال انتقاء وجوه تطبيق الحقّ على أنماط مُتغيِّرة، مع بقاء الهدف واحداً هو الوصول إلى الحقّ عند البعض، والعدل عند البعض الآخر، والحقيقة عند الآخرين.

فالمُتغيِّر إذن هو مجموعة الأفكار والجهود والأعراف والتقاليد البشرية التي تداولتها الشعوب بالاحترام والتقدير والاعتبار، هذه كلها من المُتغيِّرات التي يمكن أن تكون مجالاً تتحرّك فيه الوسطيّة لتجد ما هو مقبول من الجميع لأجل إحقاق الحقّ الذي هو هدف كل غاية تسعى للإصلاح.

وإذا كانت الثوابت هي كل الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة التي يُعدُّ تحقيقها وسيادتها من غايات المجتمع الفاضل، فالمُتغيِّرات تتمثل في رؤية الأفراد لهذه الثوابت وتفسيرهم لها وسُبل تحقيقها على أرض الواقع.

ويمكن القول أن الثوابت كلّ ما جاء من قواعد بنصوص ثابتة لا تقبل الردّ أو الصدّ أو النقاش أو التغيير عقديا أو اجتماعيا أو فكريا، فمثلا الحقّ غاية أقرّتها النصوص الثابتة، فلا يمكن طلب تغيير الثوابت للإتيان بما هو باطل بدعوى إقامة الوسطيّة، فلا يجب القول بأنَّ الصيام في الإسلام مثلا معطل لنشاط الفرد فيجب التخلي عنه، أو أنّ الجهاد صورة عنيفة

فيجب أن يتغيّر المصطلح والمضمون من أجل الوسطيّة، هذا الطرح بهذه الكيفية يُعدّ تطرُّفاً بحدِّ ذاته يجب أن يتغيّر.
إذن من المهم فهم غاية الوسطيّة هو الإصلاح، فهي موجبة لا من حيث كونها وسطيّة، بل هي موجبة لكونها تسعى للإصلاح وتهدف إلى إقراره في الحياة، الأمر الذي يتطلّب جهداً على أكثر من مستوى دون التفريط بالثابت من أجل المُتغيِّر.
هذا المسار هو في الحقيقة صورة للوسطيّة حيث نسير معاً نحو الإصلاح، الذي به تتحقّق غاية الوسطيّة بالقضاء على كلّ ميل أو انحراف أو تطرّف.
ولسائل أن يسأل:
- كيف يمكن لنا أن نُميّز الوسطيّة؟ وكيف يمكن لنا أن نحكم بها على حضارة أي أمّة من الأمم؟
- هل يمكن أن تكون ثوابت أمّة ما ومُتغيّراتها في مستوى الوسطيّة؟
إن الأساس في الحكم على أي أمّة بالوسطيّة من عدمها هي مجموعة القيم المُتَضمَنة في ثوابتها ومُتغيِّراتها، في مقابل حضارة أمّة أخرى لها قيم مغايرة أو مخالفة، فالأمّة التي تُقدِّم قيماً تتعاطى مع العلائق الإنسانية بالتقدير والاعتبار والاحترام وتهدف إلى التواصل مع الآخر على أساس الاعتراف المتبادل، وتدعو إلى الحوار وإن وصل إلى الجدل من أجل الوصول إلى الحقّ، هذه الأمّة هي أمّة وسط بالفعل لا بالقول، {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}[63].
ولأنّ هذا النصّ من ثوابت الإسلام؛ فهو يدفعنا للتساؤل:

---

[63] النحل 125.

أي وسطية أكثر ظهوراً وبيانا من هذا النصّ المستقى من الثوابت؟
الحوار والجدل يجب أن يكون من أجل الوصول إلى هدى الحقّ وليس لفتح باب تدخل من خلاله معطيات الضلال تحت اسم الوسطيّة، وهذا الأمر يتأتى من قدرة تمييز عالية ودقيقة بين الصالح من القيم، والطالح من الطبائع والسلوكيات والمفاسد، لأنّه لو لم يتحقّق ذلك لأصيبت الوسطيّة بالتشويه وتحوّلت من الوسطيّة الهادفة إلى الإصلاح إلى أيّ مسمى هدّام.
وقد تكون الثوابت والمُتغيّرات في بعض الأحيان أساس من أسس الحكم على مجتمع أو حضارة بالوسطيّة أو بالتطرُّف، وذلك من خلال مجموعة القيم التي تحملها الثوابت والمُتغيّرات.
والمسألة هنا لا تقتصر على أصحاب حضارة بذاتها أو مجتمع فحسب، بل تمتد لتشير للآخرين أيضاً؛ فالحضارة الإسلامية والمجتمع الإسلامي يعاني من الأحكام الجائرة التي تطلق عليه من هنا وهناك بأنّه متطرّف، وذلك بسبب بعض السلوكيات غير الوسطيّة التي نهجها بعض أتباعه، أو بسبب بعض المغالطات في قراءة ثوابت ومُتغيِّرات النصّ، وهناك سبب آخر هو أكثر أهمية مفاده أن مفكري الإسلام لم يستطيعوا أن يقدموا الدين بصورته الحقيقة التي تجعل الآخر يعترف أنّه دين وسطي، والوسطيّة من مبادئ الدين الثابتة، الأمر الذي ترك للآخرين فرصة لصق التهم بهذا الدين كيفما شاءوا.
فالقول بأن الإسلام دين الوسطية يحتاج إلى قوّة إقناع، ومساحة إظهار، وتعاطي في أوساط الفكر بهذه الفكرة التي لا تهدف إلى تنزيه الإسلام بل تهدف إلى إقرار وسطيّته بالفعل لا بالقول؛ فعندما تُبيِّن وتُفسِّر حقيقة هذا الدين فإنك أنما تدعو الآخر إلى الإفادة من الفضائل العظيمة التي

يتضمنها هذا الدين، وهذه هي الوسطية، دعوة لأن يكون الخيار للأفضل من أجل الإصلاح، وإحقاق الحقّ للإنسان في كل مكان وكل زمان.

وإذا تحقّق الحقّ تكون الوسطيّة متحققة على صعيد الواقع لأنَّ الحقّ وسطي، والباطل متطرّف مهما كان نوعه أو اتجاهه.

ولأنّ الوسطيّة إصلاح وحلّ؛ فهي المتمركزة على قاعدة: (ضع الأمور في مواضعها تتوازن)، ولهذا لا يُميّع الثابت فتضحى الأمور في ساحة التفريط، ولا يسود التشدَّد مع المُتغيِّر وكأنَّه ثابت فيكون التطرُّف.

ومن المهم قراءة الأصول والثوابت، ودراستها دراسة منفتحة، يتحقّق فيها التبيين العقلي لا النقلي المجرد، الذي يجعلنا في زمن غير زمننا، ومكان غير مكاننا، وحالة غير حالتنا، ورؤية غير رؤيتنا، كما يجرنا إلى الضيق الذي هو في الحقيقة انغلاق عقلي أكثر منه اجتهاد فكري.

ولذا فالوسطي هو الذي يختار أن يوازن بين الثوابت والمُتغيّرات، من غير انفلات ولا تشدّد، وهو الذي يحترم ويقدّر ويعتبر مبدأ التطوّر والتجديد من غير تفريط أو إخلال بالثوابت لا تزمتاً ولكن اعتقاداً راسخاً أنّ هذه الثوابت وسطيّة في أصلها لانَّ مصدرها وسطي، وهدفها الوسطيّة في التعامل والتعاطي بين الأنا والآخر.

وعليه فالوسطيّة يجب أن تكون صانعة المستقبل الأفضل لأنّها جاءت من أجله مصداقاً لقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}[64]؛ فقوله تعالى: (لِتَكُونُوا) أي لتصبحوا في المستقبل أنتم الشهداء على الناس كافة، ولكن بماذا ستكون أمّة الوسط شاهدة على الناس؟ بدون شكّ ستكون الشاهدة بالحقّ، ولن تكون شاهدة

---

[64] البقرة 143.

بالحقّ إلا إذا كانت مُحقّة له في الحياة الدنيا فعل عدل، وعمل صالح، وسلوك قدوة حسنة في الاعتبار والتقدير والاحترام.

الوسطيّة ثابتة منبثقة من ثابت

لمّا كانت الوسطيّة مصطلح إسلامي، فهذا يعني أنّ مصدرها الإسلام الذي هو أصل ثابت لكلّ معطياته، وأول هذه المعطيات وأعلاه درجة وأسماها منزلة هي كلمة التوحيد، ثمّ يليها الفرائض وما ينضوي تحتها من العبادات وما يتفرّع عنها من الحقّ والعدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإصلاح وعدم الإفساد مما لا يخرج عن الثوابت التي يقرّها العقل ويقبلها المنطق لخيرها وصلاحها.

إنّ الكلام عن الثوابت أمر ليس من السهل الخوض فيه، والسبب في ذلك هو ثبوت حقائق مجرّدة في ذاتها وليس في موضوعها، ومن هذه الحقائق، الخير والشرّ، {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}[65]، وقال تعالى: {وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا}[66]، وقال تعالى: {كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ}[67]، وكذلك الصدق والكذب، {وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ}[68]. فهذه المعطيات هي جميعاً حقائق مجرَّدة في ذاتها لا يستطيع أحد أن ينكرها أو ينفي وجودها، ولكنَّ بعض هذه الحقائق تنتمي إلى الفضيلة، وبعضها الآخر ينتمي إلى القيم، والقيم تنقسم إلى قيم سامية وإلى قيم متدنية يندرج كلاهما تحت الأخلاق، ومعلوم أنّ الأخلاق هي

---

[65] – البلد 10.

[66] – الإسراء 11.

[67] – الرعد 17.

[68] – غافر 28.

نتاج مجموعة من الأعراف والتقاليد التي تواطأت عليها النفس الإنسانية في القبول أو الرفض في بيئة دون أخرى وفي مجتمع دون غيره. إذن الفضائل من الله تعالى التي لا تقبل التغيير أو التبديل أو النسف أو الاجتثاث التي يكون الأخذ بها من الوجوب، وليس فيها خيار بين القبول أو الرفض، لأنّه من يرفض الفضيلة فقد خرج منها إلى الرذيلة، وأمّا القيم ففيها مجال للاختيار أو الرفض لأنّها وضعيّة، ذلك أنّ ما يناسب مجتمع وبيئة من هذه القيم الأخلاقية في زمن معين، قد لا يناسب ذات المجتمع في بيئته في زمن آخر، وقد لا يناسب مجتمع ثان في بيئة أخرى في الزمن نفسه.

بعد أن عرفنا ذلك من خلال التمييز بين الفضائل والقيم على حقائقها، أصبح الأمر من السهولة أن نخوض فيه ونصل به إلى نتائج نميّز من خلالها الثوابت من المتغيرات، لأنّ الثوابت هي الأساس الذي لا خلاف عليه والأخذ بها واجب وما عداها قابل للتغيير. ولولا هذا المبدأ لاختلط الأمر وتداخلت الحقائق والتبست المفاهيم على كثير من الناس، ذلك أنّ توضيح مفهوم المصطلح يؤسس له مرونة من أجل استيعاب فهمه في الزمان والمكان، لأنّ تناوله في وضوح المفهوم يؤسس لعملية ثقافة ويدحض الجمود الفكري.

ونحن نظن أنّ تحديد هذه المصطلحات والمفاهيم المهمة وتوصيفها كمفهوم الوسطيّة ومفهوم الثوابت يجب أن يكون من أهمّ مشاغل المفكرين والمثقفين، فالتوصُّل إلى صيغة ومقاربة واضحة لهذا المفهوم أو ذاك سيكون أساساً لكلّ حوار علمي وفكري، ومنطلقاً لكلّ تفاعل ثقافي، وضابطاً لكلّ تواصل عقلي، الأمر الذي يسهّل المهمة ويوفّر كثيراً من الجهد والوقت خدمة للحقيقة.

لقد وقفنا فيما سبق من المباحث على مفهوم الوسطيّة ودلالاتها ومعطياتها، ومن خلال ما مرّ ذكره بالاستناد إلى الأدلة والبراهين في تلك المعاني، ثبت أنّها جواهر لحقائق ذات مصادر فضائليّة غير قابلة للتحويل أو التبديل أو التغيير أو التقلّب، بمعنى أنّها ثابتة على جوهرها، ولمّا كان هذا معناها ومفهومها ودلالاتها ومعطياتها، لا بدّ أنّها تُستمد من ثابت يتّصف بصفاتها ويوصف بأوصافها فضلاً عن أنّه هو أصل لها وهي فرع عليه.

فإذا كان الأصل: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ}[69]. فقد تحقّقت ثبوتيته وصدقه وأحقّيته والأخذ منه والعمل به والدعوة إليه، وكلّ ما انبثق عنه أصبح في حكم جزئية من كليّة جوهرية ثابتة الحقيقة يجري عليها ما يجري عليه من الأحكام.

ولمّا كانت الوسطيّة دعوة الإسلام بأمر الله تعالى في قوله الكريم: {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}[70]. فقد انضوت الوسطيّة تحت كلّ معطياته من الأمر والنهي والوجوب والمنع والزجر والردع، بما يصلح الإنسان في حياته ودينه، ودنياه وآخرته كونها نابعة منه ومنبثقة عنه، ولمّا كان الإسلام ثابت الحقيقة والجوهر في جميع معطياته، والوسطيّة إحدى هذه المعطيات كانت الوسطيّة ثابتة الحقيقة والجوهر، لأنّها منبثقة عن حقيقة وجوهر، وهذه الحقيقة بجوهرها تعبّر عن الفضائل التي وجب الأخذ بها، وقد أردنا أن نؤكّد انتماء هذه الحقيقة الجوهرية إلى الفضيلة، لأنّ هناك حقائق قائمة بجوهرها تنتمي إلى الرذيلة، ولكنّها تندرج تحت القيم الأخلاقية، ولا نقول

69 – آل عمران 19.

70 – البقرة 143.

أنّها خرجت من الفضيلة، لأنّها لا تنتمي إليها أصلاً؛ فالكذب حقيقة قائمة بجوهرها لا يستطيع أحد أن ينفيه، ولكنّه يستطيع أن لا يأخذ به أو يدعه، وهذا يعني أنّ جميع القضايا هي قضايا ثابتة قائمة بذاتها؛ فالصدق قضية ثابتة صادقة، والكذب قضية ثابتة صادقة، ولا يخرجها عن صدقها وثبوتها الاتصاف بها أو عدمه، وإنّما يخرج من يتّصف بإحداهما من السمو إلى التدني أومن التدني إلى السمو معياراً بين الفضيلة والرذيلة، ومن هنا كانت مثل هذه القضايا من المتغيّرات ليس لتغيّرها في ذاتها، وإنّما لتغيّر من يتصف بها ويدعو إليها ويعمل على نشرها من أجل الأخذ بها، ولذا كانت من المتغيّرات لتغيّر موصوفها وليس لتغيّر صفتها هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنّ الإنسان مخلوق بالفطرة على التقويم الأحسن و حبّ الخير، {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[71]، فإذا خرج عن هذه الوسطيّة فقد خرج من الثوابت التي فُطر عليها إلى المتغيّرات الطارئة على فطرته، فإذا عاد إلى فطرة الخير والتقويم الحسن لا يكون هذا محلّ تغيّر أو تحويل وتبديل، وإنَّما هو عودة إلى الأصل الثابت، وهذا يوضح بجلاء الفرق بين الثوابت والمتغيّرات، إذ لا يمكن أن يُقال عن إنسان ترك شرب الخمر أنّه تغيّر لتركه الخمر، وإنّما هو تغيّر عندما أقدم على شرب الخمر، لأنّه لم يُفطر عليه، ولكن عند تركه هذا الفعل فقد عاد إلى الثوابت الوسطيّة بعد أن أقلع عن المتغيّرات.

وربّ قائل يقول أنّ هذا الكلام لا ينطبق على جميع القضايا مثل الكلمة الطيّبة الثابتة والكلمة الخبيثة المجتثّة كما جاء في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

---

[71]. التين 4.

يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ}[72]. بحيث لا يمكن لأحدٍ أن يقول أنَّ الوسطيّة ليست كلمة طيّبة، ولمّا كانت الوسطيّة تحمل معطيات الحقّ والعدل والإحسان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي استمدّته من أصلها الثابت النابع من الإسلام، أصبحت تحمل كلّ معطيات الطيب التي يقبلها العقل وتطمئنّ إليها النفس وتسمو بها الروح؛ فهذه الانبثاقات المتوالية التي يتولّد بعضها من بعض تنبعث من ثوابتها التي نقف عليها في اتجاهين:

الأول: ثبوتها في ذاتها أنّها كلمة طيّبة في الأصل الثابت والحقيقة والجوهر المنبثقة من الوسطيّة، وهو مبناها في اللفظ ومعناها في المفهوم، كالحقّ والعدل والخير والجمال، بمعنى أنّه لو تكلّم مبطل عن الحقّ أو ظالم تكلّم عن العدل من خلال سلوك كلّ منهما في باطل الأول وظلم الثاني، فلا يقدح ذلك في جوهر الحقّ والعدل ولا يغيّر من مفهومهما شيئاً، لأنّ الأول تكلّم عن الحقّ بمعطيات باطلة، والثاني تكلّم عن العدل بمعطيات ظالمة، فبقي الحقّ والعدل كلّ منهما على وسطيّته كلمة طيّبة في جوهر حقيقتهما والمبطل والظالم كذّابان.

الثاني: ثبوتها في ذاتها وبمن يتّصف بها، وثبوتها في ذاتها واضح الدلالة بيّن المعالم من معطياتها وما تحمل هذه المعطيات من حقائق ثبتت فضيلتها بالعقل والتجربة مطلقاً، وثبوتها بمن يتصف بها نسبيّاً إلى مطلقها، ونسبيّاً إلى الزمن الذي يتّصف من يتصف بها؛ فالذي يتصف بالكلمة الطيّبة التي تمثّل الفضيلة التي انبثقت من أصل ثابت فقد استمسك بالوسطيّة التي هي من الكلمة الطيّبة بالقدر الذي يستطيعه، وهو تمسّك نسبي إلى المطلق، ومن تمسّك بالكلمة الطيّبة إلى المدّة التي يستطيعها؛

72 – إبراهيم 24- 26.

فهو تَمسّك نسبيٌّ إلى المطلق ونسبيٌّ إلى الزمن. وفي كلا الحالين تبقى هذه الحقائق من الكلمة الطيّبة على جوهرها في فضيلتها المطلقة سواء أكان الاتصاف بها نسبيّاً إلى مطلقها أم نسبيّاً إلى الزمن كونها تنبثق من حقائق ثابتة تتعاظم كلّما كثر واردوها لأنّها حقيقة مجرّدة لا ينقصها الأخذ منها أو التمسّك بها، وإنّما يكون ذلك مدعاة لاتساع دائرتها وعلوّ كعبها في الثبات والرسوخ والامتداد كونها حقّ، والحقّ ثابت ينبثق منه حقائق ثابتة لأنّها تنتمي إلى الثبات في الموضوع وفي الذات، أي في جوهرها الذي يبدي حقيقتها وفي العَرَض الذي تبدو فيه تأثيراتها ونتائجها.

وأمّا الكلمة الخبيثة وإنْ كانت حقيقة في ذاتها وموضوعها إلّا أنّها تتباين مع الكلمة الطيّبة في ثباتها ورسوخها، علماً أنّ هناك من يأخذ بالكلمة الخبيثة ويعمل بها وصولاً إلى تباين آخر بين الكلمتين، حيث أنّ الكلمة الطيّبة تفضي إلى الفضيلة، بينما الكلمة الخبيثة تفضي إلى الرذيلة، ومع ذلك فإنّ كلاً من الكلمتين تصل بمن يأخذ بإحداهما أو يتمسّك بها سوف يصل إلى نتيجة وهذه حقيقة، وهنا يقول قائل إنّ الحقيقتين متساويتان في ثبات الجوهر من جهة وفي الوصول إلى نتائج من جهة أخرى، فإذا تساوتا في الحقيقة وفي النتائج، فلا ضير أن يأخذ الإنسان بأيٍّ منهما.

إنّ من يعتقد ذلك، وخاصة أنّ هناك من يعتقد ذلك! قد غاب عنه أمرين مهمين غير الحقيقة والنتيجة:

الأوّل: أنّ الكلمة الطيّبة الثابتة حقيقة تفضي إلى نتيجة أجمع عليها أصحاب العقول أنّها نتيجة فضيلة تنتمي إلى الفضيلة المطلقة، والكلمة الخبيثة حقيقة تفضي إلى نتيجة أجمع عليها أصحاب العقول أنَّها نتيجةُ رذيلة تنتمي إلى الرذيلة المطلقة.

فالذي يصل إلى نتيجة تنتمي إلى الفضيلة، ينفعه إن وصف بها، ولا يضرّه إن لم يوصف بها، والذي يصل إلى نتيجة رذيلة تنتمي إلى الرذيلة المطلقة من خلال الأخذ بالكلمة الخبيثة، لا يحب أن يُوصف بها، ويضره إن وُصف بها، وهنا مكمن الفرق الظاهر بين الحقيقتين والنتيجتين وبين الأصل الثابت الذي تمثّله الوسطيّة وبين غيرها من المتغيّرات.

الثاني: ثبات الكلمة الطيّبة واجتثاث الكلمة الخبيثة، لأنّ الكلمة الطيّبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، فإن لم يكن بمعنى العلو والارتفاع؛ فهو بمفهوم السمو والارتقاء، وهذا التباين بين الطيب والخبث أثبت الأول واجتثّ الثاني، حيث سما الطيب بالفضيلة لمّا رسّخته وجعلته سامياً، وهوى الخبث بالرذيلة لمّا وصمته وجعلته دنيئاً، ثمّ على تباين ما بينهما من الحقّ والباطل، فالكلمة الطيّبة حقّ، والكلمة الخبيثة باطل، ولكن كلاهما حقّ من حيث الوجود التجريدي إذ لا يستطيع أحد أن يثبت الخير وينفي الشرّ وذلك لوجود الحقّ والباطل حقيقة، ولكن يمكن أن يدفع الشرّ بالخير، ويبطل الباطل بالحقّ مصداقاً لقوله تعالى: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ}[73].

لو لم يكن الباطل موجوداً ما كان للحقِ أن يدمغه، وهما حقيقتان قائمتان، ولكن دمغ الحقّ للباطل هو ثبوت الأول واجتثاث الثاني؛ فالعقل يبطل الباطل بالحقّ، من حيث أنّه يبيّن بطلانه حكماً وليس وجوداً، والعاقل بعقله يحكم بصلاح الحقّ وفساد الباطل إدراكاً للتمييز بين الصلاح والفساد، والاجتثاث لا يعني نفي الباطل من الوجود والوسطيّة وإن كانت ثابتة فهي لا تنفي الباطل من الوجود، ولكن بإحقاق الحقّ الثابت ينتزع الباطل من النفس، وبانتزاع الباطل تنتزع الكلمة الخبيثة وتتأصل الكلمة

[73] – الأنبياء 18.

الطيّبة في النفس بعودتها إلى الفطرة التي تمثّلها الوسطيّة الثابتة، ولمّا كان الحقّ والباطل على طرفي نقيض، والحقّ من معطيات الوسطيّة؛ فالوسطيّة من الباطل على النقيض، ولمّا كان الحقّ ثابت وهو من معطيات الوسطيّة؛ فالوسطيّة فرع منبثق من أصل ثابت، ولو لم تكن فضيلة ثابتة تنبثق من ثابت وتنتمي إليه ما كان الحقّ من معطياتها.

وعلى هذا فإنّ الوسطيّة قضيّة ثابتة صادقة، انبثقت من ثابت تحمل فضيلة وتنتمي إلى فضيلة، ولذا فعدم فهمها والانحراف السلوكي في تطبيقها لا يغيّر من حقيقة جوهرها.

الوسطيّة ثابتة تعالج متغيّرات

إنّ الكلام عن الثوابت التي تعالج المتغيّرات في متناول بحثنا، نأمل أن لا يُفهم منه أنّ الأصول العقائدية الثابتة في الإسلام تعالج المتغيّرات من الاجتهاد في الفروع والتفاصيل في التطبيقات التي تعالج الأحكام مع تغيّر الأزمنة والأمكنة، وهو ما يسميه الفقهاء اختلاف زمانٍ ومكانٍ، لا اختلاف حُجَّة وبرهان، ذلك أنّ الأصول العقائدية الثابتة التي يحملها الإسلام، هي منهج إلهي من حيث الأصول، ووضعيّة بشريّة من حيث التطبيق والتفاصيل، أصول إلهية على أساس التوفيق بين مصلحة الفرد ومصلحة الأمة، وهذه الأصول كونها وسطيّة علاجية لا تسحق الفرد لصالح الجماعة ولا تسحق الجماعة لصالح الفرد، فإذا استحال التوفيق اختارت الأصول الثوابت المصالح الجماعية على مصلحة الفرد، وهذا التوازن الدقيق بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة التي تمثّلها الوسطيّة في المحافظة على الأصول الثوابت وليس المتغيّرات من الاجتهاد في استنباط الأحكام.

ومن هنا إنّ اختلاف الأحكام في القضيّة الواحدة أو اختلاف الفتاوى المرتكزة أساساً على الوسطيّة إنّما هي علاج للمتغيّرات بالوسطيّة نفسها حسب الزمان والمكان، وخير ما يمثل علاج المتغيّرات بالوسطيّة ما كان من الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في الفتاوى العراقية والفتاوى المصرية، إذ أنّه بعد انتقاله إلى مصر وجد أنّ فتاواه في قضايا مماثلة في العراق لا تصلح لأهل مصر لاختلاف البيئة والزمان وليس رجوعاً عمّا أفتى به لأهل العراق، لأنّ متغيّرات هذا المجتمع تختلف عن متغيّرات المجتمع السابق، وفي كليهما انطلق من الوسطيّة التي تمثّل الأصل الثابت في علاجه لمتغيّرات كلٍّ منهما.

الوسطيّة ثابت تنبع من ثابت وتنتمي إليه، وثبوتها ليس هو الحدّ الفاصل بينها وبين المتغيّرات، وإنّما يستهدف المتغيّرات من أجل علاجها، ويتجلى رأس العلاج الذي تحمله الوسطيّة التي جُعلت عليها الأمّة {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آَمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}[74]. فلمّا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من معطيات الوسطيّة، لا يمكن لعاقل أن يقول أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس علاجاً تطرحه الوسطيّة، فهاتان الكلمتان دخل فيهما الفرد والمجتمع والبيئة؛ فإذا شمل العلاج هذه المسميات فقد شمل الإنسان والحياة، الإنسان بجنسه وعرقه ولونه، والحياة بموجوداتها، وطالما أنّها ثابت فهي من المسلّمات، وطبيعة الثوابت ومفهومها أنّها مقياس للمتغيّرات إلى الثوابت المسلّمة، وطبيعة الكون وما فيه من موجودات خُلق على هذه الثنائية و يخضع لها، ليس في عملية تكاملية بين الثابت والمتغيّر، وإنّما في عملية صراع قائم على

[74] – آل عمران 110.

التناقض بين هذه الثنائية في ثوابتها ومتغيّراتها، ومن هنا كانت مهمة الوسطيّة مهمة علاجية تقويمية تستهدف المتغيّرات الفطريّة لدى الإنسان ومتغيّرات الأعراف والتقاليد في القيم والأخلاق.

وكنتم خير أمّة، لا يُراد بها الدلالة على مضي الزمان وانقطاع النسبة، إذ لو كان المفهوم كذلك لانتفت المهمة العلاجية للوسطيّة بمعنى (كنتم) مثل قولنا كان المطر منهمراً، ولكنّها هنا تدل على الاتصاف بالنسبيّة والاستمرار كما جاء في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}[75]. فقد جاءت سوف الدالة على المستقبل البعيد يليها الفعل المضارع في إيتاء الأجور ممن كان غفوراً رحيماً، فكيف يكون الغفران والرحمة في المستقبل من الكون الماضي، وهذا لا يستقيم في المنطق وقوله تعالى {وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً} لأنّ عدم الزنى وسطيّة والنهي عنه إصلاح والإقلاع عنه علاج، ولا يفهم منه أنّه كان فاحشة وبعد ذلك أصبح غير فاحشة، وإنّما فحشه مستمرّ فيه وملازم له في الزمان والمكان لأنّ معناه صفة ملازمة لوصفه.

الوسطيّة تستهدف الإنسان أول ما تستهدف في العلاج، لأنّه إذا تعافى الإنسان، تعافى محيطه وبيئته؛ لذلك كانت دعوة الوسطيّة عامة إلى الخير في علاج الناس من أجل إصلاح أحوالهم، {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[76]. لقد أكرم

---

[75] – النساء 153.

[76] – الأنعام 151.

الله تعالى الناس بالسموِّ في عبوديتهم لخالقهم، وبيّن لهم نوع العلاقة الأبوية القائمة على الإحسان وضمن لهم والرزق ونهاهم عن الفواحش الظاهرة والباطنة وعدم سفك الدماء بغير حقها، فهذه التكاليف الوسطيّة في بساطها على عظمها لا تحتاج جهداً أو بذل مال أو نفس من أجل تحقيقها، وإنّما أدني مسكّة عقل يمكن أنْ تحصل على ذروة هذه المعطيات، غير أنّ الإنسان الضعيف بأهوائه ونوازعه وشهواته يحيد عن هذه الوسطيّة، والنفس الإنسانية نزّاعة؛ ففي هذا العصر الذي تنبض عروقه بالوسائل التأثيرية المتعدّدة من الرغبة والرهبة، والطموح والجموح، والنزوة والتمرّد، بالكلمة والصوت والصورة، وبأشياء أخرى ألقت بنفسها على عاتق الأمّة بكثافة بما تحمل من انحرافات تؤدّي إلى انجرافات، وفي ظلّ تخبّطٍ وصراعٍ بين الثوابت والمتغيّرات، في هذا الخِضَمّ يتاعظم دور الوسطيّة في علاج الإنسان وإصلاح ما أفسدته تلك المعطيات المتغيّرة بالتصدي لها في مداهمة التواءاتها العصيّة والطيّعة في آنٍ معاً، وذلك عبر العلاج بما تحمل الوسطيّة من معطيات خيّرة آلفتها النفس الإنسانية بفطرتها على الخير عبر وسائل الوسطيّة في العمل الدائب والجاد انطلاقاً من تلك المعطيات من الحقّ والعدل، ليس من أجل تغيير المتغيّرات، وإنّما من أجل إظهار المتغيرات على حقيقتها والعدول بالمتغيّرين عمّا هم فيه من متغيّرات إلى فطرتهم، بما يخدم الإنسان من مقاصد الوسطيّة، ويحقق أهدافها ومقاصدها، و يخدم الداعين إليها ويسهم في إعداد أجيال لها هوية كاملة ومتوازنة، ويحقق الانتماء إلى الأمّة ويشدّ الوشائج بينها وينبذ التفرقة، ويشكل رأياً فاضلاً ومنضبطاً يعزز الفضائل ويمجّدها، ويجسّم الأخطاء ويُجنّبها، مع احترام مستوى المتلقي ومدى تلقيه.

والوسطيّة مهما كان المبتعدون عنها جامحون ومدفوعون بالشغف إلى الخروج عن المألوف لإحداث الجذب والانحراف بالمجذوب، إلاّ أنّه من الممكن استدراجهم وتطويعهم عبر استجلاب المفاهيم والقيم الضالعة في السموِّ لإقناعهم بحقيقة الوسطيّة، ليندمجوا معها ولو جزئياً، وذلك يحقق المقاصد ويبلغ المرامي ويحدث التوازن بين ثنائية الثوابت والمتغيرات على مستوى الإنسانية وليس على مستوى الأمّة وأبنائها من خلال التعامل بضوابط الوسطيّة في رفقها ولينها، {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ}[77].

إنّ الجهود التي تستهدف ثوابت الأمّة ومسلّماتها بمتغيّرات طارئة، مهما عظمت هذه المتغيّرات فإنّها لا تكفي لإحداث تغريب الأمّة أو تفتيتها التي يزداد تأصّلها وتجذّرها كلّما استمسكت بالوسطيّة، الأمر الذي دعا المتغيّرات إلى توسّعٍ في وسائل الهدم عبر أدوات كثيرة ترتكز إلى الفكر والثقافة وتستخدم السياسة والاقتصاد والفن والأدب والإعلام أدوات لها بكل الوسائل الحديثة والتقليدية.

وهنا يبرز دور الوسطيّة علاجاً في مواجهة المتغيرات التي تستهدف مجتمعها ليس بالرفض المباشر لتلك الأدوات والوسائل بما تحمل من طروحات تريد من خلالها أنْ تنأى بالأمّة عن مسارها، وإنَّما بطرح أدوات ووسائل بديلة ليست جديدة وإنّما دعوة للعودة إلى الأصل الثابت من خلال ما تحمل الوسطيّة من معطيات.

إنّ رفض منهجية المتغيّرات السلبية من قِبل الوسطيّة، لا يعني عدم الاعتراف بالنقص أو وجود خلل، إنّما ترفض الوسطيّة من تلك المتغيّرات أن يكون استهداف الخلل منصبّاً على استهداف النسق العام للأمّة في

[77] – التوبة 6.

مجتمعها، أو أن تُستهدف صورة الأمّة الوسط التي يتبنى أفراد المجتمع معطياتها وقيمها ومعارفها واتجاهاتها وسلوكياتها، أو يتمّ الإيهام بأفضلية ثقافة وقيم جديدة ومعطيات أخلاقية دون فضائل الوسطيّة وما تدعو إليه من معطيات وثقافة وقيم وأخلاق، ولذا فإنّ الوسطيّة ترفض من تلك المتغيّرات سعيها إلى تعميق التناقض في بيئتها الاجتماعية، أو تغييب دور فردها الاجتماعي المطلوب الذي يتماشى مع تطلّع الوسطيّة إلى الأمّة ويتوافق مع طموحاتها في تحقيق معطياتها من أجل اندماج الأمّة في وسطها واندماجها في الحياة بما يحقّق التوازن بين الدنيا والآخرة، {وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}[78].

إنّ الوسطيّة عندما ترفض تضخيم الخطأ أو الانحراف فهو ليس رفضاً للواقع، وليس عدم إدراك المتغيّرات، بل هو رفض لهذا التضخيم الذي يفهم من خلاله أنّه لا يقوّم إلّا بالبدائل، والبدائل أول ما يُفهم منها هو الانسلاخ عن الثوابت بإحداث متغيّرات تخرج الأمّة عن وسطيّتها، وهنا تسعى الوسطيّة إلى الحفاظ على المفاهيم، وطرح المعطيات، ونبذ المغالطات والتناقضات علاجاً من أجل الإصلاح، بينما تكون بدائل التغيير محاولة للإبقاء على البون الشاسع بين الأعراق والألوان والطبقات الاجتماعية والمذاهب الفقهية والتيارات الفكرية، وبهذا تحاول فرض أفكارها ومعاييرها وقيمها على الأمّة التي تمتلك الحقّ المنزّه والصريح النابع من الثوابت، وأحقيّتها في إصلاح أفرادها ومجتمعها من خلال وسطيّتها وما تحمل الوسطيّة من معطيات، لذلك بيّن الله تعالى أبناء الأمّة الوسط دفعاً لهذه المغالطات المقصودة والردّ بالنصّ القطعي الدلالة يوضّح الأمّة الوسط في

---

[78] – القصص 77.

قوله تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آَيَةً لِلْعَالَمِينَ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ}[79].

وهناك من يتّهم الوسطيّة في إقدامها على علاج المتغيّرات بأنّها تقف في وجه التطوّر والتقدم، ولا يريدون أن يفهموا ذلك على أنّه إخضاع لتلك المتغيّرات بما يناسب الوسطيّة.

إنّ الذين يفسّرون تمسّك الوسطيّة بوسطيّتها على أنّه وقوف في وجه التقدّم العلمي والتأثير الحضاري، والتخلّي عمّا أصبح عليه العالم من تقارب في تجاوز المكان وتسابق الزمان تبعاً للطفرات التي أحدثتها التكنولوجيا في العالم الذي نعيش فيه، أو أنّهم يفهمون الوسطيّة على أنّها صورة من صور القيد الذي يقف حاجزاً أمام استيعاب ما يحدث في العالم من تطوّر وعجز عن مجاراته هو تهديد لتقدم الأمّة وتطوُّرها؛ لذا يجب أن يعلم هؤلاء أنّ الخطورة ليست فيما يقدّمه التقدّم العلمي من الفرص والمميّزات وما يتبعها من المتغيّرات، وإنّما الخطورة في ربط تعاطي مجتمع الوسطيّة

[79] – الأنبياء 83- 92.

للتطورات التقنية؛ برفض الثابت من الفضائل والتخلي عن النواميس واستبدال القيم والأخلاق، وفق منطق التحايل على الواقع الذي يحوّل الثابت تابعاً للمتغيّر، ويعطي المتغيّر سمات وخصائص لا يملكها، وعدم إدراك هذه الأمور وفهمها، هو مؤشر لأزمة عميقة يعاني منها التفكير العقلاني الذي يتعاطى هذه المعطيات في التنظير، ويدلل على عجزه النظري والمنهجي في فهم تمسّك الأمّة بوسطيّتها، إذ أنّ الوافد من المتغيّرات القيمية من الأخلاق والعادات والتقاليد في الأقوال والأفعال والسلوكيات المنافية لثوابت الوسطيّة التي تستهدف الإنسان في عملية تحويلية تؤدّي إلى الانسلاخ عن الفضائل والإرث الثقافي والحضاري، أضعاف ما يفد من المتغيّرات المادية التي تنهض بالمجتمع، إضافة إلى إطلاق المتغيّرات القيمية وتقييد مستلزمات النهوض والتقدم بشروط التنازل عن بعض الثوابت الفضيلة مقابل المتغيّرات المتدنية.

إن من أخطر الأمور التي تواجه الأمّة في أفرادها وجماعاتها وتجمعاتها قضيتان هامتان، تتمثّل الأولى في الغزو الفكري والثقافي الذي تتصدى له الوسطيّة بالحدّ من تأثيراته، والثانية أن يسيطر الجمود الذهني عليها فلا تستطيع أن ترتقي الأمّة إلى وسطيّتها؛ فإذا ساد الفكر الغازي وأصبح يمثّل المعطيات الثقافية؛ فإنّ ذلك مدعاة للانسلاخ عن الذات الحضارية بكلّ ما تحمل من إرث، وأمّا سيطرة الجمود الذهني فنتيجته عدم القابلية على التجديد والتحسين والتطوير، وفي كلا الحالين تسيطر على الوعي الجمعي مقولات لا تناسب الواقع، وعادات وتقاليد يصعب تركها، والنهوض الحضاري لا بدّ له من قدرة على تحقيق التوازن بين الثوابت والمتغيّرات الذي يحفظ المرونة والحيوية في المحافظة على الفضائل وصهر المتغيّرات في بوتقتها من خلال علاجها، هذا ما تؤمّنه الوسطيّة في قضايا

العلاج الذي يقوى بالعلم والمعرفة الواسعة دون انغلاق عن الآخرين الذين يمتلكون المؤسسات البحثيّة المتقدمة، ولهذا فالفرق كبير بين أن ينسلخ الإنسان عن فضائل أمّته وقيمها الحميدة وبين أن يتطلّع للآخر الذي يمدّه بالعلوم الممكّنة من بلوغ النهضة، ويفتح أمامه أبواب الدعوة والتبشير بما هو محقّ للحقِ وزاهق للباطل، ذلك أنّ الاتصال بالثوابت يؤمّن الكيفية في التعامل مع المستجدات من المتغيّرات، لأنّ العلاقة بين الوسطيّة والأمّة هي كالعلاقة بين النبات والتربة، وانقطاع الصلة بينهما سيكون من بعده انقطاع الحياة.

إنّ واقع الوسطيّة واضح الأطر بيّن المعالم متسع الأفق، لن يُغمر أو يتمّ تجاوزه مهما كانت سمات الواقع الافتراضي المغاير، لأنّ ثوابته من الفضائل لم تكن استنتاج العقل الإنساني، وقيمه وأخلاقه نابعة من بيئة الأمّة التي تواطأت على قبولها الأعراف والتقاليد، ولذا فإنّ علاج المتغيّرات بغير ثوابت الوسطيّة هو خروج عن الفضائل، ذلك أنّ الوسطيّة هي المؤهّل دائماً للتعبير عن حاجات الأمّة وتلبية متطلباتها وعلاج متغيّراتها مهما تغيّرت الأجيال والطموحات وتبدّل الزمان والمكان، لأنّ الوسطيّة يكمن في معطياتها العلاقة التي تربط الناس بخالقهم وتؤطّر العلاقة فيما بينهم، وتتمثل علاقة الناس فيما بينهم من خلال معطياتها في إصلاح انحرافات أفراد الأمّة ثمّ توجيه مسيرتها من أجل ضمان حقوقها وأداء واجباتها وتحمل مسؤولياتها والرقي برفاهيتها الروحية والفكرية والمادية في عملية متوازنة بين الروح والعقل والنفس والجسد، وفي تحديد نظم العلاقة بين ثوابتها وعلاج المتغيّرات الطارئة عليها وعلاقتها بها في الزمان والمكان حسب معطيات كلّ منهما وما يستجدّ فيهما من متغيّرات توجّهها خدمة للثوابت انطلاقاً من الثوابت نفسها.

استدعاء الوسطيّة

تبرز الوسطيّة والوسطيّة ظهوراً عندما يصطدم طرفان أو أكثر اجتماعياً أو فكرياً أو سياسياً أو اقتصادياً أو دينياً سواء على مستوى السلطة والحكم أم على مستوى الأفراد والجماعات في أي دولة أو مجتمع أو نظام حكم، وبشكلٍ خاص عندما تصل الأمور بين الأطراف إلى نقطة لا عودة عن التطرُّف فكراً أو سلوكاً.

وبظهور التطرُّف تظهر معطيات جديدة تَحلّ بين المتطرِّفين لتملأ ذلك الفراغ الممتدّ بين أطراف النزاع فتكون جسر الصلة الذي يربط بين المسافات المنفصلة التي قطعت العلاقات بين الأنا والآخر، وإن لم تَحلّ الوسيطيّة محلّها في الوقت المناسب بين هذه الأطراف؛ فقد تزداد الهوّة اتساعاً والجفاء بعداً.

ولكن ما هي المعطيات التي تُمكِّنَ الوسطيّة من ربط الهوّة بين الأطراف المتطرِّفة بعضها عن البعض، ألا تكون هي المتكوِّنة من مجموع التنازلات في دائرة النسبية والمُمكن، ومدى درجة تحمُّل كلّ طرفٍ على أن يقبل بما يمكن أن يُملى عليه من الطرف الآخر أو الأطراف المتحالفة ضدِّه؛ فعلى سبيل المثال: الصراع في لبنان (لؤلؤة العرب والبحر المتوسط) قوّة رحاها تدور بين أطراف لا تقبل بالاستسلام، وأخرى ترى ضرورة غض النظر عن بعض المواقف، فهو الصراع بين من يرى لا مكانة له إلا بإشعال نار الفتنة، وبين من يرى وحدة الوطن والحفاظ على ترابه، وبين من يرى الثأر من العدوّ وطلب الشهادة هو الحلّ، وبين من يرى المغالبة بالأكثرية وإن كره الكارهون، وبين من لا يقبل بأيّ رئيس للحكومة الموقّرة إلا برئاسته هو دون غيره، وبين الذين لا يرون فيه قادراً على تمثيل كلِّ اللبنانيين الذين

تنوّعت أفكارهم ودياناتهم واتجاهاتهم وتوجُّهاتهم حضارياً وثقافياً ومصلحيّاً، وبين من يرفض التدخُّل الأجنبي في توجيه الساسة، وبين من يرى في التدخل مناصرة للحقّ وإحقاقه. وبين هذه وتلك تظلّ بذور الفتنة مكوّناً من مكونات البيئة المحلّية والبيئات الأخرى وما تُقرَّه الوسيطيّة من قبول البقاء على هذه المخصّبات البيئية بشيء من التنازلات.

وكذلك ما يجري في العراق من صراعات كلّما ازدادت انشطاراتها أزداد التطرُّف انشطاراً جديداً، وكلّما اشتدَّت الصراعات والصدمات اشتدَّ التطرُّفَ وتأزّمت الأحوال في البلاد، ومع أنّ الدين عند الأغلبية العراقية هو واحد (الإسلام) إلا أنّ السياسة ليست واحدة؛ فكانت الصدامات مشتعلة بنيران التطرُّف بين السُنَّة والسُنَّة، وبين الشيعة والشيعة، ثم بين الشيعة من جهة والسنَّة من جهة أخرى، وبين أكرادٍ وأكراد غيرهم، وبين بعض من العرب والتركمان وكذلك بعض من الأكراد، وبين من يدين بالإسلام وبين من يدين بغيره، الوطن واحد، وحقّ المواطنة واحد، وثروة البلد واحدة، وجميعها لن تُعدّ مرتكزاً للقاء بما أنَّ الأجنبي هو المسيِّر للسياسة وحتى حركة المرور في البلاد، ولأنّه أجنبي فلابدّ له من الرحيل، وإن لم يرحلّ بإرادة فلابدّ أن يُرحّل بالقوّة، ومن لم يرحّل راكباً أو راجلاً سيُرحّل في نعشٍ على الأكتاف محمولاً، ومن لم يضع هذه في حسبانه لن يجد نفسه إلّا مع ركام ذلك الغبار العظيم الذي تطاير بقوّة التفخيخ والتفجير، ثم تناثر هنا وهناك أو تراكم بين هنا وهناك. ولذا فالقاعدة تنصُّ على أنَّ (المُحتلَّ إن لم يرحلّ بإرادة يُرحلّ بالقوّة) (وإن لم يَرحلّ راغباً يُرحلّ مُكرهاً).

إذن لو كانت الوسطيّة حلّاً؛ فلماذا لم تحلُّ حلّاً في العراق بين الأخوة في الوطن الواحد، وإلا الوسطيّة حتى الآن لم تتكوَّن هناك لتكون حلّاً عادلاً بين أيدي أبناء العراق مصدر الحضارات والثقافة والعلم.

وأين موقع الوسطيّة مما نظَّر له صموئيل هنتنجتون (أحد المنظرين الرئيسين للعولمة) الذي أعتبر أنّه لا خطر على العالم إلا من انتشار الإسلام، أم أن الوسطيّة في هذه الحالة أصبحت هي أحد الأطراف، مما يجعلها في حاجة لوسطيّ آخر، بمعطيات أخرى غير التي هي عليها فكرياً، ليكون وسطيّاً من أجل الحلّ قبل أن تتسع دوائر الصدام بين من رسم سياساته وفقاً لِما نظَّر له صموئيل هنتوجنتون، وبين المستهدفين به فعلاً وسلوكاً، وإذا أصبحت الوسطيّة بعد ذلك طرفاً؛ فعليها بتقديم التنازلات التي تجعلها على حالة تقارب من الآخر، ومع ذلك فإنَّ صموئيل هنتوجنتون يرى أنّ الحضارة الإسلامية لا توجد بها ثغرة في الوسط في نظامها التراتيبي للولاءات، وهي الحضارة التي تفتقد إلى الدولة المركز مما جعل علاقاتها مع الغرب في حالة تباين[80]. ثم يؤكد على أن "الدين الإسلامي هو العدو الأول للغرب"[81]، ولذا ينبغي معرفة موقع الوسطي من هذه التنظيرات؛ فإن رفضها الوسطي أصبح طرفاً متطرِّفاً، وإن قبل بها أيضاً أصبح طرفاً، ولكنَّه في هذه الحالة سيجد نفسه طرفاً متطرّفاً مع تنظيرات صموئيل هنتونجتون التي لم يقبلها المسلمون بكل طوائفهم وألوان طيفهم.

ولننظر إلى فلسطين (قلب العروبة المحتل) وما يجري فيها من ظلم وقهر وإذلال وهتك عرض ومصادرة أموال الفلسطينيين وأراضيهم من قِبل الإسرائيليين؛ فلننظر كذلك إلى ما يجري بين الفلسطينيين من صدامات ونزاعات وعداءات؛ فمع أنّ عدوهم واحد إلا أنّ العداءات بينهم أصبحت

---

[80] صموئيل هنتونجتون، صدام الحضارات وإعادة النظام العلمي "ترجمة مالك أبو شهيوة ومحمود خلف" بنغازي، دار الكتاب الوطنية، ط 1، 1999م، ص 322.

[81] المصدر السابق، ص 34.

تتعدّد بمبررات كل طرفٍ منهم بأنّه على الحقّ وغيره على الباطل، وفي هذه الحالة فالوسطي سيكون بين من ومن، بين العرب والإسرائيليين، أم بين الفلسطينيين والفلسطينيين، في هذا الصدد يلاحظ كلّ يوم جهود الوسطاء تُبذل من أجل أن تجد الوسطيّة البينية مكاناً لها لتحلّ فيه بين الفلسطينيين والفلسطينيين، وبين الفلسطينيين والإسرائيليين، ويا ليتها تجد مكاناً. ولكن ببذل الجهد ومضاعفته ستكون التنازلات في متناول الجميع والأضعف هو الذي سيُحمَّل دفع القسط الأكبر من التنازلات.

فما قامت به إسرائيل في المياه الدولية بالبحر الأبيض المتوسط من استيلاء على السفن المناصرة للقضية الفلسطينية (فك الحصار عن قطاع غزة) فجر يوم الاثنين 31 من شهر مايو 2010م وقتل وجرح وأسر من كان على ظهورها من مناصرين مدنيين أوروبيين وغير أوروبيين إلا علامة دالّة على تطرُّف دولة إسرائيل؛ فأين الشرعية الدولية ومنظمات حقوق الإنسان المناصرة للحقِ، فهل يا ترى ستكون طرفاً أم أنّها ستكون وسيطاً! إن قبلت بأنْ تكون وسيطاً أو وسطاً ألا تكون قد اعترفت بأنّها غير عادلة، بل لا علاقة لها بالعدل لا من قريب ولا من بعيد، وإن قبلت بان تكون طرفاً فهل هي قادرةِ على فرض الحلّ، أم أنَّ الحلّ بيد من يديرون السياسة التي تُسطِّر لكلِّ شيء ولا تسير على ما سطّرت له. وإن لم يحدث هذا ولا ذاك ألا يكون المزيد من التطرُّف هو السبيل المؤدّي إلى الحلّ.

ومع أنَّ القبول بتقديم التنازلات مُعطية رئيسة من معطيات قبول الآخر من وجهة نظر الفكر الوسطي، إلا أنَّ المستقبل الأوفر حظاً غير مقتصر على تقديم التنازلات الآنية، بل مرتبط بتغيُّر المصالح التي يترتّب عليها تغيير المواقف للضرورة والحاجة والأهمية، فإذا نظرنا مثلاً إلى مستقبل

مصالح الولايات المتحدة الأمريكية والغرب بشكل عامٍ مع الإسرائيليين لن نجد لها معطيات مستقبلية تتطابق بها مع ما هي عليه في الزمن الحاضر، بل إنّ المعطيات التي نشهدها اليوم ستكون في صالح كفَّة العرب والمسلمين بشكل عام؛ فاليوم السياسة العالمية المُغَالَبةُ فيها بأيدي من يمتلك المال والصحافة، وهذه اليوم بأيدي يهود العالم، إلا أنَّ المسلمين الذين منهم بنو يعرب، هم على التكاثر والتزايد المؤدي للهجرة والمُمكِّن من بعدها في الدول المهاجر إليها من دخول البرلمانات والمجالس النيابية والرئاسية التي فيها تُرسَمُ السياسات ويُقرَّرُ ما يجب أن يكون ليكون الحقّ في المستقبل بين أيدي أصحابه دون وسطيَّة. وكذلك لا ينبغي الإغفال بعد تفكيك الاتحاد السوفييتي وازدياد عدد الدول الأعضاء المسلمة في المجالس والهيئات الدولية التي ستكون أصوات ضاغطة على أزرار إدارة العجلة تجاه المستقبل الأفضل للمسلمين.

ففي الولايات المتحدة الأمريكية التي كانت إسرائيل بالنسبة لها الابنة المتبناة المدللة، اليوم فيها الدين الإسلامي هو الديانة الثانية، ورئيسها المحترم السيد (أوباما حسين) هو من بني جلدتنا وعلى ثقافة دين أبيه الإسلام وفضائله الخيِّرة، ولذا فمن غير شك أنَّ الولايات المتحدة الأمريكية اليوم لم تَعُدْ تنظر لأهمية الابنة المتبناة (إسرائيل) وكأنَّه لا وجود من بعدها لمن يمكن أن يتمّ تبنِّيه، بل اليوم تنظر إلى البلدان العربية والإسلامية قوّة مادية وبشرية فلا تقبل أن تقصر نظرها على الابنة الوحيدة المتبناة التي تشكِّل عبء عليها وتترك تلك القوى الواسعة الانتشار مع وافر الإمكانات، ولذا فالمصلحة ستفرض نفسها على السياسة الأمريكية مستقبلاً مما يجعل الأحوال متغيِّرة وعلى وجه السرعة.

وفي أوروبا التي غلَّبت في الماضي المصالح الإسرائيلية على المصالح العربية وحقوقهم، اليوم يُعدّ الإسلام فيها هو الديانة الثانية لجميع شعوبها، ولذا كلّ من يزور أوروبا من العرب يجد له مكاناً في مطاعمها الإسلامية ومكاناً في بعض من شوارعها ذات اللوحات المكتوبة باللغة العربية أو التركية أو الإيرانية والباكستانية، وإذا دخل إلى متاحفها يعرف أن للعرب والمسلمين جذور في كلِّ ما في متاحفها وفي كثيرٍ من الآثار التي تشكّل هويتها وفي قرطبة واشبيلية وصقلية كثير ما يسرُّ المسلمين، ولهم أيضاً ما يسرّهم في أوروبا من المساجد ذات المآذن العملاقة التي هي في ازدياد بأسباب ازدياد عدد المهاجرين المسلمين ونسبة تكاثرهم إذا ما قورنت بنسبة تكاثر غير المسلمين وبزيادة عدد الداخلين في الإسلام أيضاً.

إنَّ دخول تركيا منظومة الاتحاد الأوربي لن يكون بعيداً وحينها سيكون للدين الإسلامي والمسلمين هامش يسمح بامتدادٍ أكثر، فيه تتيسر الأمور وتتحسَّن بين أهل الشرق وأهل الغرب، وتصبح المآذن أكثر ارتفاعاً.

ولننظر كيف كانت أمريكا وأوروبا طرفاً منحازاً إلى إسرائيل، وكيف هي اليوم تضع نفسها وسيطاً بين إسرائيل وبين العرب الفلسطينيين؛ فأوروبا اليوم تطالب بتقديم المزيد من التنازلات من الطرفين بعد أن كانت منحازة لإسرائيل على حِساب العرب وقضيتهم المركزية فلسطين؛ فإذا كان الأمر هذا حاله في بداية القرن الواحد والعشرين؛ فكيف سيكون حاله تجاه العلاقات مع العرب والمسلمين في وسط هذا القرن الذي يزداد فيه انتشار العرب والمسلمين في أوروبا وأمريكا، وكيف سيكون من بعد ذلك حال دولة إسرائيل التي إن لم تصحُ لخطورة ذلك برؤية موضوعية تمكِّنها من استيعاب العرب والمسلمين (هم كما هم عليه) لأجل أن تندمج معهم وتنصهر في بوتقة الاعتراف والتقدير والاعتبار والاحترام بأنّ الدين من

عند الله والوطن للجميع؛ فإن لم يحدث ذلك سيكون للتطرُّف أثراً دموياً في يومٍ لا وجود فيه لوسطي يمكن أن يُسهم في كفِّ هدره، ويومها يكون الحلّ.

ولأنَّ مصالح العرب والمسلمين الذين يقارب عددهم من المليار والنصف مليار نسمة مصالح متداخلة وأبوابها مفتَّحة أمام الجميع بمعطيات الدين والكثرة والهجرة؛ فإنَّ انفصال مجموعة من الدول ذات الهوية الإسلامية عما كان يسمى بالاتحاد السوفييتي سابقاً وانضمامها إلى المنظمات والهيئات والجمعيات الدولية بهوية إسلامية مستقلة يُعدُّ رافداً قوياً لقضايا المسلمين في كلِّ المحافل الدولية، ولهذا فإنّ البينية الوسطية التي يمكن أن ينتظرها الإسرائيلي ليستمر بقضيته غير العادلة أصبحت أرضيتها على حالة من الاضمحلّال.

وإذا نظرنا إلى الهند العظيم بتعداده الكثير وثرواته وإمكاناته الهائلة نجد أنَّ عدد المسلمين فيه هم على الكثرة والتكاثر، هذا إلى جانب الثقافة المشتركة بين المسلمين والهنود غير المسلمين التي أسست لعاطفة مشتركة ومصالح مشتركة بين الهنود، فكل هذه المعطيات تنذر بعدم وجود أيّ مستقبل لدولة إسرائيل، وتبشر في الوقت ذاته بمستقبلٍ زاهرٍ مع المسلمين بمختلف ألوان طيفهم.

دول أمريكا الجنوبية من لم يكن من ساستها ذا جذور أفريقية أو عربية وإسلامية سيكون من الذين تربطهم مصالح حسنة مع العرب والمسلمين، وهكذا حال دول العالم التي كانت مصنَّفة على المستوى الثالث، فأين إذاً وسطيّ المستقبل الذي سيكون مستقلاً بالتمام ويُمكن للإسرائيليين أن يعتمدوه وسيطاً!

الوسطية بين الوسيلة والغاية

إن تحديد هوية الوسطية من حيث ماهيتها أمر يتطلب البحث، حيث لا يمكن اعتبارها مجرد وسيلة بها تتحقق عدد من الأهداف، أو هي غاية تنتهي عندها الجهود التي تسعى للإصلاح.

إن القول المجرَّد بكون الوسطية وسيلة أو غاية هو أمر غير دقيق، إذ من الصعب الفصل بين كون الوسطية وسيلة أو غاية، ذلك أن الوسطية غير المتحققة في أمَّة لابدَّ أن يكون تحققها غاية، وهذه الغاية لا تتحقق إلا بها، بمعنى حتى كون الوسطية غاية هو أمر لا يمكن الوصول إليه دون أن تتحقق الوسطية بكل حيثياتها في المجتمع.

إنَّ الوسطية غاية لكون غيابها يفضي إلى وجود الأطراف الذي يؤدي بدوره إلى احتمال تطرُّف هذه الأطراف عن بعضها لتكون خارج دائرة النحن، وهنا لا يمكن اعتبارها وسيلة فهي غير موجودة أصلا لتكون وسيلة لتحقيق أية غاية.

ويمكن أن نطرح تساؤلات تسهم في البحث عن ماهية الوسطية من حيث كونها غاية أم وسيلة منها:

متى تكون الوسطية غاية؟

كيف تكون الوسطية وسيلة ؟

تكون الوسطية غاية عندما يغيَّب حضورها على الصعيد الإنساني في مجتمع ما أو أكثر من مجتمع، حيث يجعل تغييب الوسطية أمر تحققها غاية لكلِ مؤمن بفكر الوسطية، أو لحقيقة أن الواقع يحتاج تحقق الوسطية للوصول إلى الهدف الأسمى وهو الإصلاح، هنا تكون الوسطية غاية يتحقق بتحققها عدد من الأهداف من أبرزها إحقاق الحق والإصلاح، والعدل والمساواة وغير ذلك مما تحمله الوسطية من قيم وفضائل تستهدف الإنسان.

وبخلاف ذلك ولو أن الوسطية لم تتحقق فكرا كاملا وسائدا فستبقى غاية، فإذا تحققت الوسطية وساد فكرها في التعاطي بين الأنا والآخر لاشكَّ أنها ستكون وسيلة لتحقيق أمور كثيرة نذكر منها:

1- لإثبات ماهية فكر الوسطية ومتعاطيها، وبيان أحقية هذا المنهج الفكري الاعتدالي بالهيمنة على المناهج الأخرى، وإلا كيف نقول بخيرية الوسطية؟ أو باعتدالها دون أن تكون وسيلتنا في ذلك الوسطية ذاتها!

2- لتستوعب الوسطية مناهج الحياة وتتعامل معها في ضوء مبدأ اختيار الأفضل لإحقاق الحق وإزهاق الباطل.

3- الوسطية وسيلة لمواجهة كل الأفكار المخلَّة بالثوابت وعلى وجهي العملة، مواجهة من يتطرَّف، ومواجهة من ينفلت، إنها وسيلة لإعادة الأمور إلى جادة الحق.

4- الوسطية وسيلة لعرض فكرها ومنهجها بموضوعية.

5- للحوار ومناقشة الأفكار، في دائرة التقبل وعدم الإكراه.

6- لموازنة الرؤى والآراء من أجل الوصول إلى وسط فكري واحد دائرته الوسطية هو فكر التبيُّن والتبيين دون إكراه أو استبداد.

7- لتطهير الأفكار من الانحرافات المتمثلة بأبرز مظاهرها المتمثلة بالتطرف وبالانفلات.

8- وهي وسيلة لجعل القيم الفاضلة سائدة والانحرافات ضامرة، وذلك من خلال الممارسة الفكرية والسلوكية والفعلية والعملية للقيم والفضائل، والابتعاد عن الانحرافات الأمر الذي يجعل السيادة في الحياة للقيم والفضائل.

9- الوسطية ليست للدين فقط بل هي لكلِّ مجالات الحياة لذلك هي وسيلة لحياة أفضل يسودها التوازن.

10- لتصحيح المعلومة الخاطئة بالمعلومة الصائبة، والحجة الداحضة بالحجة القاطعة.

ومن المهم القول أنَّ الوسطية وسيلة معبرة وذات مكانة عالية في الوسط الفكري وذلك لأن غايتها(الإصلاح) غاية نبيلة، وإذا كانت الغايات راقية ونبيلة كانت الوسائل بمستوى غاياتها، من هنا اكتسبت الوسطية مكانتها المتميزة في مضمار المقارنة والموازنة بين مناهج الحياة التي تَقدَّم بها علماء الفكر الإنساني على مر العصور، كل تلك الجهود لم تستطع أن تقدِّم منهجا يحتوى قيما فاضلة كما تحتويه الوسطية، ذلك أن الوسطية هي حلٌّ إلهي ولم تكن نتاجا بشريا، بينما كل المحاولات الأخرى هي من نتاج الإنسان الذي مهما سعى لأن يكون على الكمال والشمول في قراءة الأحداث والوقائع والمعطيات فإنه سيقع ولاشك في النقص المتعمد أو غير المتعمد، وهو ما يجعل كل تلك الجهود معرضة للتغير والتبديل، والرفض والقبول، وهذا ما تحقق في أرض الواقع حيث نسأل والجواب عندنا أين هي الشيوعية في الاتحاد السوفيتي؟؟؟

لكن واقعا متحققا ينأى بالوسطية نحو ما لا يجب أن تكون، وهو أن البعض ممن يدّعون الفكر الوسطي جعلوا الوسطية وسيلة لغايات غير نبيلة، وهو أمر يضعف الفكر الوسطي أكثر ما يقويه، ويجعله في ساحة الرفض أكثر من دائرة القبول.

وهذا الأمر يمكن مواجهته ببيان ما هو موجب وما هو سالب في التعاطي مع فكر الوسطية، فبعد أن بينّا ما هو موجب، نعرض لما هو سالب يجب الانتباه إليه، ومن ذلك:

1- ألا تكون وسيلة للتفريط بالثوابت لحساب المتغيرات، كما هو حاصل لدى البعض لاسيما من المسلمين للأسف، حيث نسمع هنا وهناك أصوات

تنادي بالتخلي عن بعض الثوابت تحت شعار الوسطية، كمثل الدعوة للتخلي عن الجهاد والفداء، أو محاولة تغيير قانون الميراث وغير ذلك تحت شعارات ودثارات متعددة يريد أصحابها الانضواء تحت الوسطية وهم أبعد ما يكون عن حقيقة مضامينها.

2- أن لا تكون الوسطية وسيلة للهروب من الأطراف، وفكِّرها المتطرِّف، بل يجب أن تكون الوسطية وسيلة محاورة تعيد الأطراف إلى دائرة النحن سويا.

3- الوسطية ليست وسيلة للانغلاق عن ما هو غير وسطي، والصواب أن تكون وسيلة انفتاح على كل اتجاهات الفكر ومناهجه، من أجل إحداث المقاربة والتقارب الذي يهيِّأ للوسطية أرضية تتمكن من خلالها من بيان قيمها وفضائها.

4- يجب أن لا تكون وسيلة خلط بين الحق والباطل، بل هي وسيلة فرز للحق عن الباطل، وذلك من خلال تبيان ما في الحق من قيم وفضائل، وما في الباطل من مفاسد على جميع الصعد.

مرتكزات الوسطية

تستند الوسطية على مرتكزات تمنحها بعدا معَّيناً وثباتاً في الطرح الذي سيكون من بعده الخيار المرتقب، وهذه المرتكزات:

1 . الفكر

تسير البشرية وفق أفكار تقودها إلى نهاية قد تكون وقتية أو نهائية، مما يطرح أسلوب التعلق أو الإتباع الذي يملي على التعدد المعرفي الانسلاخ وراء فكر يمكن أن يُطلق عليه الفكر التتويجي، ذلك أن التبعيّة الفكريّة تبحث في كثير من الأحيان عن مدارات واعية وغير واعية في سبيل أن تخلق لها أرضية متوازنة تحقّق من خلالها الوصول إلى ما تريد، فالقراءة

المتعددة للواقع من قِبل البعض تكون في بعض الأحيان متوغلة في مفردات الحياة المختلفة وقد تصل أحيانا إلى خلق معادلات واهية مبطّنة تنوء بالبحث عن أساليب متعدّدة تغري الطيف الظاهر، وتسلب من الباطن ما تريده؛ فتكون بذلك عملية التعويم التي تريدها مرافقة لكينونة السطح الواقع الذي لا يريد أن يتمزّق بقدر ما يريد أن يعيد إنتاج نفسه وفق ما يريد، ومثل هذا البحث يسير وفق مقتضيات آنية تحاول أن تجد حلاً لِمَا ترى أنّه أزمة حقيقية تعصف بالحياة التي من المفترض أن تكون دار سلام لا دار صراع أو خراب، وهنا بطبيعة الحال يظهر الجانب الجديد الباحث عن حلٍ يراه هو الحلّ حسب ما يعتقد فيدور في أفلاك عدة إلا أنّه سرعان ما يصطفّ مع أفكار تتناغم مع مَنْ يرى أن الحلّ سيكون من خلالها بغض النظر عن النتائج التي ستكون، وهنا يكون الملتقى الفكري الذي لا يتحقّق فيه الاندماج المراد بقدر ما يتحقّق فيه الابتعاد الكبير الذي لم يكن في الحسبان مما يخلق حالة جديدة من الانزواء تكون كفيلة بشطب أصولٍ ارتبطت بعقيدةٍ سليمةٍ لم تمرّ عليها من قبل قوافل المتطرِّفين أو المنحرفين أو الجاهليين.

إن الفكر المستشري لدى البعض لا بدَّ له من معالجة جادّة تحاول الوقوف عليه فترى فيه كلّ ما يمنحه تصحيحا وفق الأصول والمرجعيات التي أرادها الله سبحانه وتعالى أن تكون القاعدة التي تتأسس عليها كلّ المعايير الدنيويّة والأخرويّة، فالفكر المراد تصحيحه ينتمي إلى قراءات متعدّدة ذهبت مذهب البحث عن حلِ مما جعلت أي حلّ هو الحلّ بغضّ النظر إلى ما يمكن أن يُفرز في المستقبل من تداعيات، فالمهم لديها هو خلق حالة جديدة يكون على أساسها هو الواقع الموصل إلى ما تظنه حلّاً، هذه الاستمرارية لا يمكن لها أن تستمر فلا بد أن تزول، ذلك أن المختار لأمّة

الإسلام هو ما أراده الله سبحانه وتعالى، وهو المعيار الذي يكون الحكم والاحتكام عنده، ومن هذا المنطلق تبدأ آليات الفكر الإسلامي بالبحث وبالوقوف على كلِّ الفكر المطروح في الساحة بوصفه المركز لكلِّ الأحكام المتداولة بين أفراد وصفوا أنفسهم بصفات لم تكن لهم وفق أي صفة تمكِّنهم من إحراز أي صفة متلبسين بها، وهذا الأمر بطبيعة الحال يُطرح وفق أصول تفكيرية مرتبطة بالوسطيّة التي نحن بصددها، فالوسطيّة ترتكز على الفكر الذي له من الفضائل الخالدة والقيم الحميدة في الرسالة الكافة؛ لأن مهمتها هي الوصول إلى الحقيقة التي تكون هي المنال الأول والأخير لها.

ولأن الحقيقية هي كلمة الفصل التي تتهاوى عندها كل التأويلات والإحالات التي لا يمكن الركون إليها فمادام الذي أمامها فكر معتنق فلا بدَّ لها أن تفتت هذا الفكر أو أن تطرحه طرحاً يكون من خلاله الوصول إلى الحقيقة المنشودة، ولهذا فالعدل بالنسبة للوسطيّة حُكماً بين الناس لمن أراد أن يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون دون انحياز ولا مظالم، فالوسطيّة استيعابيّة تدرك أن الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم هو في حاجة لأن يمارس حقوقه بإرادة، ويؤدي واجباته برغبة، ويحمْل مسؤولياته دون كلل ولا ملل، ولهذا يجب أن يُعترف له بالمقدرة وأن يُقدَّر تقديراً عالياً فيما يفكِّر ويقول ويسلك ويفعل ويعمل ولا يُقلّل من شأنه الذي ارتضاه الله له في أحسن تقويم، وإن انحرف بأسباب تشرُّبه معلومات خاطئة فعلى الواعين تقويمه إلى ما يجب بالمعلومات الموجبة.

يدور الفكر المنحرف في مجالات متعددة فيستقر عند المكان الذي يرى فيه خروجا سافرا عن الأصول الموضوعة التي من شأنها أن تقود الناس نحو الهاوية، فحين تتحدد أركان التصحيح المعرفي المنتظمة ضمن

أصول واعية ومستقره يكون المعنى المستنبط من النصّ الواحد أو أكثر يحمل سمة القولية التي من شأنها أن تفرد الحلول المختلفة المنتظرة في أبواب عدة تُفتح تباعاً، فمكمن الحلّ لا يكون في توافقات منتظرة يُرى فيها النهاية التي يعمّ بعدها الصلاح المرتقب، ولهذا تتضح صور عدّة في واجهات تعلو وتنخفض ضمن إدراكات واعية تسير وفق منطلق واحد هو إيجاد حلّ جذري لكل السياقات التي تحاول أن تبعثر الفكر وتشتته وتدخله في متاهات عقدية لا تَمُت إليه بأيّ صلة، ولهذا ستكون سمة الاختيارية هي المرتكز لبلوغ حالة الوسطية المرادة، فهي تستفيق مرارا فتجد أنّ عملية التدافع المعرفي الحاصلة لم تمنحها سمة الثبات أو الاستقرار، ذلك أن كلّ مغايرة متعمِّدة ومختارة لا تجد لها استقراراً دائما وإن كان الحلّ شعارها.

2 . القول

يكون القول في الوسطيّة المحطّة الثانية بعد الفكر، إذ تتداعى النصوص المختلفة عند الوقوف عند أيّ قضيّة كانت من نتاج عقول آثرت البحث عن حلٍ بالطريقة التي وجدتها تتناسب معها، وهنا ينبري القول في الوسطيّة إلى استدعاء كل النصوص التي يكون فيها مكمن الحلّ، فالنصوص المتعدِّدة يتعدّد فيها المعنى المراد وبعبارة أدق يتعدّد الحكم المراد، فتنشأ بذلك حصيلة من القراءات كلها تدور في فلك النصوص مما يجعل الحلَّ أقرب منالاً ضمن دائرة الاستنباط الصحيحة، فيكون بذلك الحلّ المرتقب، وهذا ليس من جانب الوصول إلى الحلّ المنتظر ضمن دائرة البحث عنه، بل من جانب الوقوف على:

. إن الارتكاز على الفكر الاستيعابي حقاً وعدلاً هو مفتاح الحلّ؛ لأنَّ الناس جميعاً هم ينتمون إلى أفكار متعددة أياً كانت، وهذا الانتماء بطبيعته يستوجب الاعتناق، وهنا تبدأ المهمة واضحة فمهمة الوسطيّة هي تحقيق

الحقِ والعدلِ، وهذا التحقّق لا يكون إلا بتحقّق الأصول الفكريّة التي تستند على الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة المرضية للناس، فتحدث الإزاحة التي يكون بها تحقق الوسطيّة، ويزول الفكر المتهرئ الذي يُريد أن يقود الأمّة نحو نهاية فاجعة لم تكن بالحسبان، ويبقى الفكر الوسطيّ الذي به ترتكز القواعد الجديدة، فهي ليست جديدة من حيث جديدها، بل هي جديدة من حيث انطلاقها؛ لأنها استندت على دحض فكر طارئ فمنحت نفسها أسساً جديدةً تظهر من خلالها أكثر قوة ومنعة، فالفكر كما نرى يمرُّ بأزمات متعددة طيلة مرور الزمن فيأخذ من هذا وذاك أموراً جديدة، إذ يمر بأفكار وطروحات جديدة هي في حقيقتها هشّة إلا أنَّ بعض الناس يلتفّون حولها ويجعلون لها هالة من التعظيم مما تمنحها بعداً متخيلاً يظن أنّ الحلَّ يكمن فيها، وهذا لا يستمر لأن الله سبحانه وتعالى وضع للناس منهجا في كلِّ حياتهم يقودهم نحو ما يريده سبحانه، وإرادة الله لا تكون إلا خيرا لخلقه، ولذلك فالفكر الذي لم يُستمدّ من قول الله وإن ساد؛ فعمره قصير.

. معرفة الخطأ الاستنباطي الذي ذهب إليه من قال، فيُرى الاحتكام المعرفي الحقيقي الذي يكون على أساسه الحكم الصحيح للأمّة، فالحلّ لا يكون حلاً عبثياً مرتمياً ضمن استنطاقات مراده تقف موقف العداء ضمن نظرتها المستقبلية لكلِّ من يحاول أن يزيح منها ما يزيح أو يقول عنها ما يقول، ولهذا كانت الأحكام غريبة عن النسق القيمي الإسلامي في كلِّ تاريخه مما جعلها غريبة في الميلاد وفي النشأة وفي الانتشار، أمّا نهايتها فلا تكون غريبة لأنّها نهاية معروفة لكلّ من اختط لنفسه طريقاً لم يسلكه غيره.

. طرح الحقيقة التي من شانها أن تُعيد المنحرفين عن الأصول إلى ما يجب أن يكونوا عليه، فضلاً عن بيان حقيقية الدين لغير المسلمين، فقد

تغيّرت صورة الإسلام بغير الصورة التي كان عليها في العصور المتقدِّمة، وأُسبغ عليه صفات طرحتها أقوال الآخرين ضمن قراءات خاصة بهم أو حتى يمكن القول بجاهلية أملت عليهم أن يجدوا الحلَّ في تأويلات وإحالات لا يمكن الركون إليها بأي حال من الأحوال.

إن التنافر الحاصل بين الطرفين يوحي إلى وجود تباعد كبير بينهما في كيفيّة الوصول إلى الحلّ المُرضي، فكل الأصول المعرفية يمكن الوقوف عليها ليس من باب أخذ الحكم منها ولكن من باب الاستئناس، هذا الوقوف يطرح أن المغايرة متحققة دون أي شك في الوصول إلى ما هو مراد، فالحلّ وان كان سيد القول إلا أن الوصول إليه لا يكون إلا وفق أصول صحيحة ارتضاها الله تعالى.

3 . السلوك

ينبري السلوك كأحد مرتكزات الوسطيّة وذلك من خلال تحقّق ما يمكن تحقّقه من أفكار، هذه البداية قد تكون متلوِّنة بعض الشيء بمسحات استعراضيّة من التعبير عن فكرة شغلت مكانة واضحة في المنجز الديني لا سيما بعد هبوب عواصف متنوعة أرادت أن تجعل الأمّة بأسرها في صف المواجهة لها، فهي لا تمتلك وعياً حقيقياً بالتراث الفكري على مستوى النقل أو العقل، فالعبثية غير المبررة مزجت بين تداعيات كثيرة ربطتها بقراءات متكررة تنحو منحاً يتلاءم مع ما يمكن أن يتحقّق وفق النظرة الإصلاحية التي تلوكها الألسن بشكل يثير السخرية بجرأة أصبحت هوية للعصر.

طرحت الوسطية سلوكاً ينم عن جذورها التي ارتضاها الله تعالى لها، فكانت البداية بالإصغاء لكلِّ التنظيرات التي ملأت الدنيا وشغلتها، فواقع الحال فرض قالباً جديداً من الطرح يعكس الواقع الذي تعددت فيه الأفكار

والآراء والتأويلات والإحالات، فأصبح واقعاً حساساً خاضعاً لطبيعة جديدة لا يتحمَّل الشدّ أو الجذب ضمن آليات القوة، فالقوة ليست حلاً وإن استعملت؛ فستكون وبالاً على كلِ الأطراف، ولهذا كان الفهم والحوار والتفاهم والتفّهُم بموضوعية هي العتبة التي ارتضتها الوسطيّة، هذا السلوك هو بداية الحلّ وإن كان الحلُّ هو مطلب الجميع رغم اختلاف أساليبهم، فالأفكار المتعددة في الساحة الواقعية إن جاز لنا تسميتها دخلت مجال التنظير المرجعي مما يخلق حالة من الانتشار الواعي لأجيال لا تنتمي له فقط مجرد الانتماء بل تعتنقه وتسهم إسهاما فاعلاً في تحقيقه مهما كان الثمّن، ولهذا كان الفهم والحوار هو الآلية الأولى التي يترتّب بعدها آليات أخرى تُبنى عليها، فالطاولة المستديرة التي يستوي الجلوس عليها بين الأنا والآخر هي بداية الخلاص الفكري الذي يُمكن أن يتحقّق، فالآخر أيا كان سيبدأ بإعادة إنتاج ما أنتجه وفق الأطروحات الجديدة التي ستطرح عليه؛ فهي ليست طروحات طارئة أو سطحيّة أو وقتيّة، بل هي طروحات مشتملة على حلٍ يكون هو النهاية التي من خلالها تنفرج الأمور ويكون الاصطفاف بعدها واحداً.

والحوار يصبح بداية ملبيّة لطموحات مكنونة في النفس الإنسانية، وإن كان الآخر قد سلك مسلكاً في كثير من الأحيان يجعله خارج الدائرة الإنسانية، ولهذا لا يكون للإقصاء مكاناً؛ إنما يكون الإقصاء لأفكار الغلو والتطرُّف والإقصاء والعناد في الرأي بغير حقٍ، وبهذا تكون البداية ضمن آليات الوصول إلى حلٍ، حلٌّ يرتبط بكينونة واضحة تصلح أن تكون مرجعاً للكلِ دون استثناء، ذلك أن التداعيات المعاصرة باختلافها خلقت حالة من التنفير في الوصول إلى حلِ، ورسمت للحياة ضبابية مزمنة تعيق أيّ استدراك يكون من بعده ثمّرة الخلاص المنشود، ولهذا تكاثرت الأقلام التي

تبحث عن خلاص يكون من ورائه إظهار لكلِّ استبطان من ورائه بيان للواقع الحاضر، فالسياقات المتعدِّدة التي ظهرت لم تفضي إلى جلب إدراكات أو حتى استدراكات يكون من ورائها تحديث الأفكار أو غربلتها من أجل الوقوف على أرض مندوحة تتسع للجميع وتمنحهم سمة الترابط الكلي، فالعزلة لا تثمّر عن شيء مهما كانت درجة صحتها، بل على العكس فهي تخلق جماعات تبتعد شيء فشيئاً وتختطُّ لنفسها منهجاً لا يكون له أيّ بديل، وهنا تكمن المعضلة التي تتعاظم دون تصحيحها، ولهذا لا بدَّ أن تكون هناك مبادرة في الوصول إليهم وفتح قنوات اتصال معهم ومنحهم الطمأنينة والأمن والوقوف على طريقة تفكيرهم دون أن يكون هذا الوقوف غاية في ذاته بل الغاية هي الإصلاح، هذا السلوك هو سلوك اختياري ينبع من الأصول الحقيقة التي يجب أن تتحقّق، فالإسلام انتشر في كثير من بقاع العالم بأسلوب أبنائه الحقيقيين الذين تمثّلوا به لا بأبنائه المزيفين الذين سلكوا مسلكاً لا يرضاه الله تعالى ولا ورسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

ولأنّ السلوك يرتبط بالاختياريّة؛ فهو لا يسير باتجاه واحد له بداية واحدة، بل هو يرتبط بأمرين كل واحد منهما قد يختلف مع الآخر اختلافا جذريا، وهنا يكون مكمن الوسطية في الاختيار، اختيار ليس اعتباطياً بل اختيار مبني على أسس صحيحة يكون من ورائها تحقيق المراد، فالوسطيّة تبحث عن إصلاح وهذا الإصلاح لا يكون ضمن انساق واحدة مترابطة تفضي كل واحدة إلى الأخرى ويتمحور حولها الحلّ؛ فالحل لا يكون إلا بالسلوك الاختياري إرادة حرة مما يجعل الأخلاق تتهذّب وبها تقوّم سلوكيات الآخرين من أجل الإصلاح والحلّ. وعندما يسود بين الناس السلوك القدوة

الحسنة، الناس يتَّعِظون ويقتدون بسلوكيات من هم مقدّرين خُلقاً وعلماً ومعرفةً واستيعاباً وتفهّماً ومهارةً وخبرةً وتجربةً ودرايةً ومودةً.

4 . الفعل

الفعل هو المترتِّب على الوعي بالحقّ مع الإقرار به والعزم على تنفيذه بإرادة مع تخطيطٍ مستقبليٍ من أجل التصحيح والتقييم والتقويم واتخاذ قرارات واعية لإنجاز أهداف محددة مع وافر الوضوح، ولذا فهذا الفعل ينبري أمام الوسطيّة بوصفها معياريّة ذات أصول مرجعيّة تُرسّخ الحقّ وتعدل باستيعاب ودون ميل.

ويكون الفعل المتوقع من الوسطيّة هو فعل يتحقّق فيه استدراكات واعية وإحاطات واعية بكل القضايا التي يعالجها، هذا الفعل ينعقد به الاقتراب من سياسات عديدة تكون حاضرة في الوسط المشغول بحيثيات كثيرة تتبع السُبل المتنوعة التي تكون كفيلة بالوصول إلى الإصلاح، ونحن إذ نذهب بالقول بالإصلاح لأنَّ الوسطيّة في حقيقتها قائمة على اختيارات سابقة وتصميم على الاختيار وإقداماً على التنفيذ الإرادي مع وافر الرغبة، وهذه الاختيارات هي أفعال تبدو مركونة إلا أن حقيقتها هي أفكار متعددة مأخوذة من نصوص ثابتة ومأخوذة من تأويلات أرادت أن تطرح بعداً جديداً لهذه النصوص مع أن هذه التأويلات تحاول أن تصبّ في بوتقة واحدة تعتقد أنّ ما تريد أن تصل إليه أو أن تحققه سيكون حاضراً وقابلا للقبول، وهنا يكون القبول هو العقبة بالنسبة إليها، والذي يسمى فيزياويا برد الفعل، ورد الفعل الذي يظهر في الوقت المناسب هو في حقيقته وقف زحف الفعل سواء أكان متراكما أم لا، فالمهم هو التوقُّف الذي سيكون من بعده استقطاب ثانٍ لحركة الانزياح التي يُمثِّلها الفعل، ذلك أن الانزياح آلية ارتبطت بالفعل وبها يكون تحقيق الاعتقاد المستهدف تحقيقه.

إنَّ نقطة الالتقاء التي ستحصل هي نقطة البداية الأولى للتعرّف على كيفية معالجة ما هو حاصل، فبها يكون فعل الوسطيّة حاضراً ضمن أسلوب يحاول أن يلملم ما هو مطروح ويمنحه سمة وقتية دون أيّ سمة أخرى؛ لأن بداية الحكم عليه بصورة نهائية سيكون خرقاً لسنن الإصلاح وبلوغ الحلّ التي تحملها الوسطيّة؛ فهي لا تحكم على أي شيئا مباشرة، مما يعطيها السمة التي تحملها وهذا الذي يجعل في طريقة المعالجة الخلاص النهائي والحلّ الأمثل، وهنا تبطل المقولة التي تمنح الفعل رد فعل يساويه بالمقدار ويعاكسه بالاتجاه، ذلك لأن القضية هنا هي في حقيقتها قضية إصلاحية لا تخضع لمقياس محدّد يكون على أساسه الحلّ؛ فالوسطية وإن طرقت كلّ الأبواب باحثة عن حلٍّ إلا أنّ طرقها قائمة على إيجاد أيّ مبعث جديد يكون من خلاله الحلّ المراد، فالفعل الوسطي لا يخضع لمعايير قابعة في أزقة ضيقة لا يمكن جعلها امتداداً لطرق واسعة كانت البداية فيها، فالترابط الحاصل في هذه القضية هو ترابط دائمي؛ لأنَّ النسق القيمي الإنساني متواصل ويطرح مغايرات كثيرة، هذه المغايرات يوظّفها في كثير من الأحيان لما يريده، وهذا هو حال الحياة بكل ما فيها؛ فهي لا تخلو من تأزّمات تتحقق في أزمان مختلفة، وتطرح كثيراً من الأفكار التي يتبنّاها من يتبنّاه إلا أنّها في نهاية الأمر لا بدّ أن تخضع لحلٍّ قائم على فعل الوسطيّة الذي يحاول دائما أن يبصر الناس جميعا بالحقيقة التي ارتضاها الله وتعالى للناس كافة، وهي حقيقة البحث عن خيار إصلاحي يكون من خلاله تفتيت كلّ الأفكار البالية والهشة التي أرادت أن تعصف بالناس وتقودهم نحو نهاية لم يردها الله لعباده.

5 . العمل

يكون العمل هو المرتكز الأخير من مرتكزات الوسطية؛ فبه تتحقّق الأفعال الصادرة التي تبلورت وفق أساليب عدّة نهجتها الوسطيّة، فهي لم تكتف بالتنظير الذي أوجدته بوصفه الحلّ لكلِّ القضايا التي تصدر، بل تسعى جاهدة إلى تحقّق الأفعال التي أصدرتها، ذلك أن عملية الإصلاح التي تنشدها لا يمكن لها أن تتحقّق إلا بعد أن يكون الفعل قد دخل حيز التنفيذ، فبالعمل تكتمل دائرة البحث والإيجاد ضمن تشكيلات تنويرية أرادت أن تطرح كلّ المغايرات أمام كلّ الأنساق المعرفيّة التي تعمل على إيجاد كينونة منطقيّة تُخرج كل القضايا إلى حيّز الوجود بشكل جديد يُرى من خلالها التصحيح الحاصل، ذلك أنّ كلّ ما هو مطروح شكّل حالة من النكوص ضمن ارتدادات مقصودة ليست على الجانب النظري فحسب، بل حتى على الجانب التطبيقي، مما خلق حالة من التقوقع الفكري لا همَّ لها إلا أن تقول إنَّ الحلّ يكمن عندها دون غيرها، هذا الطرح يسير في متاهة واضحة المعالم، فحفّز عمل الوسطية وأدخله في حالة استنفار قصوى كي تتحقّق المعرفة الكلية الشمولية التي يجب أن تتبنّاها، وهذا يعطي للمتنورين ضمن معياريّة الوسطيّة حزمة من الانتقالات المتنوعة يكون على أساسها استبطان حالة التراخي الحاصلة في البدايات الأولى للخروج الذي حصل.

سعت الوسطية إلى خلق ركائز مهمة ليست على مستوى البناء الفعلي لها فقط، بل على مستوى خلق أنموذج للحلّ للقضايا التي يمكن أن تظهر فجأة وبدون سابق إنذار، ولهذا يكون تفاعلها مواكباً لكلِّ طارئ يمكن أن يظهر، وهذا بحدِّ ذاته انتصار لها على كلِّ المتغيرات والعقبات التي تظهر أمامها.

تعمل الوسطية على فتح قنوات اتصال واعية ومدركة تتمركز فيها الإنسانية في كل صورها، وهذا شيء واقع ضمن دائرة المتوقع بوصف القضايا المطروحة تتعلق بفكر إنساني، يرفض أو يقبل حسب المرجعيّة التي ينتمي إليها، مما يبني له أبعاداً مختلفة يحاول أن ينتمي إليها أو أن يجرَّ نفسه منها فتحدث بذلك معادلة بينيّة قد تكون متفاوتة في بعض الأحيان ضمن الرؤى المطروحة إلا أنّها تنحني في الأخير إلى خيار واحد ألا وهو خيار الوسطيَّة، ونحن لا نركن إلى هذا القول من باب أنّه الحلّ المراد، بل من باب الجبلّة التي خلق عليها الإنسان، فواقع الحال يثير تساؤلات عدة تكون إجابتها حاضرة ضمن سمة الإنسانية التي أسبغت على الأبعاد المتراكمة صيرورة الانقياد إلى ما ترسمه الوسطيّة بوصفها خيار إصلاحي، ولعلَّ البحث عن أنساق جديدة قاد البعض إلى التشبُّث بأفكار خارج دائرة الفكر المُحقّ للحق والزاهق للباطل مما اكسبهم حالة معرفيّة ساذجة لا يمكن أن تكون أداة إصلاح فعلية وإن بدّلت أثوابها دائماً.

معطيات الوسطيّة

إنّ الوسطيّة ليست طريقاً للاختيار بين عدّة طرق، وبالتالي فمعطياتها متوافقة مع مفهومها؛ فهي طريق الوقوف مع الحقّ الذي نجتهد باستمرار من أجل الوصول إليه في كلّ الأمور، وهي ليس الوقوف في نقطة وسط بين الحقّ والباطل، أو بين باطل وباطل آخر، فلها من المعطيات الموضوعية من حقٍ وعدلٍ وتطلّع وتواصل واندماج وما إلى ذلك من مناهل الخير. ولذا دُعي الإنسان إلى استعمال هذا المعياريّة بسبب ولغاية.

فالسبب هو وجود الظلم والجور والباطل والعدوان وما إلى ذلك من معطيات الشرّ، والغاية هي الوصول بالإنسان إلى الترقّي بالفضائل وما تحمل الوسطيّة من معطيات بالنسبيّة التي يستطيع كلّ فرد أن يصل إليها، وعلى هذا فإنّ النسبيّة لا تتمثل في الوسطيّة كما يذهب البعض، لأن الوسطيّة هي فضيلة من الفضائل ومع أنَّ الفضائل مطلقة، إلا أنّ تمثّلها لا يخرج عن دائرة النسبيّة، وهذه النسبيّة ناتجة عن الأطراف المتغيّرة التي تنتمي إلى الوسطيّة الثابتة، كون الأفراد والمجتمعات والتجمعات هي التي تتصف بالوسطيّة؛ فيكون انتسابها نسبيّاً لما تحمل الوسطيّة من معطيات يكون الميل إليها واجباً أخلاقياً على المستويين العقدي والإنساني، وهذا الميل للمعطيات ليس تحيزاً مسبقاً أو اعتباطياً، بل ميل لمعطيات ونتائج صحيحة سليمة نتجت عن تطبيق منهج وسلوك يمازج بين النقل والعقل في استقراء النصوص وفهم الدلالات التي دعا إليها الخالق عزّ وجلّ؛ فبيّنها ووضّحها في محكم الآيات وبراهين الدلائل على مستوى الحقائق اليقينيّة والمعطيات الكونية التي أمر بها الخالق عزّ وجلّ وإن كانت في مجال العقيدة، لكنها دعوة إلى الوسطيّة التي جاء بها الإسلام لمن أراد أن يكون من المسلمين مصداقاً لقوله تعالى: {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[82].

فابتغاء دين الإسلام عين الوسطيّة، وهنا يتداخل الموضوع بالمحمول بشكل لا ينفكّ عنه وإن كان الموضوع يحمل الوسطيّة التي انبثقت من الإسلام المبتغى، إلا أن ابتغاء الإسلام يكون من خلال الوسطيّة التي يحملها، والذي يبتغي الإسلام فقد أصبح مطلبه جميع معطيات الوسطيّة.

---

[82] – آل عمران 85

وعليه لا يستغرب القارئ قولنا أنّ الوسطيّة معطية لها معطيات وجزئية تحمل كليّات، فالحقّ المطلق قضيّة كليّة والعدل المطلق قضيّة كليّة والخير المطلق قضيّة كليّة، ولمّا كانت هذه القضايا ضمن دائرة الوسطيّة؛ فهي من جزئياتها التي جعلتها قضية كبرى تحمل هذه المعطيات، ولمّا كانت الوسطيّة من معطيات الإسلام أصبحت جزئية محمولة في موضوعه، ونقف على هذا التداخل بين الموضوع والمحمول من الوسطيّة ومعطياتها في كثير من الآيات من الذكر الحكيم: {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}[83]. ولمّا كانت الوسطيّة هي العدل؛ فالأمر بالعدل هو أمر بالوسطيّة؛ فكان من الوسطيّة الوفاء وأداء الأمانة، والعدل دعوة إلى التمسّك بالفضائل والخير مطلقاً دون الإشارة إلى اللون أو الجنس أو العرق؛ فكانت بذلك دعوة للمتلقي، ومن بعد ذلك تكون دعوة هذا المتلقي لعموم النوع الإنساني دون تمييز، ولذا تبقى الوسطيّة فضيلة سامية تحمل هذه المعطيات التي لا يمكن إفراغها من محتواها الحقيقي وإن فُهم مفهومها من قِبل البعض على غير حقيقته.

الوسطيّة مطلب الأنا والآخر

لقد درج كثير من الباحثين والمثقفين على استخدام لفظ (الوسطيّة الحقيقية) الذي يُفهم من معناه أنّ هناك وسطيات أخرى غير حقيقية، وهو حاصل بالفعل لتعدّد المفاهيم الذي أدّى إلى تناقض المعطيات! لكن الوصول إلى الوسطيّة من الأنا والآخر ومعرفة جوهرها يكون من خلال اتباع ما تحمل من معطيات وتَمَثُّلها قدر المستطاع في الدعوة والمنهج والسلوك قولاً وفعلاً وعملاً، في جميع المستويات والمراحل اللاحقة للمنتج اليقيني للتمثّل الذي

[83] – النساء 58

يفضي إلى التسليم النهائي بمنظومة الفضائل والقيم المنبثقة عن معطيات الوسطيّة. هذا ينعكس بدوره سلوكاً معتدلاً ومتوازناً يحقّ الحقّ ويضع الأمور في نصابها وإطارها المقتضي والمناسب لها في موضعه من الحقّ؛ فلا يمكن أن تكون معطيات الوسطيّة وسطاً بين الشدّة واللين وبين الجيد والرديء وبين الانفتاح والانغلاق، وإنما بنسبيّة الاقتراب والابتعاد عن الوسطيّة كونها جوهراً وحقيقة تمثل فضيلة عظمى للأنا والآخر.

لقد ارتبطت الوسطيّة في جوهرها وماهيتها ومعطياتها بأنّها وظيفة وأداة ومنهج، وبعبارة أخرى مقدمات منضبطة ومتوازنة تفضي مراعاتها إلى معطيات تمثّل حقائق ثابتة، وثبوتها يدلّ على سلامتها وصوابها، لأنّها لم تجنح للإقصاء المبرمج أو الرفض المسبق لأيّ أحدٍ، وإنّما هي دعوة إلى الفضائل من خلال معطياتها، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}[84].

الوسطيّة من حيث الجوهر هي مطلب للأنا والآخر على حدٍّ سواء، لا تخرج عن العقيدة بما يقبله العقل ويرتضيه المنطق ويطمئن النفس انطلاقاً من التوافق في الاعتدال والتوازن بأدواتها في طرح المنهج وصولاً إلى السلوك في العمل، قال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}[85].

إذن ليس هناك من موضوع للوسطيّة بين الحق والباطل، أو بين العدل والظلم، ولا يمكن أن تكون الوسطيّة وسطاً بين الأنا والآخر في صراع

---

84 – المائدة 8.

85 – النحل 125.

الحقّ والباطل، والعدل والظلم، أو بين الخير والشرّ، أو بين الأنا والآخر عامة، إذ كيف تكون وسطاً بين الحقِ والباطل، أو بين الخير والشر، مع وضوح دلالة كلٍّ منهما على أنّه في الاتجاه المعاكس للآخر والمناقض له، ولكنّ الواقع يُقرّ بنسبيّة الحقّ والعدل ونسبيّة الظلم والباطل لدى الأنا والآخر وهو أمر منطقي يقبله العقل، بينما الوسطيّة تأبى أن تكون على مسافة واحدة من الأنا والآخر، أو على مسافة واحدة من جميع الأطراف، لأنّ ذلك يخرجها من وسطيّتها إلى توسّطها، وبون شاسع بين الوسطيّة والتوسط، ولذا وجب على الأنا والآخر اتباع الوسطيّة، بل ينبغي أن تكون مطلباً لهما.

فهم الوسطيّة

تكمن إشكالية فهم الوسطيّة في إشكالية فهم معطياتها، فقد يشكّل تحديد المعطيات بإشكالية تحديد المفهوم، لأنّ البعض فهم الوسطيّة من خلال تحديد طرفي القضيّة حتى يتمكّن من تحديد الوسط فيها!

ولذا بحث عن معرفة منشأ الوسطيّة وكيف تكون وسطاً؟

ومتى تكون وسطاً؟

فهل هي وسطيّة زمنية لأنّ طرفيها مختلفان زماناً؟

أم وسطيّة مكانية لتباعد الأنا والآخر عن مكان الوسطيّة؟

أم أنها وسطيّة موضوعية كونها تسلك دوراً وظيفياً بين طرفين أو اعتقادين أو فكرتين؟

إن الوسطيّة ليست نقطة وسط بين طرفين أو حدّين ضمن الزمان أو المكان مهما اختلفت مناشئهما وتنافرت ألفاظهما وتباعدت معانيهما وتناقضت أهدافهما، وإنما هي فضيلة معطياتها من الحقّ والعدل، وما سواها خارج الحقّ والعدل، فمن اقترب منها كان ضمن هذه الدائرة

بالنسبيّة، وهذا يعني أنّ الوسطيّة لا تتحقق في الفرد أو الجماعة، وإنّما الواجب على الأفراد والجماعات والتجمعات أن يكونوا على الوسطيّة في القول والفعل والعمل والسلوك ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، لأن الوسطيّة لو تحقّقت في فرد أو جماعة لكانت الدعوة إلى اتباع هذا الفرد أو تلك الجماعة وترك المعطيات، وهذا ما يقع فيه كثير من المفكرين والباحثين فيُضرَب المثل بالفرع ويُترك الأصل، ومعلوم أنّ الفرع جزء من الأصل، فإذا كان ذلك كذلك فقد ظهر الصراع بين الأنا والآخر الذي لا تحتمله الوسطيّة ولا هو من مفرداتها.

إنّ الوسطيّة فضيلة من الفضائل التي لا يمكن للإنسان أن يكون هو الوسطيّة، وإنّما يتمثل تلك الفضيلة بما يحمل من فكر يخطّه منهجاً وسلوكاً في القول والعمل، ولذا يكون الوصول إليها غاية من أجل تحقيق غايات تسهم في الإصلاح الذي يؤدّي إلى الحلّ من خلال المعطيات، ولمّا كانت الوسطيّة فضيلة، وكلّ فضيلة تسهم في الإصلاح بالترقّي إلى الخير تسامياً، لا بدّ أنّها تحمل الحلّ، والحلّ الذي تحمله الوسطيّة قائم على معطياتها من الحقّ والعدل والاستيعاب والإرادة التي بها تمارس الحقوق وتؤدى الواجبات وتُحمل المسؤوليات، ليكون الخروج من دوائر الظلم والباطل ويكون الدخول إلى دائرة الإصلاح التي تمثّل المختبر الذي ينقّي الأفراد والجماعات من الشوائب والسلبيات في عملية تهيّؤ استعداداً لدخول دائرة الوسطيّة.

إنّ مهمة الوسطيّة مهمة تحويلية للأمّة وليست قضية خلقية، ذلك أن الأمّة لم تكن مخلوقة وسطاً، وإنّما مجعولة وسطاً {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا

لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ}[86].

إن سياق الآية ومفهومها ومعناها يدلّ على الجعل بعد الخلق باستحقاق إلهي مؤطرٌ بوظيفة الوسطيّة التي تعمل الأمة على تحقيقها لتجعل الآخرين ضمن دائرة هذه الوسطيّة بمعطياتها؛ فالوسطيّة جاءت علّة للشهادة معلولها الأمّة، واستحقاق عملي للقيام بالدور المنوط بها لتوضيح الوسطيّة وإبلاغها للبشرية جمعاء، ثمّ بيّنت الآية أنّ الوسطيّة وإن كانت رمزية في شكلها إلا أنّها عميقة في مضمونها وبعيدة في دلالتها ومحدّدة في مفهومها، بدليل الجعل الثاني في الآية نفسها الذي يعطي جزءً من مفهوم الوسطيّة التي يجب اتباعها بجعله على قبلة جديدة، بعد أن كان مجعولاً على قبلة بيت المقدس.

فالوسطيّة دعت إلى التحوّل من قبلة إلى أخرى بحكم الجعل الذي جعلت عليه الأمّة، وهذا دليل على أن الوسطيّة فضيلة يجب التمسّك بها ومنهج وجب اتباعه وسلوك وجب العمل به وهذا معنى قولنا أنّها غاية تفضي إلى غايات.

ولمّا كانت الوسطيّة فضيلة؛ فالمطلوب من الإنسان أن يعمل بها، وعليه قد يستغرب المتتبع إذا قلنا أنّ المسلمين ليسوا وسَطيّين ولا غير المسلمين وسَطيّون، وإنّما الإسلام هو الوسط وأمّة الإسلام أمّةً وسطاً، ولذا فالمسلمون ما لم يرقوا إلى الإسلام لا يمكن أن يكونوا أمّةً وسطاً، لأنّ الوسطيّة لا تتجسّد في ثقافة أو حضارة أو كتاب، بل هي فضيلة معيارية يتجسّد فيها الحقّ والعدل والإنصاف الذي لا يكره أحداً على ما لا يرغب إلا بما يوافق الحقّ والعدل وما تحمله هذه المعطيات.

---

[86] البقرة 143.

وهذا يبيّن بوضوح أنّ معطيات الوسطيّة ظاهرة بمعناها البسيط والقريب والمباشر، إلّا أنّها في غاية التعقيد عندما نتفحص صدق موافقتها للواقع التطبيقي في السلوك، لأنّنا بحاجة حينئذٍ إلى التمعّن في شروطها وضوابطها ولوازمها، والصبر على الشروط والضوابط واللوازم في التطبيق.

إنَّ من أبرز أسباب التداخل والاضطراب في تحديد مفهوم الوسطيّة هو التداخل في معطياتها أو تحميلها ما لا تحتمل من معطيات، ثمّ تسخير هذه المعطيات لوجهة غير وجهتها، ومن هنا تعدّدت أنواع الوسطيّة وكثرت تشعّباتها على المستوى الفكري والثقافي، وكذلك على المستوى الاجتماعي، سلوكاً وقيماً وقناعات مع إهمال الفضيلة لدى البعض عندما يجعل هذا البعض الظرفيّة البينيّة أنها وسطاً، لذلك تعدّدت مفاهيم الوسطيّة وكثرت معطياتها مما جعلها أداة للمعرفة ومنهجاً للبحث ونظرية للقياس وفرضية للاستنتاج وهي ليست كذلك، إنّما الوسطيّة من خلال معطياتها تدلّ على أنّها سماحة في التعامل، وعدل في الطرح، وموضوعية في البحث، ورفق ومداراة في الأخلاق والتعامل مع الآخرين، ويقينَ راسخ بالتعايش والتوافق بين الرأي والرأي الآخر، يقوم على أساس الحقّ والعدل والإنصاف.

ومع كلّ هذه التجاذبات قد يتساءل البعض، هل يمكن للإنسان أن يدرك موقع معطيات الوسطيّة من حيث الزمان والمكان ضمن هذه الآراء المختلفة والأهواء المتناقضة؟

إن معطيات الوسطيّة لا تقيم في مكان ولا تؤطّر في زمان، ولكن يمكن أن تكون في كلّ زمان ومكان كونها فضيلة نسعى إليها في القول والعمل والفعل والسلوك والمواقف، لأنّ ممارسة معطيات الوسطيّة من قبل الأفراد تربطها بزمان ومكان الممارسة والتطبيق، مع إدراك مدى أهمية الوسطيّة والتمسّك بمعطياتها كضرورة وظيفيّة ومنهج وأداة تحليل وطريقة عيش

وسلوك، ولعل أبرز ما يبيّن أهميّة معطيات الوسطيّة، كونها مفهوم وظيفي أساسي في التفكير والسلوك الإنساني لما تحمل من كليات الخير والجمال، بحيث تجعل الأبواب مشرّعة لغيرها من المفاهيم التي من خلالها تتميّز الوسطيّة عن غيرها من التداخل مع مفاهيم أخرى مختلفة عنها في المعطيات، وبالتالي فإنّ إحراز الوسطيّة والوقوف على معطياتها والتعلق بها فكراً وسلوكاً، هو الطريق المفضي للتسامي الإنساني والرقي البشري الذي يؤكّد على أهمية الوسطيّة وضرورتها في حياة الفرد والأمّة ووجدانها وإنسانيتها.

إنّ معطيات الوسطيّة تمثّل مطلباً للعقل السليم والمنطق السديد، ولذا فهي تشكّل معياراً للخير والصواب، وهذا يعني أن سلوك معطيات الوسطيّة يكون من لوازمها في تحقيق أفضلية السلوك عن غيره من المناهج والسلوكيات. فما كان مورده يجنح إلى التناقص والتناقض والتنافر، كان مدعاة للتباعد عن الوسطيّة وفضائل معطياتها، وما كان مورده للتكامل والتآلف والتطابق، يصبح سبباً للتمسّك بفضائل المعطيات.

إنّ طبيعة الوسطيّة وماهيتها ومفهومها ومضمونها وما تحتويه من معطيات تنبع منها الفضيلة، لا تكون بحال من الأحوال واقعة بين طرفين أو حدّين، أو على مسافة واحدة من جميع الأطراف، ولكنّها مطلب لجميع الأطراف عندما يحتكمون إلى العقل والمنطق، ومن هنا لا نقول أنّ الوسطيّة عصيّة على التصنيف والتوصيف! وإنّما توصف بالحقّ والعدل وتصنّف بالخير والجمال، ولمّا كان هذا وصفها وصنفها فهي إحدى الكليات الكبرى التي تحمل جزئيات كثيرة في مجالها الإصلاحي المفضي إلى الخير والجمال، وهنا لا يمكن أن تكون نقطة التقاء وتوافق بين الخير والشر أو بين الحقّ و الباطل أو بين العدل والظلم، وإنّما هي الحدّ

الفيصل بين الفضيلة والرذيلة، وإن كان الانتماء إليها بدرجات نسبيّة، بحيث من يخرج من دائرتها فقد خرج عن الفضيلة إلى غيرها من المسميات.

معياريّة الوسطيّة

تتمركز الوسطيّة على الفضائل الخيِّرة والقيم الحميدة التي يرتضيها الناس دون أن يكون لها موقفاً من الآخر إن لم يكن للآخر موقفاً من الفضائل والقيم الحميدة، ولأنّها وسطيّة فهي بدون شك جاءت من أجل الجمع لا من أجل التفرُّق والاستثناء والإقصاء والتغييب.

تأسست الوسطيّة على مبدأ التقبُّل، والاستيعاب، والإرادة دون إكراه حيث لا إكراه في الدين، ولأن الأمر كذلك فلا إكراه في السياسة ولا إكراه في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية مع الآخرين.

معايير الوسطيّة

. إحقاق الحقّ

الوسطيّة لا تُلبس الحقّ بالباطل ولا تقبل بذلك إتباعاً لأمر الله في قوله تعالى: {وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[87]، ولأنّ الحقّ في بعض الأحيان يُكتم جاءت الوسطيّة لإظهاره بين الناس بيّناً دون انحياز ولا تنازلات، {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}[88].

---

[87] البقرة 42.

[88] البقرة 146، 147.

ولأنّ الحقّ لابدَّ وأن يحقّ ولو كره المجرمون والكافرون والمنافقون والكائدون والمشركون، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}[89].

ولأنّ الحقّ قد جيء به لمحمَّد رسول الله رسالة خاتمة للكافّة؛ فكان محمَّد رسولاً بالحقِّ الذي جاءه من الحقّ المطلق، {لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}[90]، ولأنَّه الحقّ المُبين عمل به محمَّدُ، وبالقرآن بشَّر وحرَّض ودعا وأنذر الناس كافّة.

ولأنّ الكتاب جاء به الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه تنزيلاً من الحقِّ العزيز، فإنّ ما جاء به الرسول هو الحقّ الواجب أخذه، {وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[91].

الحقّ لا يحقّه إلا الحقّ، والباطل لا يسنده إلا الباطل، ولذا فالفرق كبير بين من يتّصف بالحقِّ حتى يسمى به ويتصف، وبين من يرتكب الباطل حتى يتصف به، وإذا أوضحنا ذلك فإن (الحقّ لا يحقه إلا الحقّ) أي أنَّ:

. كلمة الحقّ الأولى في الجملة السابقة: تدل على التصاق الفعل بفاعله.

. وكلمة الحقّ التالية في الجملة السابقة، تدل على المصدر الذي يُستمد الحقّ منه.

. وكلمة التوسط بين الحقّين (لا يحقّه) تدل على أن الحقّ لا يستطيع إحقاقه هو كما هو إلا الحقّ الذي أستمد منه.

وفي المقابل لِمَا ذكرنا جاءت الجملة التالية: (الباطل لا يسنده إلا الباطل)، وهذه الجملة هي الأخرى حقّ، ولكنّها ليست الحقّ الذي جاء بالحقّ؛

[89] التوبة 33.

[90] يونس 94.

[91] الحشر 7.

فالباطل الأولى في جملة ما بين القوسين السابقين، هي الباطل هو كما هو. والباطل التالي للباطل في ذات الجملة، هو: الفاعل للفعل الباطل، وهو الذي لا تسنده حُجَّة حقّ.

والله تعالى أرسل رسوله محمَّداً بالحقُّ لتصحيح الزور وإبطال الباطل الذي انتشر كفراً، وجاءت رسالة الأمّة الوسَط لتعيد البشريّة إلى الفطرة السليمة بأنَّ الله وأحد أحد لا شريك له، وتشهد بذلك قائلة: (أشهد أنْ لا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمَّداً رسول الله) وهذا قول الحقّ وذروته، ثم يتأتى الاعتراف والإقرار بباقي الحقوق التي منها أنّ الأنبياء حقّ، والموت حقّ، والساعة حقّ، والملائكة حقّ، والبعث حقّ، والعقاب والثواب والجنة والنار وكل ما نزل من آيات في القرآن الكريم هو الحقّ الذي يجب أن يُتبع ويهتدي إليه.

والحَقُّ في معناه ما يعاكس معنى الباطل دلالة وإرشاداً، وهو لا يعرَّف إلّا بأنّه الحقّ، سواء أكان أسماً أم صفةً أم فعلاً، ولهذا فللحقِ دائماً الصفات الحسنى، والحقّ أيضاً يتطابق مع الذات والقول والعمل والسلوك والفعل، وعندما يتمّ ذلك يأخذ المتطابق معه صفة الحقّ الذي لا يتبدّل (هو كما هو) ولذا فإنَّ الله الحقَّ مطلق، وقوله مطلق وفعله مطلق.

وعليه فإنَّ الحقّ المطلق مختصّ بالله، والحقّ بالإضافة نسبي وصاحبه هو الخليفة الذي يؤمن بالحقِ المطلق، ومن خلال الإيمان بالحقِ المطلق يتأتى الإيمان بالنبي رسولاً حقاً من الحقّ المطلق.

ولأنَّ المدركين من الناس هم قادرون على التمييز بين الحقِ والباطل إلا أنّهم في بعض الأحيان يميلون كثيراً أو قليلاً عنه؛ فجاءت الوسطيّة لمجادلتهم ومحاجتهم من أجل العودة بهم إلى الحقِ الذي لا انحياز فيه مع أنّه في دائرة الممكن البعض ينحاز عنه، مما يجعلهم يختلفون في أمر إحقاقه، {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ

مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[92].

وليس دائماً الناس لا يعرفون ولا يعلمون، بل في بعض الأحيان مع أنّهم يعرفون ويعلمون إلا أنّهم ينكرون ويجحدون الحقيقة وكأنّهم لا يعرفونها، وهنا يكون التعجّب، كيف لعاقلٍ أن يعرف الحقيقة وينكرها أو يغفل عنها أو يسعى لحجبها عن الغير! {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[93].

ولأنَّ النفس الإنسانيّة تميل وتهوى وتغفل وتتعمّد أن تفعل ما يُفعل بغير حقٍّ، جاءت الوسطيّة لتوقظ الغافلين والمتعمِّدين عمّا هم فيه من غفلة أو تعمّد لتبيّن لهم ما يجب أن يُتّبع دون ميلٍ لطرفٍ على حساب طرفٍ آخر، {فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ}[94].

الوسطيّة (مُحقّت الحقّ) تعتبر الغلو لا خير فيه، ولا حقَّ يسنده في شرع الله تعالى، ولهذا أهل الوسطيّة لا يغالون في الأمر (أيّ أمر) بل يعملون بكل وسعهم على إظهار الأمر (هو كما هو) وتركه مع البيّنة حلّاً لمعضلة أو مشكلة أو خلاف أو تأزمات بين الأفراد أو الجماعات أو المجتمعات، {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا

---

[92] البقرة 213.

[93] آل عمران 71.

[94] المائدة 48.

عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}[95].

ولأنَّ الجميع لم يعلموا الحقّ فمن حقّ العالمين به أن يُعلموا الآخرين الذين لم يعلمونه، وأن يعرّفِونهم إياه، ليهتدوا إليه إتباعاً، ولذا تبنّت الوسطيّة هذه الرسالة ليعمَّ الجميع الحقّ دون أن يُحرم أحد منه؛ فالحقّ للجميع، ومن حُرِمَ من ممارسة حقّه في الحياة ظُلم، ومن يُظلم يُدفع لأن يفعل ما يشاء في سبيل أخذ حقِّه من الذي ظلمه فيه أو اغتصبه منه.

ولأنَّ الوسطيّة تعتبر المطالبة بالحقِ حقّ؛ فهي تعمل على إظهار الحقّ بين الناس لكي لا يُظلم أحد. ولهذا الذين يعملون على إحقاق الحقّ يخافون الله ويتقوه فلا يظلمون ولا يقبلون بسيادة المظالم بين الناس؛ فهم مؤمنون بأنّ الحقَّ لابدّ وأن يُحقّ إرادة، {وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ}[96]، ولذا فالأنبياء وكل أهل الوسطيّة الذين لا يقولون على الله إلا الحقّ هم لا يجادلون فيه بعد أن يتبيّن لهم، وعلى عكس حالهم هناك المجادلون بغير حقٍ، {يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ}[97].

الحقُّ على رأس معايير الوسطيّة جعل أهلها عاملين على إبطال الباطل دون تردد ولا خوف؛ فالحقُّ بالنسبة لهم لابدّ أن يُقال ويُترك الأمر من بعد قوله وإظهاره للإرادة والاختيار، ولهذا فهم لا يجاملون ولا يقبلون التنازلات التي تكون على حِساب الحقيقة وإظهارها ولو كرها الكارهون، {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ

[95] المائدة 77 . 79.

[96] المائدة 84.

[97] الأنفال 6.

اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}[98].

ومع أنّ الله خلق الإنسان في أحسن تقويم، إلا أنَّ الإنسان بشر لم يُخلق على الكمال؛ فهو من آمن بداية كما هو حال أبونا آدم النبي الأول الذي اصطفاه الله تعالى نبياً لجميع الأنواع (الملائكة والجن والإنس) ومن بعده آمن من آمن، وضل من ضل، وكفر من كفر، وأشرك من أشرك، {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[99].

ولأنّ الإنسان من طبعه يغفل ومن بعده يعي ويُدرك، وهو يجهل ومن بعده يعلم ويتعلّم، لذا فهو إن أرتكب خطأً فيرتكبه عن غير علمٍ أو عن جهلٍ وكفرٍ ولكلٍ مبرراته، ولكن ارتكابها عن غير ذلك بوعيٍ فالذنب أعظم، فإن

---

[98] الأنفال 7، 8.

[99] البقرة 30 . 37.

قُلِّبت الأمور للبعض قد يتخذون مواقف ليست بالصائبة، ولكن إن بُيِّنَ لهم حقيقة الأمر قد يهتدون وهو المستهدف بالوسطيّة.

علاقة قويّة تربط الحقّ بالصدق؛ فمع أنّ الحقَّ حقٌّ، إلا أنّ الكذب والنفاق مفسدة له، ولهذا فالصادقين وحدهم هم القادرون على إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل ولو كره الكارهون، ولكن عندما يُريد الله للحقِ أن يُحقَّ يُظهره على لسانٍ مُحقٍ، وقد يُظهره على لسان من كان خافياً له، كما هو حال امرأة العزيز التي أخفت الحقيقة إلى أنْ شاء الله إظهارها على لسانها لا على لسان غيرها تبرئة ليوسف من الكيد والذنب الذي لم يقترفه، {قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ}[100].

علاقة قويّة أيضاً بين الحقِ وإحقاقه، وبين الحقِ ومخالفته؛ فالله حقٌّ لا يحقَّ إلا حقّاً؛ فلا يُخلف وعده، والرُسُل والأنبياء والصديّقون والمؤمنون بالوسطيّة حقّاً يوفون وعودهم بإحقاق الحقِ وإزهاق الباطل، أمَّا أولئك الكفرة بالحقِ وغيرهم من شياطين الإنس والجنّ فإن عاهدوا لن يوفوا، بل على مخالفة الوعد هم منتهجون، وما يتبعهم إلا الضالون، {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[101].

---

[100] يوسف 51.

[101] إبراهيم 22.

ولأن الحقّ فضيلة، أقرّه الله تعالى هدايةً (قولاً وفعلاً وعملاً وسلوكاً)، ثمّ جعله بين الناس إرادة، {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[102].

الحقُّ دائماً في مواجهة الظلم والمفاسد والمظالم والظالمين؛ فمن يهتدي به ويهتدي إليه لن يكون من العابثين ولا من المفسدين في الأرض ولا من سافكي الدماءِ فيها بغير حقٍّ، وإن حكم بين الناس حكم عدلاً، {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[103].

إذن الحقُّ معيار لقياس المستويات الإصلاحيّة والإعماريّة ومقارنتها بالمستويات الإفساديّة ومدى ما يُبذل من جهد في سبيل الحدّ من المظالم أو القضاء عليها، ولهذا جاءت أمّة الإسلام أمّةً وسطاً (أمّةُ حقٍ) مصداقاً لقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}[104]، أي جعلناكم أمّة الحقّ، لتشهدوا به على الناس، ويكون الرسول بالحقّ شهيداً عليكم.

ولذا فإنَّ أمّة الوسط هي أمّة إحقاقّ الحقّ فلا تميل ولا تحيد عن فعله الذي به يتحققّ، ودون أي تنازلات؛ فالحقّ واحد كما هو الله واحد، ولأنّ الحقّ بيّن فَلِمَ إنكاره أو السعي لإخفائه أو التحايل عليه! {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ}[105]، جاء أمر الطاعة من لله تعالى لأنّه الحقّ المطلق، وأمر الطاعة للرّسول لأنّه رسول الحقّ المطلق،

---

[102] الكهف 29.

[103] الشورى 40 . 42.

[104] البقرة 143.

[105] النساء 59.

والداعي إليه، ولهذا فطاعة الله ورسوله حقّ. وكذلك طاعة أولي الأمر في غير معصية الله ورسوله حقّ، ولكن أيّ أمر، وأيّ أوليّ أمر!

وجهات النظر تتعدد وقد تتباين بتعدد أولي الأمر، ولأنَّ الأمر في هذه الآية الكريمة جاء محدداً (وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ) أيّ الأمر الذي هو منكم، وليس أيّ أمر، فلو كان أيّ أمر لقال: (أولي أمركم)، وقبل هذا وذاك علينا أن نحدّد الأمر، فأيّ أمر هذا! هل هو سياسة، أم اقتصاداً، أم حرباً، أم سلماً، أم هجرةً، أم قضاءً، أم زواجاً، أم ماذا!

بما أنّ الأمر جاء محدّداً (بأولي الأمر منكم) إذن هناك اشتراطات تتعلّق بالأمر، فإن كان الأمر سياسة أو اقتصاداً أو حرباً أو سلماً يجب أن يكون أمر كل منها مُقرّ من قبل من يتعلّق الأمر بهم دون استثناء لعقالٍ مُدرك، وهذه الأمور لا تكون إلا على المستوى الجمعي (الأمّة أو الوطن أو الإنسانية جمعاء)، ولهذا في دائرة الممكن عندما يقرّر المجتمع أمر سياسته الداخلية والخارجية وأمر سلمه وحربه، وأمر اقتصاده إنتاجاً واستهلاكاً، ثم يختار بكامل إرادة من يتولي إدارة هذه المسؤولية فعليه بطاعته في الأمر الذي هو صادر عنه، مما يجعل وجوب انعدام الطاعة لأولي الأمر إذا خرجوا عن الأمر الذي سبق أن تقرّر ممن يتعلق الأمر بهم.

إنّ الحقّ في أصوله اللغوية والاصطلاحية يعني الثبوت الذي لا يقبل التغيير في الاستعمال والنقل والإخبار، والله سبحانه وتعالى هو الحقّ ولا يمكن تصوّر التغيير فيه بحال من الأحوال، ثمّ الخبر المطابق للواقع حقّ حين الإخبار به، ولا معنى لتصوّر التغيير في الحقيقة، والحقّ معنى واقعي لا معنى اعتباري ذهني، ولكن أُخذ من مفهومه الواقعي مفهوم اعتباري وثبوت اعتباري وأطلق اللفظ على المفهوم الاعتباري واستعمل في

مجال العلاقات الاجتماعية والسلوك الفردي والحرية المقيدة والميراث والقضاء وما إلى ذلك من حقوق لا تؤدّي إلى ظلم الآخرين أو إلحاق الضرر بهم.

وبالحقّ تحقّ الحقوق لأصحابها حيث أن هذه الحقوق تنشأ من حالة واقعية إمّا في التركيب التكويني كحقّ الخالق على المخلوق في العبادة وحقّ الطفل على أمّه في الرضاعة، وإمّا من مصلحة إنسانية تحددها الفضائل والقيم ويحكمها اعتبار شرعي أو قانوني أو عرفي، وهذه العناصر كافية بنفسها في ثبوت الحقوق وإثباتها، وعليه فالحقّ مُشبع لحاجات ثابتة بشكل طبيعي أكّد عليها الشرع والعرف والقانون.

ولمّا كانت الوسطيّة فضيلة، والفضيلة خير؛ فهي مطلب كلّ عاقل لا يتعدّى الحقّ الذي يندرج ضمن الفضائل، ولذا كان الحقّ من معطيات الوسطيّة الذي يجب أنّ يسعى إليه الإنسان مطلباً ذاتياً، وإحقاقه في ميزان الاعتدال بين الأنا والآخر تحقيقاً للوسطيّة بما يقتضي إرساء معالم الحقّ وإبطال الباطل بين الناس، وإن لم يكن هناك خصومة أو منازعة.

ومن معطيات الوسطيّة في الحقّ، حرّية الفكر التي تجعل الوسطيّة رائداً للتفكير السليم ونبراساً للعقول والإفهام في الاهتداء إلى معالم الحقِ في حقّ الحرية التي تطلق العقول والإفهام من أغلال القيود العقلية والكبت الفكري، وتحررها من سيطرة التقليد والتبعيّة، وتُجلي لها معالم الحقائق التي كانت محجوبة عنها، وتجعل قيادة التوجيه قيادة بناء وإصلاح وإرشاد بما يقتضيه الحقّ، لا قيادة هدم وإفساد وتضليل بما يناقض الحقّ؛ فالحقّ ومقوّماته وتطبيقه يُستمدّ من هدي الوسطيّة لما بين معطياتها من ترابط وتكامل يؤدّي إلى نضوج العقل واستقامة التفكير قولاً وعملاً وسلوكاً

انطلاقاً من الحقّ، في تحكيم الحُجّة والبرهان من أجل الوصول إلى أقرب نقطة من الوسطيّة.

. العدل

العدل فضيلة إن ساد على الأرض ساد الصلاح والإصلاح والفلاح والإعمار فيها وانتهت الفتن من على ظهرها، إنّهُ وسيلة فاضلة حيث لا مظالم بسيادته، وهو لغاية فاضلة حيث التآخي والمودة والمحبّة بين الناس، ولهذا فالوسطيّة حكم عدل لا ميل ولا تحيُّز، به يُحق الحقّ حيث يجب، وبه يُزهق الباطل كلما وجب.

العدل فضيلة مرضية للنفس المطمئنة المتمسِّكة بالحقِّ والمنتهجة سبيله، وفضيلة محرجة لمن يحيد عنه ويضل سبيله فلا يهتدي إليه، به يتم الحكم بين الناس فيما هم فيه مختلفون.

ولأنّ الوسطيّة من معاييرها العدل فهي الحكم العدل بين الناس إن رغب الناس أن تكون الوسطيّة هي الحكم بينهم، وإن لم يرتضوا ذلك فلا إكراه، {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ}[106]، (وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ) آية شرطية، إذا قبلتم أن تحكموا بين الناس، والناس ارتضوكم حَكماً بينهم فلا تحكموا إلا بالعدل الذي هو إحقاق حقّ وإزهاق باطل، ولا تميلوا ولا تجنحوا إلا للحقِّ عدلاً بين المختلفين في الأمر؛ {فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آَمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}[107].

---

[106] النساء 58.

[107] الشورى، 15.

فهذه وصيّة جامعة تحثُّ على العدل المطلق لمن أراد أن يلحق بركب العدل، فالله العدل يأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يستقيم كما أمره على منهج العدل الذي أنزله عليه كما انزله على من قبله من الأنبياء والرُسُل، ولذا فمن أراد أن يلحق بركب العدل فعليه باتباع نبي العدل على شريعة العدل.

ولأنَّ الله هو أحكم الحاكمين؛ فهو يرى ما لا يرى المخلوق في أمره وأمر من حوله، فعندما بعث محمَّد صلى الله عليه وسلَّم رسولاً مصِّدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ليحكم بينهم بما أنزل الله وهو أحكم الحاكمين، كان أمره تعالى لنبيّه محمَّد أن لا يتَّبع أهواء المختلفين في أمرهم وأن يحكم فيهم بما أنزل الله في كتابه الحكيم الذي لا انحياز فيه إلا للحقّ، قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آَتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}[108].

ولأنّه أحكم الحاكمين وحكمه الحقّ بالمطلق؛ فالحكم بما أنزل يعدُّ اتباع وطاعة لأمره ونهيه، ولذا فالذين يلتزمون بما أنزل في أحكامهم بين الناس هم من المستخلفين في الأرض بالحقّ ومن تبعهم كان منهم ومن ضل عمَّا يحكمون به وهو الحقّ فلعل ذلك لازدياد ذنوبهم وفسقهم، {وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ

---

[108] المائدة 48.

اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ}[109].

أمَّا الذين يحيدون عمَّا أنزله خير المنزلين على رسوله محمَّد صلى الله عليه وسلّم في كتابه الحكيم؛ فهؤلاء هم الذين على أحكام الجاهلية منتهجون أي هم الذين لا يريدون الإصلاح في الأرض وإعمارها بل هم بظلمهم مفسدون، {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}[110]. أحكم الحاكمين هو الذي يحكم بالحقّ، ولذا فمن يحكم بالحقِّ يكون من الذين استمد صفاته من صفات أحكم الحاكمين الذي لا تأخذه العاطفة التي تجعل الضعيف يميل عن الحقّ وإحقاقه؛ فالذين لا خير فيهم هم السمَّاعون للكذب والآكلون للسحت؛ فهؤلاء حُكم أحكم الحاكمين فيهم بيّن؛ فلا خوف أن تصدر ضدهم الإدانات الصريحة عدلاً ولهم في الآخرة عذاب شديد.

إذن العدل فضيلة مأمور به أمراً مطلقاً، ولهذا اتخذته الوسطيّة معياراً رئيساً لها، {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا}[111].

في هاتين الآيتين أمر ونهي، فالأمر بما يؤخذ به، والنهي عمّا لا يؤخذ به، ولذلك لقد أمر الله تعالى بثلاث فضائل معيارية (قابلة للقياس):

. العدل، وهو الفعل الذي به يتحقق الحقّ.

---

[109] المائدة 49.

[110] المائدة 50.

[111] النحل 90 ، 91.

. الإحسان، وهو الجودة في صفاء النفس والقول والفعل والسلوك والعمل مع فائق الإخلاص لله تعالى.

. إيتاء ذي القربى، وهو الأخذ بأيدي من هم في حاجة من الأهل والآل لتعمَّ الرحمة قلوب الناس بالإحسان الذي هو حُسن معاملة ورقي في الذوق والاعتبار.

ثمّ نهى الله عزّ وجل عن ثلاث رذائل:

. الفحشاء، وهي ما لا يليق بالخُلق الكريمة وهي كلّ ما حرّمته الأديان السماوية من أجل علاقات إنسانية فاضلة.

. المنكر، وهو كل ما يخالف الدين والعرف الذي آلفته الناس وتقدِّره تقديراً عالياً وتحتكم به دون تعارض مع الدين المنزّل تنزيلاً.

. البغي، التعدي ظلماً مع تجاوز الحدود ولهذا نُهي عنه لتكون الفضائل بين الناس سائدةً في مرضاة الله تعالى.

ثمَّ جاء الله تعالى بأمرٍ ونهي آخرين في الآية (91) من سورة النحل؛ فهو قد أمر بالإيفاء بعهد الله لمن عاهد ربّه، ثمَّ نهى عن نقض الأيمان بعد توكيدها، (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا). هذه من المعايير التي أقرّتها الوسطيّة فضائل وقيم تُتَّبع وفقاً لأمر الله ونهيه دون إكراه، {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[112].

العدل معيار للإصلاح، به تنتهي المظالم وتعاد الحقوق لأصحابها الذين سُلبت منهم، {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ

---

[112] الكهف 29.

فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}[113].

ولأنَّ العدل معيار إصلاحي؛ فهو لا يتمّ عدلاً إلا بعقلٍ مُدرك لا سيطرة فيه للعاطفة التي إن غلبت أصبحت اللذة هي الموجّه للعقل، وحينها لن يُدرك العقل صوابه، {وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ}[114].

ولأنَّ العدل فضيلة معيارية؛ فهو لا مظالم فيه، {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}[115]، في هذه الآية الكريمة جاء فعل الاعتداء مرتين تماثلاً (فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ):

المرة الأولى تحمل دلالتين سلبيتين:

1 . الاعتداء الأول، اعتداء ظالم، لأنّه اعتداء أول بدون مبررات موضوعية، أي لماذا أصلاً كان التفكير في الاعتداء!

2 . الاعتداء الثاني إن امتدت حدوده أكثر من مستوى الاعتداء الأول في هذه الحالة تُعدّ مساحة أو حجم الزيادة في الاعتداء عن مساحة أو حجم الاعتداء الأول يُعدّ اعتداء ظالماً.

المرة الثانية تحمل في مدلولها الإيجابية من حيث كون الاعتداء (المترتب على الاعتداء الأول) هو ردٌّ لا ظلم فيه عندما لا يخرج عن مستوى أو مساحة أو حجم الاعتداء الأول، مما جعله حقّ ينبغي أن يُمارس بالتساوي في حدود الاعتداء الأول، {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ

---

[113] الحجرات 9، 10.

[114] النساء 129.

[115] البقرة 194.

بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[116].

ولأنّ العدل فضيلة معياريّة خيّرة؛ فهو عدل في الحياة الدنيا، ولهذا من العدل أن يبتغي الإنسان فيما آتاه الله الدار الآخرة وأن لا ينسى نصيبه من الدنيا وأن يحسُن فيها ولا يُفسد بل يجب أن يُصلح ما استطاع إليه سبيلاً، {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}[117].

العدل هو ما يُبذل من جهد في سبيل الفصل بين الخصوم في المنازعات بما يأمر به الحقّ، وأمّا الحقّ وإحقاقه فهو أعمّ من العدل لأنّه واجب تبيانه حتى وإن لم يكن هناك خصومة أو نزاع من أجل دفع الظلم وعدم التعدّي وإظهار الحدود.

وعليه؛ فالعدل إعطاء كل ذي حقّ حقّه جزاء ما يستحق من الثواب أو العقاب، من غير تفرقة بين المستحقين إحقاقاً للحقّ، وبالعدل وفق الحقّ توزّع الحقوق وتقدّر الأعمال ويقوم القضاء والحكم؛ فالعدل هو الميزان الذي يزن معطياته الحقّ الواجبة دون تفرقة بين الذكر والأنثى أو الكبير والصغير أو اللون والعرق؛ فلمّا كان العدل هدفه الإنصاف والوسطيّة هي ذاتها نَصَفيّة، إذن العدل معطية ضرورية من معطيات الوسطيّة، تعمل على إثباته وإرسائه بين الناس، ولذا ارتبطت به جميع مناحي الحياة ونظمها، فلا يوجد نظام أو قانون أو تشريع يقوم على الحقّ إلا وللعدل فيه النصيب الأوفى؛ فهو مرتبط بنظام الإدارة والحكم والقضاء، وأداء الشهادة، وكتابة العهود والمواثيق في البيع والشراء، بل أنّه مرتبط بنظام

[116] المائدة 44، 45.

[117] القصص 77.

الأسرة والتربية أيضاً، وكذلك الاقتصاد والاجتماع، والسلوك، والتفكير، إلى غير ذلك مما له علاقة بأنواع التصرّف المختلفة للبشر وفي جميع مجالات الحياة؛ فإذا كانت الوسطيّة هي دعوة إصلاحية؛ فمن العدل أن تكون الوسطيّة إصلاحاً، ومن العدل أن يكون العدل من معطياتها، لأنَّ العدل يحفظ الأخلاق من خطر الانهيار، وأمن الفرد والمجتمع من الاضطراب، والبلاد من الخراب، والنفوس من الدمار.

العدل معطية معياريّة من معطيات الوسطيّة، وهو يشمل سائر المخلوقات مع أنّ سائر المخلوقات لم تكن مطالبة بالعدل، وإنّما المخلوق العاقل هو المطالب بالعدل في نوعه الإنساني وفي الأنواع الأخرى بدليل الخطاب للعاقل في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}[118] فالخطاب للعقلاء، وكلّ عاقل مطالب بإقامة العدل في حياته، مع نفسه ومع غيره، حتى لو كان الغير عدوّه وخصمه ضمن النوع، أو مخلوق آخر خارج النوع، لأنّ سلطان العدل ليس له حدود، فهو يتجاوز حدود الجنس والنوع، ويتجاوز حدود الدين والعقيدة، ويتجاوز حدود القرابة والنسب، ويتجاوز حدود الأرض والوطن، ولمّا كان العدل من معطيات الوسطيّة، والعدل فرع منها، فإنّ الفرع جزء من الأصل والكلية تحتوي الجزئية؛ فالوسطيّة أعمّ بشموليتها لكلّ ما ذُكر.

العدل هو ما يُلتجى إليه لإصحاح المفاسد وهو المطلب عند ما يكون الخلاف والاختلاف بين الناس على حقوق تمارس وواجبات تؤدي ومسؤوليات تُحمل.

---

[118] – المائدة 8.

والعدل فضيلة من الله للعباد، وقيمة أخلاقية بها تنظم العلاقات البشرية بين الأفراد والجماعات والمجتمعات، وهو صفة من صفات الأنبياء مصداقا لقوله تعالى: {وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ}[119].

العدل قيمة بينيَّة تحكيمية تتوسَّط طرفين أو أكثر، مركزها الاتزان وأطرافها من توازن. تؤسس قيمة العدل على إعطاء كل ذي حقّ حقّه. لذا فهي قول حقّ وفعل حقّ؛ فالعدل بالتمام كما عدل سليمان صلى الله عليه وسلَّم بين المتخاصمين هو قاعدة، قال تعالى: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ}[120]. قال تعالى: (وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ) ولم يقل إذا حكمتم الناس، فالذين يريدون أن يحكموا الشعوب باسم الدين، فالدين لا ينصّ على حكم الناس، بل ينصّ على أن يكون الحُكم بينهم بقوله تعالى: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[121] جاء الأمر هنا مطلقاً، والأمر هو كل ما يتعلق بالناس ومصائرهم، (السلم والحرب، والسياسة الداخلية والخارجية، الزواج والطلاق وكل ما يتعلق بالإنتاج ووسائله).

أمّا قضاء سليمان فكان وفقا لقوله تعالى: {وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا}[122].

في الآية الكريمة السابقة يذكر الله تعالى أنّ حُكم سليمان وداوود صلى الله عليهما وسلَّم كان في وقت الحرث الذي نفشت فيه غنم القوم وتفرّقت

---

[119] الأنبياء 78.

[120] النساء 58.

[121] الشورى 38.

[122] – الأنبياء 78– 79

وانتشرت ليلاً بلا راع فرعت فيه وأفسدت، وعلى هذا فالنفش أن ينتشر الغنم ليلاً بلا راع.

ومن خلال سياق الآيات في المعنى وما أوردته المصادر التاريخية من نصوص نستطيع القول أن حكمهما صلى الله عليهما وسلَّم كان بالاجتهاد وهو جائز على الأنبياء صلى الله عليهم وسلَّم.

وقبل أن نتناول استنباط حكمناً على الحكم بأنّه:

هل هو وحي من الله.

أم هو اجتهاد بتفهيم.

نقول:

قبل الوقوف على الأدلة من الآية في حكمهما صلى الله عليهما وسلَّم من أنّه:

اجتهاد من داوود.

اجتهاد من سليمان.

أم أنه:

اجتهاد من داوود.

وحي لسليمان.

أم أنه:

اجتهاد من سليمان وداوود.

نقول:

إنّه لا يصح أن يكون وحياً لكليهما ويناقض حكم أحدهما الآخر.

إنَّ ما ورد في النصّ التاريخي دليل على أنَّ حكم سليمان ليس وحياً؛ فلو كان وحياً لوجب على سليمان صلى الله عليه وسلَّم إظهار ذلك.

ولو كان وحياً؛ فهو محرَّم عليه أن يكتمه.

ومع ذلك فإنّ سليمان لم يكن بعد مكلفاً بحمل الرسالة، بل كان صبياً مفهَّماً.

فإذا ثبت أنّه لم يكن مكَّلفاً بعد، ورجع داوود صلى الله عليه وسلَّم عن حكمه إلى ما حكم به سليمان صلى الله عليه وسلَّم وجب من ذلك:

أنَّ حكم داوود لم يكن وحياً.

لو كان وحياً ما عدل عنه.

لو كان وحياً ما عارضه سليمان بل أنّه تفهيم من الله لسليمان.

ومهما قيل في قضية الحكم فإنَّ ذلك لا يقدح في رأي داوود صلى الله عليه وسلَّم لأن الله تعالى يقول:

وكلا: أي داوود وسليمان.

آتينا.

حكما.

وعلما.

اختلاف الحكم لاختلاف العلم.

ومنه العلم بطريق الاجتهاد لا لسليمان وحده؛ فالجملة لدفع هذا التوهُّم وفيها دلالة على أنَّ خطأ المجتهد لا يقدح في كونه مجتهداً وإنّ الآية دليل على أنّ كلّ مجتهد في مسألة لا يقطع فيها بالعدول عنها فهو مصيب.

لقد ذكر الله تعالى تخصيص سليمان بفهم القضية لا بفهم الحقّ، لأنّ داوود وسليمان صلى الله عليهما وسلَّم يفهمان الحقّ ويعرفانه، فقوله تعالى: {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ}[123].

لا يدل على عدم معرفة داود للحقّ، لأنَّ تخصيص التفهيم لسليمان أعطى فائدة أخرى لأن كليهما:

---

[123] – الأنبياء 79

أوتي حكماً.

أوتي علماً.

أوتي معرفة الحقّ.

أوتي العدل.

أوتي إصابة الحكم.

ولقائل أن يقول:

إنَّ غاية ما في قوله تعالى: {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ}[124] هو تخصيصه بالتفهيم، ولا دلالة على عدم ذلك في حقّ داود إلا من طريق عدم ذكر ذلك في حقّه، فداوود صلى الله عليه وسلَّم:

أوتي علماً.

أوتي حكماً.

فالضرورة أنّه أوتي فهماً غير منصوص عليه لخصوصية القضيّة التي اختصَّ في فهمها سليمان، وليس ذلك بالحُجَّة القائمة أو الدليل القاطع على عدم تفهيم داوود أكثر من سليمان في قضايا أخرى، وإنْ سلمنا أنّه حجَّة غير أنّهما حكما بالنصِّ حكماً واحداً، فكان مرجح حكم سليمان هو التفهيم الذي أضيف إليه، والذي يدل على هذا قوله تعالى: {وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا}[125].

ولو كان أحدهما مخطئا لما كان قد أوتي في تلك الواقعة حكماً وعلماً وأن سلمنا أنَّ حكمهما كان مختلفاً، فهذا يرجح أنّهما حكما بالاجتهاد وكانا محقّين في الحكم، إلا أنّه نزل الوحي بإقرار الله تعالى على وفق ما حكم به سليمان بما فهّمه الله تعالى.

---

124 – الأنبياء 79

125 – الأنبياء 79

وخلاصة القول أن تفهيم سليمان كان الحكم الأنسب والأوفق في دعوى الخصمين بالمحافظة على درء أدنى ضرر ممكن وذلك لأنَّ داود صلى الله عليه وسلَّم:

كان عادلاً في حكمه.

حكم بتعويض الضرر.

أما حكم سليمان صلى الله عليه وسلَّم:

كان حكماً عادلاً.

ضمن التعويض.

ثم زاد الإصلاح عليه.

وهذا الإصلاح والإعمار هو من التفهيم الذي امتاز به سليمان عن أبيه داوود وكلاهما قال الحقّ وحكم بالعدل.

. الإرادة

الإرادة مشيئة اختيارية حرّة تتمركز على الرغبة والوعي، ومع أنَّ الإرادة موجبة إلا أنّ المترتّب عليها اختياراً قد يكون موجباً وقد يكون سالباً؛ فالإنسان بإرادته يؤمن، وبإرادته يكفر، أو يُشرك، أو يضل، أو يسرق، أو يكذب، أو ينافق، وكل هذه المتنوعات اختيارية ولكنّها قد تكون عن وعي وقد تكون عن غفلة أو جهل، {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[126].

الإرادة تصميم واعي يُمكِّن الفرد أو الجماعة أو المجتمع من اتخاذ القرار الذي يتعلق بأمرهم سواء أكان هذا الأمر سياسة داخلية أم خارجية أم سلماً أم حرباً، ولذا لا يتخذ القرار إلا بعد معرفة تامة بما يجب وفقا لدائرة

---

[126] الكهف 29.

الممكن المتوقع وغير المتوقع؛ فبالإرادة تُحدّد الأهداف وتُرسم الخطط ويتمّ الإقدام على تنفيذها بكل حرّية.

الإرادة حرّية في اختيار الخير أو الشر وبالتالي لا حرِّية بدون إرادة ولا إرادة بدون حرِّية.

الإرادة ذات خصوصية وذلك لتعلّقها بالإنسان الحر وعلاقاته بما يُقدَّم إليه من اختيارات متنوِّعة وبما يرغب وما لا يرغب، أمّا الحرية فيغلب عليها الطابع السياسي الذي قد يجد الإنسان نفسه معها في حالة تكيف حتى وإن كانت لا تمدَّه بما يحقّق له التوافق.

وعلى المصلحين والتربويين وولاة الأمور أن يعملوا على تقوية إرادة الذين يتعلّق أمرهم بهم حتى لا يكونوا منهزمين أثناء مناقشتهم فيما يتعلق بهم من أمر، أو مستسلمين لأمرٍ واقعٍ ليس بموجب، وأن يعملوا جادّين على تفطينهم من الغفلة التي قد تلمّ بهم وتبعدهم عن ممارسة حقوقهم وأداء واجباتهم وحمْل مسؤولياتهم.

ولذا فإن الإرادة قيمة معياريّة تعاقدية بين التخيير والاستطاعة ينبغي أن تقوّى لأجل أن تتّسع الهوة بين الأفراد وبين ما يؤدي بهم إلى الإكراه أو الإجبار والاقصاء؛ فبالإرادة تمارس الحرّية، وتتأكد السيادة مما يجعل النتائج المتوصل إليها مرضية للفاعل حتى وإن كانت نتائجها سالبة.

ومع أنَّ الإرادة تُمكِّن من ممارسة الحرّية اختياراً إلا أنَّ الإرشاد للحقّ بالحقِ حقّ على من يَعلم ويؤمن ويُدرك العواقب، فهناك القاصر والجاهل والمغرّر به، إلى جانب أنّ التبشير بالدين والدعاية له حقّ على كل مؤمن فلا داعي للتأخر عن أداء المهام المناطة بالعلماء والمعلّمين والتربويين وأولياء الأمور في رعاية النشء ورعاية المواطنين رعاية دينية وصحية وعلمية واقتصادية ونفسية وثقافية وذوقية.

إذن من واجب المتعلّم أن يُعَلِّم ويُعلِم من لم يتعلَّم ولم يَعْلَم بما عَلِم به من معارف خيّرة، وكذلك على أولياء الأمور حقّ الرعاية الحقّة؛ فالأنبياء من قبل بشّروا وهدوا وبلّغوا ما أُنزِلَ عليهم من وحيٍ وحرّضوا به الأقوام والشعوب والقبائل وسكان القرى والمدن والكافة وتركوا للإنسان الحريّة الإراديّة في الاختيار، {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}[127]، وقال تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[128].

ومع أنّ في دائرة الممكن امتلاك الإرادة هو امتلاك للحرّية الشخصيّة، إلا أنّ هذه الحرّية لا وجود لمطلقيتها؛ فالإطلاق أمره بيد خالق الإطلاق، ولهذا بالإرادة في الحياة الدنيا هناك من كَفَرَ وهناك من يكفر، وفي الحياة الآخرة لكلٍّ حسابه ثواباً أو عقاباً {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}[129].

ولذا فبالإرادة يتنافس المتنافسون بحُسن الطاعات وأداء العبادات وفوق ذلك هم يتنفَّلون طلباً لمزيدٍ من الجزاء الأوفر، {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ}[130]، وقال تعالى: {إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ}[131].

---

[127] الكافرون 1 . 6.

[128] البقرة 256.

[129] الزلزلة 7، 8.

[130] المطففين 18 . 26.

[131] التغابن 17.

ولأنَّ الإرادة فضيلة معيارية خيّرة أمر الله تعالى رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام أن لا يفرض شيئاً على الناس، بل عليه البلاغ، وعليه بالمشاورة في كلِّ أمرٍ يتعلّق بالناس، ثمّ جعل من بعده أمر الناس شورى بينهم حيث لا إكراه في الدين، {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ}[132] وقال تعالى: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[133].

إذن كل الجبابرة عبر التاريخ هم طغاة معادين للإرادة الحرَّة وعاصين لأمر الله، ولهذا فالزمان دائما كفيل بترويض الجبابرة والطغاة، {فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}[134]، وقال تعالى: {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ}[135]؛ فإذا كانت مهمة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام هي التذكير بالقرآن دون أي جبر؛ فكيف لأولئك الجبابرة وهؤلاء البعض من المسلمين يتحكّمون في مصائر الناس بغير حقّ! {إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا}[136].

ولذا فالوسطيّة تحكم بين الناس بالعدل إذا ارتض الناس من يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون، وتُذكِّر إن نفعت الذكرى، {فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى}[137]، أي إذا نفعت الذكرى اهتدوا الناس إلى الحقّ عدلاً وإذا لم يهتدوا ضلوا ضلالاً مبيناً، ومع ذلك وإنْ ضلوا وصيطروا على مصائر

---

[132] آل عمران 159.

[133] الشورى 38.

[134] النازعات 37 . 41.

[135] ق، 45.

[136] المزمل 19.

[137] الأعلى 9.

الناس فالتذكير بالحقّ والعدل لا ينبغي أن ينتهي وهذه من مهام الأنبياء والمرسلين والمصلحين في الأرض الذين جعلهم الله أمّةً وسطاً ليكونوا شهداء على الناس {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ}[138].

ومع أنّ الإرادة لا إكراه فيها إلا أنّ المعرفة الحقّة تُسهم إسهاماً كبيراً في استنارة الإرادة بالموجبات تحليلاً وتحريماً، ونفعاً وضراً حتى يتم الأخذ بما يجب عن إرادة ووعياً، ويتم الانتهاء عمّا لا يجب إرادة ووعياً، ولهذا فالوسطيّة تُبيّن الحقَّ وتحكم به عدلاً، ولا تقبل أن يكلّف الإنسان في غير استطاعة وقدرة، {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا}[139].

ولأنَّ الإرادة لا تقبل ظلماً، لذا وجب سيادة الاعتبار بين الأنا والآخر حتى لا تتصادم الإرادتين؛ فليس كل ما يُراد بإرادة يجب أن يؤخذ أو يتمّ، بل يجب أن يُقدّر الآخر الذي يمتلك الإرادة ومعطياتها ومستوجباتها كما يمتلكها الأنا، وإن لم تراع قيمة الإرادتين تقديراً واعتباراً واعترافاً يحدث الرفض وقد ينجم الصدام، {وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا}[140].

في هذه الآية الكريمة شرطين للإرادة:

. الشرط الأول على المرأة بقوله تعالى: (إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ) أي إن وهبت نفسها إرادة للنبي أن يستنكحها.

---

138 الغاشية 21، 22.

139 البقرة 233.

140 الأحزاب 50.

. الشرط الثاني على المرأة أيضاً، وإن كانت بإرادتها قد وهبت نفسها للنبي فعليها أن تحترم وتقدّر إرادته تجاهها (إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا)؛ أي عليها أن تعرف هل هو راغبُ أن يستنكحها؛ فإن كان راغباً تطابقت الإرادتان، وإن لم تتطابق الإرادتان فعليها تقدير ذلك تقديراً عالياً. ولهذا في عقد النكاح يستوجب الموافقة الإرادية من المستهدفين بعقد النكاح لتكون قيم الاحترام والاعتراف والتقدير والاعتبار سائدة بين الأنا والآخر (الزوجين).

إذن ينبغي أن يكون الحَكم محايداً فلا يميل إلى طرفٍ على حساب آخر لا لحبٍ ولا لبغض؛ فربُّ العزة الحَكم العدل يُعلِّم الإنسانَ درساً عظيماً ليكون حيادياً في الخصومة وذلك في قصة سيدنا موسى صلى الله عليه وسلَّم مع فرعون، يقول عز وجل: {اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}[141].

فالله سبحانه يقدّم لخليفته في الأرض المثل الأعلى في الحياد، فبالرغم من كون موسى رسول الله، وفرعون عدو الله إلا أنّه سبحانه عامل الطرفين في هذه الخصومة على حدٍّ سواء؛ فقد طلب الله من موسى وأخيه أن يحاورا خصمهما (عدو الله) باللين وذلك بسبب طغيانٍ سابقٍ، فقال سبحانه لموسى عن فرعون (أنّه طغى) بالفعل الماضي، وفي ذلك حكمة، لأنَّ استعمال الفعل المضارع للحاضر (يطغى) أو الفعل المضارع للمستقبل

---

[141] طه 43 . 50

(سيطغى) فيه حُكم مُسبق من الله على فرعون مع علمه سبحانه أنّ فرعون سيبقى على طغيانه لكن الله يريد أن يعلِّم موسى صلى الله عليه وسلَّم وخلفاء الله في الأرض من بعده عدم إصدار الأحكام المسبقة لأنَّ ذلك خلاف الحياد الذي يدعو الحكم العدل إليه.

وعليه فالحَكَم العدل سبحانه يساوي بين عباده، ولا يفاضل بينهم إلا بالعمل الصالح الذي يتقرَّبون به إليه، وليس أدل على ذلك من تعامله سبحانه وتعالى مع أنبيائه، فعندما دعا سيدنا إبراهيم صلى الله عليه وسلَّم لذريته أجابه الله تعالى إجابة تشع بالمساواة، يقول عز وجل: {قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}[142]، فذريّة إبراهيم على شرف الانتساب يتساوون مع بقية عباد الله، فلا فضل لهم وإن انتسبوا إلى إبراهيم إنْ هم ظلموا أحداً من الناس، فالأولى بالخليفة أنْ يساوي بين رعيّته فلا يقرِّب أحداً لنسبٍ أو لمودةٍ، ويباعد آخر لقطيعةٍ أو عداوةٍ، وإنَّما الرعيَّة سواء.

والمساواة في ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليات شرط أساس في العدل مع من تحب أو من تكره، وهذا ما يدعونا إليه الحكم العدل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}[143].

ولذا فمن واجب الخليفة عدم التفريق بين الأولياء والأدعياء في الحُكم، فلا يزيد في عقوبة قوم يبغضهم، ولا يخفف من عقوبة قوم يحبَّهم، فهم أمام

---

[142] البقرة 124

[143] المائدة 8 9

العدل حُجّةُ بِحُجّةٍ سواء، فتحقيق العدل يتم بالابتعاد عن الأحكام التي تصدر عن الهوى.

إذن فمن يبتعد عن الظلم يقترب من العدل، ومن يتّقي الله ربّه لا يظلم من عبيده أحداً، قال تعالى: {وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ}[144]، ويقصد بالعبيد من يُراد لهم أن يكونوا خلفاء مطيعين له، ولذا فهو بعدله لا يظلم أحداً من خلقه؛ فلِمَ يقبل بعض الخلق أنْ يظلم البعض!

التقدير

التقدير قيمة تقييميّه، تربط الجهد بالإنتاج أو المدخلات بالمخرجات. قيمة عليها يكون التسابق بكلِّ قوّة مع المحافظة على المسافة التي تسمح للآخر بالحركة في ذات الاتجاه دون عرقلة مقصودة، وبناء على النتائج المنجزة تتميز كل خصوصية بما تمتاز به عن خصوصيات الآخرين. ولذا لا يمكن أن تسود قيمة التقدير بين الناس إذا لم يمارسوا الحرّية بأسلوب ديمقراطي.

التقدير عملية يتم من خلالها تحديد طبيعة وأسباب وعلل الحالة أو المشكلة وتحديد احتمالات اتجاهات تطوُّرها والمتغيرات المتداخلة معها، وتحديد دور المسؤول حيالها وفقاً لدائرة الممكن المتوقع السالب والمتوقع الموجب، وكذلك غير المتوقع السالب وغير المتوقع الموجب.

فالتقدير مطلب يُشبع رغبة، مما يستوجب من راغبٍ في ممارسة السلطة أو امتلاك الثروة، أن يحسّ بتماثل حاجات الآخرين له في ممارسة هذه الحقوق وامتلاكها. لذا عندما يصل (الأنا والآخر) إلى هذا المستوى من التقدير ينال كل منهما نصيبه بإرادة، ويتمكنان من العيش سوياً ومعاً في المكان والزمان الواحد، وينال كلّ منهما مكانة عند الآخر، مما يجعلهما

[144] الحج10

يشعران بحاجتهما للبعض وأنَّ كلّ منهما على درجة من الأهمية التي لا ينبغي أن يُستهان بها أو يُغفل عنها.

ولذا فالوسطيّة المعيارية التي هي إحقاق حقّ وعدلٍ وإرادة جاءت لترسّخ الفضائل الخيِّرة والقيم الحميدة بين الناس كافة، ولهذا فإن قيمة التقدير حقٌّ لكل الخلق من حيث:

. إنَّهم (كل الخلق) الذين بداية لم يكونوا مسلمين، ولهذا فالرسالة لم تستثنِ أحد من مستهدفاتها؛ فبعث الله الأنبياء والرُسُل مبشّرين ومنذرين ومحرّضين على هداية الناس للحقّ بالحقّ، فاهتدى من اهتدى، وكفر من كفر، وأشرك من أشرك، وضل من ضل، {قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[145].

. إنَّهم (كل الخلق)، من أسلم وجهه لله تعالى ومن لم يسلم، من أسلم ليكون مؤمناً علماً ومعرفةً حتى يكون أسوة حسنة لغيره في القول والفعل والعمل والسلوك. ولِمن لم يسلم بعد لأجل أن يسلم؛ فالدين من عند الله للكافة بداية ونهاية، {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا}[146].

---

[145] البقرة 33 . 37.

[146] سبأ 28.

ولأنَّ الدين للكافة بداية ونهاية؛ فهو لم يكن للبعض، بل هو لمن يقول أنا مسلماً ولمن لم يقلها بعد، ولهذا فالوسطيّة معيارها إحقاق حقٍّ وعدلٍ بين الكافة بهما وببقيّة معاييرها الموضوعيّة تسعى لطي الهوة بين الأنا والآخر ولا تسخر من أحدٍ، وإن سخرت من أحدٍ فلن تكون بوسطيّة، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[147].

ومع أنّ الإنسان خُلق في أحسن تقويم مصداقاً لقوله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[148] إلا أنّ البعض هُمْ على حالة من السفاهة أو الوهن أو عدم الاستطاعة، ولهذا فالوسطيّة معيار حقّ إذا حكمت بين الأفراد بالعدل اتزاناً، وعليها أن لا تغفل عن هذه الفروقات الفردية التي بها كان البعض قدوة حسنة وكان البعض الآخر على سفاهةٍ وضعفٍ وعدم استطاعةٍ، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى}[149].

إذن التقدير لا يكون قيمة ومعياراً والجحود منتشر بين الناس، بل يسود قيمة ومعيارياً والناس متبيّنينَ للحقّ، وله ذاكرين، وعليه شاهدين؛ فلا

[147] الحجرات 11.

[148] التين 14.

[149] البقرة 282.

يخفونه ولا يخفون شيءٍ منه، ويعملون على إظهاره تقديراً لمن كان سبباً في إيجاده وظهوره، والذين ينظرون إلى الحقّ ويخفونه؛ فهم لم يُقدِّروا الحقّ، وهذه من صفات الكفرة والمشركين والمنافقين، قال تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ}[150].

الاعتراف

الاعتراف قيمة إثباتية تستوجب وجود الآخر الذي له من الأهميّة ما يساوي أهميّة وجود الآخرين، وهي القيمة الانتشارية التي يرغب الكلُّ في نيلها من الكلِّ؛ فهي تربط الفرد بالمنزلة، وتربط الخصوصية بالمكانة. ومع أنَّ العبودية مستهدفة بالتحرير إلا أنَّ الذي تجبره الحاجة قبول العبودية، يريد هو الآخر أنَّ يعترف له سيده بأنّه عبدُ ناجحُ. ولذلك فإنَّ جميع الناس يريدون نيل الاعتراف من الجميع؛ فالوالدان على سبيل المثال يحاولان أن يخلصا في رعاية أبنائهم، وذلك لكي ينالا منهم الاعتراف بأنَّهم صالحون مصلحون. ويحاول الأبناء أيضاً أن يكونوا صالحين لكي ينالوا الاعتراف أولا من أبائهم، وثانيا من الآخرين. وهكذا المسؤول الديمقراطي يكد ويجد مع وافر الشفافيّة لكي ينال الاعتراف ممن تربطه بهم علاقات المسؤولية الوطنيّة. وفي مقابل ذلك نحتفظ بأن لكلِّ قاعدة شذّ.

إذن فمن الضرورة أن يُشعِرَ المسؤول مواطنيه أفراداً وجماعات بأهميته مسؤولاً مقدّراً بإحقاقه الحقّ وعدله وسماحته ولين جانبه كي يعترف له مواطنيه الذين ارتضوه حكماً بمقدرته على العمل والمشاركة والتفاعل والعطاء بلا حدود إلى النهاية.

---

[150] الأنعام 91.

ولذا فالاعتراف قيمة معياريّة حميدة تدل على أنّ الإنسان مع أنّه خُلق في أحسن تقويم إلا أنّه لم يُخلق على الكمال، ولهذا فهو دائماً في حاجة للمشاورة مع الآخرين كي لا يغفل أو يجهل أو يقع في أخطاء يترتب عليها ألم وندم، {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ}[151].

تؤكد هذه الآية الكريمة على أهمية اللين وحُسن المعاملة بين الناس وإن كان الأمر بين الرسول وقومه أو الرسول والكافّة، ولأنَّ أمر الناس يتعلّق بهم أفراداً وجماعات ومجتمعات، لذا فإنْ كان الأمر مُتعلّقاً بفردٍ واحدٍ فمشاورته فيه لا تزيده إلا رُشداً، وإن كان الأمر يتعلّق بالزوجين فللزوجين أمرُ مشتركُ لا ينبغي إنفراد أحد الزوجين بالأمر المشترك على حساب الآخر وحريته واعتباره وكرامته وحقوقه وواجباته ومسؤولياته، وهكذا إن كان الأمر يتعلّق بالناس كما هو حال أمر الوطن الذي يتعلّق أمره بكلِّ المواطنين؛ فيجب إشراكهم قراراً وتنفيذا ورقابة في المشاورة التي بها تتم ممارسة الحقوق بإرادة وأداء الواجبات بوعي، وحمْل المسؤوليات وتحمُّل ما يترتب عليها من أعباءٍ جسام.

إذا كان هذا الحال في زمن الرسول عليه الصلاة والسلام الذي أمره الله تعالى أن يشاور من يتعلق الأمر بهم؛ فكيف إذن يكون حال الأمر من بعده، قال تعالى: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[152] أي في حياتك يا رسول الله شاورهم في الأمر، أمّا من بعد حياتك فأمرهم شورى بينهم، أي كلّ من يتعلق الأمر بهم ينبغي أن يكون أمرهم بينهم شورى حيث لا إكراه في الدين ولا تغييب ولا إقصاء.

---

[151] آل عمران 159.

[152] الشورى 38.

ولأنَّ الإسلام دين الكافة فالوسطيّة تُقرُّ بأن للكافة حقوق تُمارس وواجبات تؤدى ومسؤوليات تُحمل؛ فلا تُفرّق بين الأنا والآخر التزاماً بأمر الله تعالى سواء أكان ذلك على مستوى أفراد الأسرة أم جماعة بعينها أم على مستوى الناس كافة، {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ}[153].

ولأنّ الإسلام دين الحقِّ والعدلِ فهو لا يكون كذلك إلا بأسباب وجود الأنا والآخر، ولهذا فضيلة الحقّ والعدل المعياريتين هما فضيلتا الاعتراف بالأنا والآخر وتقديرهما تقديراً عالياً، {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ

---

[153] النساء 11، 12.

بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[154].

الاعتبار

الاعتبار قيمة معرفيّة تربط الوجود بالمكانة، كما يرتبط التاريخ بالعِبر، فيها لا يُغض النظر بين الأنا والآخر، حيث لا مكانة للاستهانة التي تُفرّق بينهما أو تَغيّب أحدهما أو تتجاهله.

فالاعتبار قيمة معياريّة تُظهر المكانة وتُعطها لمن يستحقها من الأفراد والجماعات والمجتمعات، ولذا لا يتمّ الإغفال أو غظ النظر عمّن هو ذو مكانة اجتماعية أو علمية أو نفسية أو أخلاقية؛ فالمكانة يُلتفت إليها وهي لا تُخفى، والقاعدة تقول: (اعتبرني أعتبرك، وإذا تجاهلت وجودي أتجاهل وجودك).

إذن الاعتبار المعياريّ يؤصّل القيم والفضائل حقائق ثابتة في الأقوال والحِكم والأفعال والأعمال والسلوكيات البشرية، وبها يتم نيل الاحترام والتقدير من الذين ساهموا في غرسها أو أنَّهم في حالة تماثل قيمي مع من تُكوِّن كبريائهم.

وهي قيمة معيارية تربط الإنسان بالحقائق الاجتماعية التي تجعل الفرد وكأنّه أمّة، أو وطن بحاله، أو دين بكامله. ولهذا يصبح الشرف والوطن والأمّة والدين من المكوِّنات الرئيسة لذات الفرد الذي يقبل أن ينتهج خيراً من أجل أمّته وأنْ يُضحي في سبيلها.

ولن يكون للإنسان اعتبار وكرامة إذا حُرِمَ من ممارسة حقوقه وتأدية واجباته وحمْل مسؤولياته بإرادة، مما يستوجب تفطين الأفراد إلى أهميّة

---

[154] النور 61.

الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة التي تجعلهم مستخلفين في الأرض مصلحين لا مفسدين فيها ولا سافكي دماء بغير حقّ.

ولأنّ الإنسان قيمة في ذاته فقد فضّله الله تعالى على كثيرٍ مما خلق وكرّمه في البر والبحر ورزقه من الطيبات من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب، {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}[155].

ولأنَّ الإنسان مُكرّم خَلقاً على حُسن التقويم؛ فهو الإنسان المعتبر بحسن خُلقه؛ والمكرّمون هم المؤمنون حقّاً الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وهؤلاء هم المُمكّنين في الأرض إعماراً وفلاحاً وصلاحاً وإصلاحاً، {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}[156].

ولأنَّ الله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم؛ فيجب أن يكون الإنسان على حُسن الخُلق حتى يتمكّن من نيل الاعتبار من الآخرين إن وَظَّفَ عقله واستثمر فكره الخيّر فيما يجب، ولهذا معرفة الأنا للآخرين عن حُسن خُلق مع فائق التقدير تضعه في المكانة المعتبرة مع وافر الاحترام، {يَا

---

[155] الإسراء 70.

[156] الحج 39 . 41.

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[157].

الاعتبار قيمة معياريّة مُستحبّة بين الناس الكلُّ يبحث عنه، ولكن بلوغه لا يكون إلا بالجهد الرفيع ولا يكون إلا بالقدوة الحسنة في القول والفعل والعمل والسلوك، ولهذا تنال الوسطيّة المعياريّة الاعتبار بما تفعله مؤسس على الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة التي يرتضيها الناس في مرضاة الله تعالى، {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}[158]، أيّ الذي يعمل سوء لا يمكن أن ينال الاعتبار من الآخرين، وذلك لعدم اعتباره الآخرين بالعمل الصالح المسبب في نيل الاعتبار.

إذن من يريد نيل الاعتبار من الناس فعليه بعدم ارتكاب أفعال السوء الظالمة لنفسه وللآخرين، ولأنَّ الإنسان لم يُخلق على الكمال؛ فهو يخطأ ويصيب ويغفل ويفطن؛ فإن استغفر عمّا يرتكبه من ذنب يجد الله غفّاراً رحيماً، {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا}[159].

. الإصلاح:

الإصلاح فضيلة وقيمة معياريّة به يتم تمييز الجادين والعاملين والمنتجين والمصلحين عن الكسالى والمفسدين والمُخْربين بيوتهم بأيديهم {يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ}[160].

---

[157] الحجرات 13.

[158] فُصّلت 46.

[159] النساء 110 . 112.

[160] الحشر 2.

ولأنّ الإصلاح فضيلة معياريّة؛ فهو حقّ يجب أن يُفعل من قِبل المصلحين الذين اتخذوا الوسطيّة معياراً بها تقاس الجهود والأعمال والأفعال، وبها ينتظم السلوك وتُنظّم العلاقات بين الأفراد والجماعات والمجتمعات الإنسانية، ولذا فإنَّ إصلاح حال من يكون قاصراً خُلقاً أو تعليماً أو عملاً لأجل أن تزداد المنافع والفوائد وتقوّم الأخلاق وتُقوَّى الروابط الاجتماعية والإنسانية، وتترسّخ العقيدة؛ فهوى من مستهدفات الوسطيّة التي تعترف بالآخرين ليكون الاندماج بين الأنا والآخر على مودّة وسلام. {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[161].

الإصلاح فضيلة معياريّة يُرسي قواعد التعاون والمشاركة والمشاورة لأجل أن يعمَّ الصلاح وتطوى المفسدة من على وجه الأرض، ولذلك فالغاية من الخلقِ على الأرض هي الاستخلاف فيها بالإصلاح، مما جعل المفاسد في مواجهة محققات الغاية (إصلاحٍ وإعمارٍ وفلاحٍ)، ولهذا من يعمل صالحاً يجني أجراً صالحاً ومن يُفسد فيها تُفسدُ عليه مصداقاً لقوله تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ}[162].

ولأنّ غاية الوسطيّة الإصلاح جاءت الأمّة الوسط شهيدة على الناس؛ فهي تأمر بالصدقة والمعروف وتنهى عن المنكر وتعمل كل ما في وسعها لأن تُصلح ذات البين بين الناس، ولهذا ستكون هي الشهيدة عليهم يوم أن يكون الحقّ شهيداً (حاضراً)، {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ

---

[161] البقرة 220.

[162] هود 117.

بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}[163].

. العمل الصالح

العمل الصالح هو الذي يجازي الله عليه بنيل الأجر ونيل الثواب، والجزاء من عند الخالق دائماً هو أوفى وأوفر من جزاء المخلوق للمخلوق، ولهذا فالعمل الصالح هو في حاجة للإتقان الذي به يُجوّد، {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[164]، ترشد هذه الآية الكريمة إلى أنّ جزاء العمل الصالح لا فرق فيه بين ذكرٍ وأنثى، فمن يعمل مثقال ذرة خير يجاز عليه أوفى الجزاء ومن يعمل مثقال ذرة شرٍ يجازى عليه بقدرها عقابا، {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا}[165].

ولأنّ العمل الصالح فضيلة وقيمة معياريّة في الفكر الوسطيّ؛ فهو العمل الباقي بعد موت أصحابه، ولهذا فعمل الشهادة يُبقي الشهداء أحياء عند ربِّهم يُرزقون، وكذلك يُبقي الصالحين صالحين في أنفسهم وما يكتنزون، {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}[166].

---

[163] النساء 114.

[164] النحل 97.

[165] النساء 40.

[166166] الكهف 79 ، 82.

ولأنَّ العمل الصالح فضيلة معيارية للوسطيّة حيث لا مظالم ولا مفاسد، فهو مُدخل التائبين الذين أمونوا الجنّة، {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا}[167].

العمل الصالح يتعدّد ويتنوّع ويتجدّد وفوائده تعمُّ الأمّة، {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا}[168].

تحتوي هذه الآيات الكريمات على مجموعة من المعايير التي تجعل من الفرد أمّة كما هو حال إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وتجعل من الأمّة بكاملها خير شهيدٍ على الناس، ومن هذه الفضائل القيمية المعياريّة:

---

[167] مريم 60 . 63.

[168] الفرقان 63 . 75.

. عدم التكبُّر في الأرض والاستكبار على الناس، {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا}[169]، وقول لقمان لابنه خير شاهدٍ على الطاعة لله والتواضع على الأرض، {يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}[170].

. القول الطيب المعروف اللين صدقة يؤسس قاعدة المودة والمحبّة بين الناس، {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ}[171].

. الإقامة في الليل عبادة تزيد العبد خشوعاً وتُقرّبه من ربّه طاعة.

. المخافة من جهنّم حباً في الجنّة.

. الإنفاق في أوجهه دون إسراف ولا تقتير.

. اتخاذ الحقّ وسطاً ولا حياد عنه.

. عبادة الله واحد أحداً لا شريك له.

. عدم قتل النفس التي حرّم الله إلا بالحقّ.

. عدم ارتكاب أفعال الزنا.

. التوبة من الذنوب.

. الإيمان بالحقّ والعمل على إحقاقه.

---

169 الإسراء 37، 38.

170 لقمان 17 . 19.

171 البقرة 262، 263.

. الإكثار من الأعمال الصالحة.

. الشهادة حقّ لا يُشهد إلا به حقاً.

. عدم الخوض في اللغو.

. الوعي بآيات الرحمن والأخذ بها عند كل مُذكِّرٍ دون أيّ غفلة.

. سؤال الرحمن الرحمة في الزوجة والأبناء ليكونوا قُرَّة أعين.

. القدوة الحسنة في القول والفعل والعمل والسلوك.

. التوافق

التوافق لا يكون إلا بتطابق المطلب مع الرغبة، وتطابق الحاجة المتطوّرة مع مشبعاتها المتنوّعة وظروفها الموضوعيّة، وهو المحقّق للرضا دون تقديم تنازلات بغير حقّ.

التوافق انسجام إرادي، تتطابق به الأقوال والأفعال مع الموضوع بين الأنا والآخر، ويحقّق انسجاماً وتطابقاً بين أراء وأفكار ووجهات نظر المشاركين في الموضوع الواحد ما يجعل المشاركة بين الطرفين موجبة لتساوي كفتيهما بإرادة. وهذا لا يعني أن لا يكون التوافق سالباً، فمثلما يتوافق الإصلاحيون كذلك يتوافق المفسدون، والفرق بينهما الموضوع والغايات التي من ورائه.

ولأنَّ التوافق مع الإيجابيات توافق مع الحقّ؛ فأصحاب الحقّ لا يُقرُّون إلا حقّاً وعدلاً وبكل إرادة، ولذا فالذين يوفون الكيل والميزان بالقسط عند كلّ موزونٍ ولا يبخسون الناس أشياءهم هم المستخلفون في الأرض إصلاحاً وإعماراً وهم المتوافقون مع الحقِّ والعاملين على إحقاقه، {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا

الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}[172].

ومع أنّ التوافق واحد إلا أنّ للتوافق أنواع موضوعية كتوافق الزمن مع الزمن وتوافق المكان مع المكان وتوافق الظرف مع الظرف وتوافق الودِّ مع الودِّ وتوافق الظلم مع الظلم، وهكذا التوافق لا يتعدد ومواضعه ومعطياته تتعدد، حتى في القصاص لا حلَّ للمشكل ولا حكم فيه عدلاً إلا بالتوافق، {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ}[173].

ولكن متى سيكون التوافق سائدا بين الناس من وجهة نظر الوسطيَّة؟

. بعد أن يكونوا طائعين لله تعالى.

. بعد أن يكونوا طائعين للرسول الكريم.

. بعد أن يكونوا طائعين لأولي الأمر منهم بإرادة.

. بعد أن تسود بينهم فضائل وقيم طاعة الوالدين في غير معصية الله تعالى.

. بعد أن ينتهوا عن ارتكاب أفعال الرذيلة.

. بعد أن ينتهوا عن الكذب.

. بعد أن ينتهوا عن الفسق.

. بعد أن ينتهوا عن المنكر.

. بعد أن ينتهوا عن الكيد لبعضهم بعضاً.

. بعد أن ينتهوا عن أعمال التطفيف للكيل والميزان.

. بعد أن ينتهوا عن أفعال الزنا.

---

[172] هود 84 ، 85.

[173] المائدة 45.

. بعد أن ينتهوا عن أعمال وأفعال السحر والشعوذة.

. بعد أن ينتهوا عن أفعال المظالم.

. بعد أن ينتهوا عن أعمال الخيانة.

. بعد أن ينتهوا عن السرقة.

. بعد أن ينتهوا عن أعمال التزييف.

. بعد أن ينتهوا عن أعمال الإفساد في الأرض وسفك الدماء فيها بغير حقّ.

. بعد أن ينتهوا عن أفعال الإسراف.

. بعد أن تسود بينهم فضائل وقيم التسامح.

. بعد أن تسود بينهم فضائل وقيم التآخي.

. بعد أن تسود بينهم فضائل وقيم التعاون.

. بعد أن يعتمدوا فضيلة الجهاد والفداء في مقرراتهم التعليمية ووسائلهم الإعلامية والثقافية إحقاقاً للحقّ وإزهاقاً للباطل (هما كما هما) نصّاً قرآنياً منزلاً دون مبالغة ولا تعمّد غير موضوعي.

. بعد أن يُصَحِّحوا مفاهيم دينهم القويم مما علق بها من عالقات ليست في محلّها ابداً.

. عندما لا يتمسّكوا بوجوبيّة تماثل القيمة مع الواقع وكأن القيم تمتلك مطلقية الثبات، ففي بعض الأحيان الواقع يتقدَّم على القيم مما يستوجب العمل على تقييم القيم وتقويمها لكي تواكب حركة التغيّر والتقدم إلى الأفضل والأجود والأنفع، وفي البعض الآخر الواقع يتخلّف كثيراً عن معطيات القيم مما يستوجب عدم الركون إلى الواقع المتخلف والتمسّك بالقيم المستمدة من الفضائل الخالدة والأعراف الرائدة.

الاستيعاب

الاستيعاب قيمة معياريّة احتوائية لا اقصائية، تعتمد تقبُّل الآخرين هم كما هم لتنطلق بهم من حيث هم إلى حيث ما يجب، وتعترف بأنَّ لهم حقوقاً يجب أن يمارسوها، ولهم واجبات ينبغي أن يؤدوها، ولهم مسؤوليات يجب أن يتحمَّلوا أعباءها، ولذا لا تُحلّ المشاكل بين الناس إلا بالاستيعاب ولا يُصنع المستقبل المشترك إلا بالاستيعاب الذي يُحفّز على التقارب ويؤدي إلى التفاهم.

الاستيعاب يُمكِّن الأنا والآخر من معرفة الحقائق ويمكّنهم من نيل التقدير والاعتراف والاعتبار قيماً تطوي الهوة بينهما وتحقِّق لهما الاندماج دون أن يكون أحد على حِساب آخر، ولذلك على الأنا والآخر كمفردتين إذا أرادا أن يستوعبا بعضهما ويستوعبا من له علاقة بهما أن لا يغفلا عن:

. استيعاب الإيجابيات، والتأكيد عليها، ونقلها للآخرين بوسائل مبسّطة، تمكّنهم من التعرّف عليها، وتحفّزهم على العمل بها.

. استيعاب السلبيات، وتحديدها، وإبراز عيوبها وأسبابها والعمل على إزالتها، وتنقية الموضوع منها، وتبيان الأضرار الناجمة عنها، ولهذا ينبغي استيعاب المعلومات السالبة كما يتم استيعاب المعلومات الموجبة، من أجل معرفة نقاط الاتفاق والاختلاف، حتى تتمّ عمليات التثبيت للموجب المُفضَّل، والإزالة للسالب غير المفضّل.

الاستيعاب قيمة احتوائية، تقبل بالاختلافات المشروعة وتعمل على احتوائها، فمن طبيعة الخلق أنّهم لا يتساوون في القدرات والاستعدادات والمهارات ولا في الرغبات والحاجات، ولا في درجة الفهم والمعرفة، ولذا فمن الضرورة سيكون الاختلاف الذي يستوجب التفهُّم وتقدير الظرف.

الاستيعاب بالنسبة للوسطيّة معيار تقييمي مُستمد من قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}[174].

تبيّن الآية الكريمة السابقة أنّ الاستيعاب قيمة معياريّة جمعيّة على ثلاثة مراحل، و تحمل أيضاً في مضمونها استثناءً:

المرحلة الجمعية الأولى: جاءت المخاطبة للأمّة الوسط جميعها لا لفرد ولا لجماعة بعينها ولا لطائفة من طوائفها، ولكن كيف يمكن للأمّة الوسط أن تكون مجموعة (وحدة واحدة)؟

بالتأكيد الأمر ليس هيناً مع أنّ معطية الجمع بيّنة لا غبار عليها؛ فالأمّة الوسط بدون شك لا يجمعها إلا الحقّ البيّن، والحقّ بالنسبة للأمّة الوسط منزَّل تنزيلاً، ولأنّه الحقّ من عند الله؛ فهو الثابت الذي لا يتغيّر، ولهذا ستكون الأمّة الوسط شاهدة على الناس يوم القيامة بالحقِ الذي لا يتغيَّر.

المرحلة الجمعيّة الثانية: جاءت المخاطبة للناس (الجمع المطلق) مصداقاً لقوله تعالى: (لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)؛ فهي لم تستثني أحداً من الناس أفراداً وجماعات وطوائف وشعوب وقبائل وأقوام وأمم، وذلك لأنّ الدين الذي ستكون الأمّة به شهيدة على الناس هو دين الناس كافة (الإسلام).

المرحلة الثالثة: أنّ الأمّة التي ستكون شهيدة على الناس يكون الرسول الكريم محمَّد عليه الصلاة والسلام هو الشهيد عليها، ولأن الأمّة كل الأمّة هي شهيدة على الناس كل الناس؛ فبطبيعة الحال سيكون الشهيد على الشاهدين على الناس شهيداً على الكافة، ولأنّ الرسول محمَّد عليه الصلاة والسلام مُرسل للكافَّة فكيف لا يكون هو الشهيد على الكافة. {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا

[174] البقرة 143.

الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ}[175].

وإذا تساءل أحد عن موعد الشهادة على الناس؛ فهو بدون شك سيكون يوم أن يكون محمَّداً شهيداً عليهم، (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ).

وعليه بدون شك ستكون الشهادة على الناس بالحقّ الذي وُصِفت به الأمّة بأنها أمّةً وسطاً.

أمّا الاختصاص الذي يحمله مضمون الآية من الشهادة هو اختصاص لأمّة الإنسان، وذلك لأنَّ الأمّة الوسط هي الشهيدة على الناس بجميع أممهم أمّا الأمم الأخرى من غير بني الإنسان فلن تكون الأمّة الوسط شهيدة عليها، {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ}[176]، وقال تعالى: {قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ}[177]؛ فقوله تعالى: (لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) دليل إثبات أنّ شهادة الأمّة الوسط مقصورة على الناس وليست عامة على كل الأمم خارج النوع البشري.

التقبُّل

التقبُّل قيمة معياريّة يؤسس على استعداد النفس لإعطاء الآخر قيمة وحيّزاً من الاستيعاب وفُسحة تسمح بالامتداد المتبادل بين المتقابلين على الموضوع المشترك تقديراً لقيمة الإنسان التي خُلِق عليها في أحسن تقويم، ولأنَّ الإنسان مكوّن تركيبي معقّد فله من الأنفس ما يجعل البعض على

---

[175] سبأ 28 . 30.

[176] الأنعام 38.

[177] الأعراف 38.

الطمأنينة ويجعل البعض على غيرها اضطراباً وخوفاً وقلقاً وشُحّاً، لذا ينبغي أن يتم تقبُّل هؤلاء هم كما هم لأجل نقلهم إلى ما يجب أن يكونوا عليه من الفضائل والقيم والعمل النافع.

يتمركز مبدأ حقّ التقبُّل على الاعتراف بالآخر وتقديره واحترامه واحترام معارفه وثقافته والعمل على تغيير حاله إلى ما يجب ثم التطلُّع به إلى إحداث النُقلة التي بها يُصنع المستقبل.

التقبُّل قيمة معياريّة تبادلية بين ذوي العلاقات بالموضوع؛ فكما أنّ التقبُّل حقّ على الأنا هو حقّ على الآخر وحق لهما، وإن قَبِلَ الأنا الآخر (هو كما هو) وجب على الآخر أن يقبل الأنا (هو كما هو) ليعملا بإرادة سوياً ومعاً من أجل مصالح وأهداف مشتركة سواء أكانت المصالح المشتركة بين أفراد الأمّة وجماعاتها أم أكانت بينها وبين الآخرين من الأمم الأخرى التي ستكون الأمّة الوسط شهيدة عليها.

فحقُّ التقبُّل فعل إرادي تكفله الفضائل الخيّرة والقيم الإنسانية لكلِّ إنسان حتى يتمكّن من ممارسة حقوقه وأداء واجباته وحمْل مسؤولياته برغبة، {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[178].

بناء على هذه الآية الكريمة الوسطيّة تلتزم التزاماً تاماً بتقبّل من يؤمن بآيات الرحمن؛ فمن يقول لأبناء الأمّة سلام عليكم ليس لهم بدّاً إلا أن يردوا السلام بودٍ وبأحسن منه وهذا دليل ترسُّخ مبدأ التقبُّل في نفوسهم وأخلاقهم المستمدة من الفضائل الخالدة المستمدّة من كتاب الله تعالى. ثم أكّدت الآية الكريمة أهميّة مبدأ التقبُّل للأخر الذي تاب وأصلح من بعد

[178] الأنعام 54.

ارتكابه أفعال سوء بجهالة، وأكّدت على أنّه سينال المغفرة من الغفور الرحيم.

ولأنّ التقبُّل قيمة معياريّة يؤسس للالتقاء؛ فهو قيمة مفضّلة بين الناس مع افتراض حُسن النيّة من الطرف الذي قرّر أن يتقبّل الطرف الآخر، وإذا قرّر الطرفان ذلك فإن حُسن النيّة المفترض هو القيمة المقدّرة من قبل الأنا والآخر حتى وإن أحدهما كان منافقاً ثمّ أصبح على غير ذلك تائباً عمّا سلف فأصلح واعتصم بالله وأخلص دينه له؛ فالله تعالى يريد للإنسان أنْ يكون على حُسن التقويم وحُسن الخُلق؛ فمن تاب تاب الله عليه، والعذاب لم يكن غاية في ذاته، فإن آمن من آمن فماذا يفعل الله بعذابه، {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا}[179].

التقبُّل لم يكن لغرض القبول في ذاته بل لغاية التغيير إلى الأفضل والأجود والأحسن، ولهذا يتمّ استهداف الآخر بالتغيير من خلال تقبُّله هو كما هو والعمل معه من أجل نقله إلى ما يجب وهو إحقاق الحقّ علاجاً وإصلاحاً وحلّاً؛ فلا اشتراطات للمحبّة في التقبُّل، ولكن من أجل أن تصبح المحبّة والمودة سائدة بين الناس؛ فإن سادت ساد التوافق والتعاون والإصلاح والإعمار وينتهي الفساد وسفك الدماء في الأرض بغير حقّ؛ فما فعله نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام من تقبّل مع السحرة من قوم فرعون هو لأجل تغيير أحوالهم من الشرك والكفر إلى الإيمان، فموسى لم يقل لا أقبل أن أجادل كافراً بل جادلهم حتى اهتدوا إلى الحقّ الموحى إليه

---

179 النساء 145 . 147.

وهو الذي به كان موسى مجادلاً، قال تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ}[180].

ولأنّ التقبُّل قيمة إظهار حُسن النيّة بهدف إصلاحي ولأجل غاية عظيمة؛ فلا ينبغي أن يكون في التقبُّل شيئاً من الرفض أو غظ النظر أو الإقصاء والتغييب والتحقير والاستعلاء؛ فمن يكون طرفاً في العملية الإصلاحية يجب أن لا يُغفل عنه بل حضوره ومشاركته أمراً مهمّاً لمن أُريد له أن يكون قدوة حسنة، وكذلك لمن كانت غاياته التسامح والتوافق والتعاون والتواد لا بدّاً إلا أنْ يتقبّل الآخرين هم كما هم من أجل تغيير أحوالهم من سلبيّة إلى إيجابيّة، ولذا فمن يأتي راغباً في الهداية والإصلاح فله الأولويّة بالتقبُّل والالتفات إليه بعناية وتقدير، {عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ}[181].

التفهُّم

---

[180] الشعراء 41 . 51.

[181] عبس 1 . 12.

التفهُّم إلمام بالموضوع لا يتم إلا بعد إلمام بحيثيات الأمر والظروف المحيطة به والمعطيات التي أظهرته على السطح أو أنتجته بين الأيدي، وهو دراية عن كثب ومعرفة تامّة بالأسباب والعلل والمبررات والخفايا المؤلمة والمفرحة السالبة والموجبة؛ فالتفهُّم يتطلب توفير الوسائل المُمكِّنة للنجاح مع وضوح الغايات المستهدفة وما ورائها من غايات.

التفهّم قيمة معياريّة حميدة به يُقدِّر الآخر ويقِّدر الأمر أو الموقف، ولذلك فالفرق كبير بين من يُفَهَّم من قبل الله جل جلاله بما يجب أن يفهمه حتى يتّصف به كما هو حال سليمان عليه الصلاة والسلام، وبين من يعتمد على قدراته الشخصية في فهم الأمور وإدارة ما يتعلّق بها من أمر؛ ولكي يتمّ استيعاب مفهوم كلمة (مُ َفهَّم) علينا بمقارنة ما تدل عليه مع مفهوم كلمة (متفهِّم)، فالأولى مُفَهَّم التي تنطبق على سليمان تدلُّ على أنَّه مُفهَّم من عند الله عز وجل مصداقا لقوله تعالى: {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ}[182]، ولِأنّ سليمان كان مُفهَّما لما يجب في مرضاة الله فقد وهب الله عز وجل له حكماً وملكاً، وفهَّمه كيف يملك ويحكم، {وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آَتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا}[183].

أمّا التفهُّم؛ فهو تقدير للظروف التي قد تؤثر على المُلك والظروف التي قد تؤثر على سلوك الأفراد والجماعات، ولهذا التفهُّم دراية بما ينبغي أن يتمَّ حيال كل أمرٍ من أمور الحكم وكيف ومتى وأين يتمّ؟

التفهُّم قيمة تقديرية يُقدِّر الأنا فيها الآخر، ويفسح له مجالاً واسعاً يسمح له بالحركة والامتداد الحر، وباعتماد التفهُّم قيمة معياريّة بين الأفراد

---

[182] الأنبياء 79.

[183] الأنبياء 78، 79.

والجماعات والمجتمعات يكون تقدير الظروف وتقدير الخصوصيات سائداً، مما يؤدي إلى تفعيل مبدأ التقبُّل الذي يترتّب عليه تأثير وتأثر موجب، وتخفيف للآلام، وعلى ضوئه يتحقّق التوافق الاجتماعي والسياسي والاقتصادي بين الأفراد في ظل مُلك تسوده العدالة والانسجام والتعاون والوحدة والاتفاق الإرادي.

وعليه فمن يوهب صفة المُفهَّم من عند الله تعالى كما هو حال سليمان يُطمأن له ويوثق به ويؤخذ بأمره ويطاع مع الصلاة والسلام عليه.

ولأنّ التفهُّم قيمة أخلاقية معياريّة لربط العلاقات بين الأنا والآخر؛ فهي القيمة المقدَّرة والمعتبرة بينهما، ولهذا فالرُسُل الكرام أرسلوا لأقوامٍ وشعوبٍ وأممٍ كافرة ومشركة ليهدوها السبيل الحقّ، فلو لم يكونوا متفهِّمين لتلك الظروف والمعطيات التي جعلت من الناس كفرة ومشركين ما استطاعوا نشر دعوتهم والتبشير بها والتحريض على الأخذ بتشريعاتها، {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[184].

ولهذا فمن يعمل سوء بجهالة ثمّ يتوب، يتوب الله عليه، وبما أنّ الله يتوب على التوابين فلماذا البعض يحكم على الناس أحكام مطلقة؛ فمن أراد خيراً في حياته فعليه بدعوة الكفرة والمشركين إلى الحقّ، أمّا المسلمين فهدايتهم للأخذ بما يجب أمره أكثر تيسيراً إذا ما قورنا بدعوة الكافرين والمشركين، ولذا فالوسطيّة تتفهّم الظروف التي جعلت من البعض باقين على الكفر جهالة وكأنه وراثة، فتدعوهم بالعلم للتوبة، وتُعلمهم أنّ الله

---

[184] الأنعام 48.

غفور رحيم، {أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[185].

التسامح

التسامح قيمة معياريّة يؤدي إلى العفو الذي هو الإسقاط المطلق للعقوبة وليس تأخيرها، فالمقصود من العفو الإزالة {وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ للتقوى}[186]، ولهذا لم يكن المراد منه التأخير، بل الإزالة، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ والأنثى بالأنثى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[187].

إذن العفو فضيلة ظاهرة للتسامح به يتم إسقاط الحقّ برضا صاحبه دون أن يكون هذا الإسقاط على حساب أيّ من حقوقه وواجباته ومسؤولياته؛ فولي الدم كما جاء في الآية الكريمة السابقة له الحقّ على القتل، فإذا عفا ولي الدم عن شيء يتعلّق بالقاتل فليتّبع القاتل ذلك العفو بمعروف، وقوله: (شيء) جاء مبهماً فلا بدَّ من حمله على المذكور السابق وهو وجوب القصاص إزالة للإبهام، فصار تقدير الآية إذا حصل العفو للقاتل عن وجوب القصاص، فليتّبع القاتل العافي بالمعروف، وليؤدي إليه ما يؤدي بإحسان، وبالإجماع يجب أداء الدية، وما يؤكد هذا الوجه قوله (ذلك تَخْفِيفٌ مّن رَّبّكُمْ وَرَحْمَةٌ) أي أثبت الخيار لكم في أخذ الدية المتعارف عليها، وفي القصاص رحمة من الله عليكم، لأنّ الحكم في اليهود حتّم

---

[185] الأنعام 54.

[186] البقرة 237.

[187] البقرة 178.

القصاص والحكم في النصارى حتّم العفو فخفّف عن الأمّة وشرع لهم التخيير بين القصاص والديّة، وذلك تخفيف من الله ورحمة في حقِ هذه الأمّة.

ولذلك فالمتسامح هو فعل من يعلم الحقّ ويتّبعه دون تشدّد ولا تعصُّب ولا تنازلات وهو من يمتلك حقّ التصرّفَ في الأمر الذي يتعلّق به مما يجعل العفو والتسامح حقّ له فيما يود أن يسامح فيه أو يعفو دون أن ينازعه فيه منازع؛ وهو الذي يُقدّر الظرف والحالة ويستجيب لها مودة وإحساناً، وكذلك يُقدّر أنّ الإنسان يخطأ ويصيب؛ فإن اخطأ أو اضطرّ فلا أثم عليه وينبغي أن يراعى ظرفه كما هو الحال عند كل من:

أ . المضطر، والاضطّرار حالة مُلجئة للمخالفة على كل صعيد، كالحاجة إلى الطعام، إذ يمكن للاضطِّرار أن يوقع العبد في الحرام، وليس عليه شيء ما دام خارج سور البغي؛ فإذا دخله اختلف الحكم عليه، أمّا إذا حرص العبد على الطاعة واضطّر إلى الوقوع في ما حرم الله فإنه يجد الله العفو غفورا رحيما، {إِنَّمَا حَرَّمَ عليكم الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عليه إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[188]، لذا وجب على الخليفة أن يتنبّه إلى فكرة الاضطرار ويعرف معانيها، ويدرك حدودها بالتحديد ليستطيع التمييز بين عاصٍ باغٍ، وبين مضطّرٍ ذي حاجة، فيجعل لكلٍّ منهما حداً كما علّمه المولى عز وجل.

ب . الضعفاء والمرضى والمحتاجين، بكل أنواع العلل، أصابهم العفو برحمة من الله فرفع عنهم الحرج، {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى

---

[188] البقرة 173.

الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[189]، وهكذا المعاهون الذين يعانون من عاهة؛ فهم وظروفهم لا حرج عليهم عند المتسامحين، {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا}[190]

ج . الأطفال، وهؤلاء يُلتمس لهم العذر في أفعالهم وأقولهم إلى حدٍّ معيّن هو البلوغ، فإذا أتموه كانوا خارج الاستثناء، {وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عليم حَكِيمٌ}[191].

د . الشيوخ: غير أصحاب الحاجة إلى النساء وهم الشيوخ الطاعنون في السن الذين فنت شهواتهم، {غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ}[192].

وهذه الفئات أولى أن تكون مما يلفت انتباه الخليفة كونهم من المحتاجين إلى العون بشكل من الأشكال، فكان تنبيه الله تعالى لخليفته رحمة ورأفة بهؤلاء، وذلك ما يجب أن يتحلى به الخليفة، ليكون متسامحاً واسع العفو وأن يتسع صدره لكلِّ من يحتاج عونه الذي هو صفة لمن استمد صفاته من العفو المطلق.

وعليه فالتسامح إعلان المودة والمحبّة بين الناس وتجنّب الفتن من أجل علاقات مرضية وحسنة. يقول فولتير "أنا أكره ما تقول، ولكنني سأدافع حتى الموت عن حقك في أن تقوله" ولهذا من الفضائل الإنسانية، وجوب التسامح مع الآخر في الثقافة، والدين، والمعتقد والعرف. وإذا لم تَسُدْ قيمة

---

189 التوبة 91.

190 الفتح 17 .

191 النور 59.

192 النور 31.

التسامح بين الأفراد والجماعات والمجتمعات لا يمكن أن يسود الاحترام والتقدير بينهم.

ممارسة الحقوق

ممارسة الحقوق مبدأ معياريّ تؤخذ بإرادة أو تنتزع بالقوة، ولأنّها تؤخذ؛ فهذا يعني أن الحواس هي التي يتمُّ بها التعرُّف على الحقوق، ويتمّ بها أيضا إشباعها، ولذلك تؤخذ الحقوق عن طريق الحواس، فعندما تكون المشاهدة حقاً فلا ينبغي لأحدٍ أن يحرم آخر منها، وإذا كانت الملاحظة حقاً فلا ينبغي لأحدٍ أن يحرم آخر منها، وهكذا عندما يكون الاستماع والذوق واللمس والتفكير والتعليم والعمل حقوقاً فلا ينبغي لأحدٍ أن يحرم أحد منها، ولأنّها حقوق ينبغي أن تمارس بإرادة، ولذا فالحقوق تُسلّم فتُستلم عندما تكون في متناول الاثنين أو الأكثر.

والنظام الديمقراطي هو النظام الذي لا تقع فيه الحقوق في خانة المطالب، فإذا كانت في خانة المطالب فإنَّ ذلك يعني أنَّ هناك قيوداً تحول بين الطالب والمطلب (بين الحاجة ومشبعاتها).

إذن الحقوق ينبغي ألا تكون مطالب، بل ينبغي أن تكون إشباعات تؤخذ بإرادة وفقا للحاجة، فالسلطة حقّ والثروة حقّ لا ينبغي احتكارهما من أحدٍ، ولا ينبغي أن تكون مِنَّة من أحدٍ.

ولا يمكن أن تؤخذ الحقوق أو تمارس ما لم تتوفر اشتراطاتها الرئيسة وهي:

1 . الرغبة: القوة العقلية الموجهة لهدفٍ محدّدٍ أو موضوعٍ بعينه، وهي إحساس نفسي تجاه الآخر وشعور بالميل إليه، وهذا ما يجعل روح التجاذب تُحرّض على المتابعة والاقتراب ممن تتوفر فيه اشتراطات الإشباع المرّضي.

2 . الإرادة: تُعد الإرادة نشاطاً عقلياً على درجة عالية من الوعي يتمكّن من خلالها الفرد من اتخاذ القرار بحريّةٍ ويتمكّن من خلالها من الإقدام على الفعل، وفي ذات الوقت يمتلك صاحب الإرادة المقدرة على الفعل والسلوك.

3 . الطلب: نظراً للإحساس بالحاجة والتعرُّف على بواعث مشبعاتها تصبح المطالبة بالمُشبِع حقّ لا يمكن التخلي عنه، ولا يهدأ البال وتطمئن النفس إلا بأخذ ما يشبع ويحقق الرضا.

الحقوق هي جمع حقّ، والحق كأحد أضلاع المثلث متساوي الأضلاع المتكون من (الحقوق والواجبات والمسؤوليات) يرتبط بعلاقات مع أيّ ضلعٍ يشترك معه في الزاوية، ولذلك عندما يشترك الحقّ مع الضلع (أ ج) في الزاوية (ب أ ج) كما هو في الشكل رقم (1) تصبح هذه الزاوية مكوّناً علائقياً بين ضلعي الحقوق والواجبات، وهذا الالتقاء بين الضلعين يجعل في الحقِ واجباً مصداقا لقوله تعالى: {وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ}[193]، وقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ}[194]؛ فحقّت هنا بمعنى وجبت كلمة العذاب على الكافرين، وهذا يعني أن كلمت وجبت تعني في مضمونها كلمة حقّتْ، وهذا ما تُقره اللغة بأنَّ الحقّ هو "الثابت الذي لا يسوغ إنكاره من حقّ الشيء، يحقُّ، إذا ثبت ووجب"[195].

إذن علاقة قوية ومترابطة بين الحقوق والواجبات من خلال الزاوية (ب أج) المحصورة بين ضلعيهما وفي ذات الوقت يبيّن الخصوصية لكلٍّ منهما عندما يخضع كلّ ضلع للدراسة المتخصصة.

---

193 الزمر 71.

194 غافر 6.

195 الفروق اللغوية، ج 1، ص 193.

الشكل رقم (1)

مثلث ممارسة الديمقراطيّة

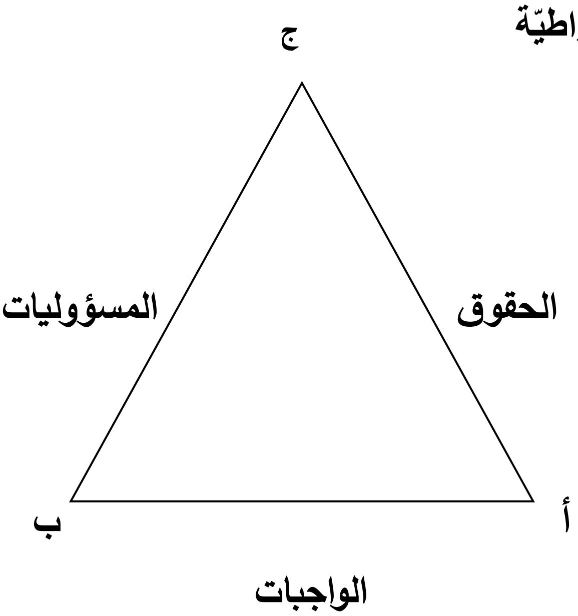

أداء الواجبات

وبما أنَّ الحقوق تؤخذ وتُستلم فإنَّ الواجبات تؤدى في مقابل الاستلام والأخذ، وأداء الواجبات هو الذي يجعل الذات الفردية أو الجماعية والمجتمعية في حالة الإيجاب، أمّا اقتصار الفرد أو الجماعة والمجتمع على أخذ الحقوق فإنَّ ذلك يجعل المستلم طرفاً سالباً، والذي يغيّره إلى حالة الإيجاب هو أداؤه الواجبات، ولهذا من الواجب أن تعمل وتفعل وتسلك في مقابل ما أخذت، وهذا لا يعني أنّ الحقوق والواجبات هما كفتا الميزان في مكوّن ممارسة الديمقراطية بل هناك شيء آخر من مكوِّناتها آلا وهو المسؤولية، التي تتّضح في الزاوية (أ ب ج) عند تلاقي ضلع الواجبات (أ ب) مع ضلع المسؤوليات (ب ج) في مثلث ممارسة

الديمقراطيّة بإرادة وهذا التلاقي العلائقي هو الذي جعل في أداء الواجب مسؤولية، ولذا لا يمكن أن يؤدى الواجب بنجاح إلا وتحمُّل المسؤولية جزءاً من أداءه، وهكذا حال المسؤوليّة هي الأخرى لا تؤدى بنجاح إلا والواجب يصاحبها، وهذه نتيجة التداخل العلائقي الذي يعبّر عنه بدقة في العلوم الهندسية مما جعل لزوايا المثلث قيّم يستدل بها أو يستدل عليها. والعلائق في مجملها هي نتيجة وجود الأنا والآخر اللذان عندما يلتقيان ينبغي أن يسود الحوار بينهما مما يؤدّي إلى القبول والتقارب والتفاعل أو يؤدّي إلى الرفض والابتعاد والفرقة أو الانسحاب، وفي حالة القبول والتفاعل الذاتي تتكوّن العلاقات كما هو الحال بين أضلاع مثلث ممارسة الديمقراطية المتساوي الأضلاع، وعندما تتكوّن العلاقات يترتب على ذلك بالضرورة أخذُ ُ ُ كما هو مبيّن في الحقوق، وعطاء كما هو الحال في الواجبات، وهذا يعني أن العلاقة بين المسؤوليات والحقوق والواجبات هي علاقة قرار وأخذ وعطاء، أيّ في اتخاذ القرار مسؤولية وفي الأخذ حقوق وفي العطاء واجبات، وعليه لا يمكن أن يتمّ الأخذ والعطاء عن وعي إلا والمسؤولية في ذلك سابقة عليهما، ولو أخذنا وليّ الأمر على سبيل المثال: نجد أنّه مسؤول على أفراد أسرته وفي الوقت ذاته لهم عليه واجبات ينبغي أن يؤديها تجاههم، وما يعد واجبات على وليّ الأمر تجاه الأسرة هي ذاتها تعدّ حقوقاً بالنسبة لهم، وهكذا في حالة التبادل يظل لوّلي الأمر حقوق ينبغي أن يأخذها أو يطلبها وفي ذات الوقت تعد واجباً على أفراد الأسرة أداؤها، ولذلك الحقوق والواجبات والمسؤوليات الذاتية يتمم بعضها بعضاً كما تتمم أضلاع المثلث المتساوي الأضلاع بعضها بعضاً. قال تعالى:

{كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ}[196].

وقال تعالى: {لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ}[197].

ومع أنّ الواجبات المعياريّة أحد أضلاع مثلث ممارسة الديمقراطيّة متساوي الأضلاع إلا أنّ الحقوق تتداخل مع أداء الواجبات في الزاوية (ج أ ب) مما يجعل أداء الواجبات حقٌّ بتوحده مع ممارسة الحقوق في الزاوية المصورة بين الضلعين (ج ب) ضلع ممارسة الحقوق والضلع (أ ب) ضلع أداء الواجبات، وهذا التداخل بين ممارسة الحقوق وأداء والواجبات تبيّنه الآيات الكريمة الآتية: {وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ}[198].

فقوله تعالى: (وَاقْتُلُوهُمْ) تحمل في مضمونها الأمرين: أمر الحقوق أيّ من حقّكم مقاتلتهم، وتحمل في مفهومها أيضاً أمر الواجب أيّ من واجبكم أن تقاتلوهم (وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ).

أمّا الواجب كضلع مستقل بذاته دون أن يكون مشتركاً في زاوية مع أي ضلع آخر من أضلاع المثلث، فهو المبيّن في قوله تعالى: (وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ

---

196 البقرة 180.

197 البقرة 236.

198 البقرة 191 . 193.

عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ) أي لا حقّ لكم في مقاتلتهم في المسجد الحرام، ولكن إنْ قاتلوكم فيه فيجب عليكم مقاتلتهم.

وكذلك يتداخل الحق مع الواجب في الزاوية المشتركة (ج أ ب) المحصورة بين ضلعي الحقوق (ج أ) والواجبات (أ ب) وهذا التداخل تبيّنه الآية (وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ) أي كما هو من حقّكم إخراجهم من حيث أخرجوكم؛ فكذلك من الواجب عليكم إخراجهم من حيث أخرجوكم.

وهكذا يتكرر تداخل الحق وممارسته مع الواجب وأداءه في قوله تعالى: (فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ) أي إنْ قاتلوكم في المسجد الحرام من حقِّكم أنْ تقاتلوهم فيه، وهذه المقاتلة حق لكم وواجب عليكم. وفي مثل هذه الحالة من لم يقاتلهم يُعد متخلياً عن أمر الله تعالى الواجب الأخذ به وتنفيذه من قبل الأمَّة الوسَط.

أمّا قوله تعالى: (فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ) فهو القول الذي لم يأمر بممارسة حقوقٍ ولا يأمر بأداء واجباتٍ، بل ينهى عن العدوان بغير حقٍّ. ولكن إن ظلموكم يصبح الظلم حقّ لكم في ممارسة الحقّ الذي هو ردّ العدوان بغير حقٍّ بعدوانٍ حقٍّ.

حمْل المسؤوليات

من خلال العرض السابق عرفنا التداخل المعرفي في العلاقة بين الحقوق والواجبات والمسؤوليات المتعلِّقة بتحقيق الشخصيّة المتوازنة، وعرفنا أنَّ الحقوق تترتب عليها مطالب أو أخذ، وعرفنا أنَّ الواجبات يترتب عليها أداء أو عطاء، وهذه تستوجب حماية أو حراسة تكون لها سنداً يبعد عنها المخاطر، وإنْ لم يتوفَّر ذلك تصبح الحقوق والواجبات كما يقولون في مهب الريح، مما جعل المسؤولية هي الضرورة التي تحقِّق الحماية أو الحراسة؛ فالحارس أو الجندي الذي يحرس الحاكم أو المصنع لو لم يكن

واعياً بأعباء المسؤولية الملقاة عليه لا يمكن أن يؤتمن جانبه، وهكذا حال الطبيب إنْ لم يكن مسؤولاً، لا يمكن أن يؤدي واجبه بأمانة؛ فالواجب بلا مسؤولية لا يمكن أن يؤدى بأمانة، وهكذا حال الحقوق إذا لم تؤخذ بمسؤوليّة لا يمكن أن تؤخذ بأمانة.

ولذا تكمن المسؤولية في تحمُّل المخاطر والأعباء المترتبة على أداء الفعل أو السلوك سواء أكان حقاً أم واجباً، ولهذا فهي عبء يستوجب التحمُّل، ولأنَّها كذلك؛ فهي عمليّة عقليّة تُبنى على معطيات أو مسلّمات تستوجب التحليل وإجراء الحسابات الذهنية، وتستوجب التمييز بين الخطأ والصواب وبين الحلال والحرام وبين القوّة والإرادة، ثم أخذ القرار، وتحمّل الأعباء المترتبة على ذلك.

المسؤوليّة التزام ووفاء بعهود؛ فمن يوفي بما عاهد كان مسؤولاً، ومن لم يوف بذلك لن يكونا مسؤولاً سواء أكان مُكلّفاً بما كُلِّف به من مهام ووظائف في قاعدة الدولة أو وسطها أو على رأسها، وسواء أكان ممن يتولّون مهام تجارة وبيع وشراء، أم أكان ممن يتولون رعايةٍ لأسرةٍ أو قُصَّر، قال تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا}[199].

حمْل المسؤوليّة عبء، حمْلهُ ليس هيناً، ومن يقبل بحمله فعليه بالأمانة والوفاء بالعهد وإلّا سيجد نفسه ظلوماً جهولاً، {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى

[199] الإسراء 34 . 38.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}[200].

ولأن المسؤوليّة عبء جسيم وحمْلها ليس هيناً؛ فهي تستوجب تقوى الله حتى لا يكون المسؤول مُفسِداً لعلاقات الناس إفساداً في الأرض وسافكاً لدِّماء فيها بغير حقٍ، قال تعالى: {فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}[201]. يُفهم من الآية الكريمة السابقة أنّ الشهادة حقّ، ومن كتمها كتم الحقّ الذي يجب أن لا يُكتم بأي حالٍ من الأحوال، ولهذا فأنَّ الشهادة حقّ وكتمانها مسؤولية يكون كاتمها محاسباً عليها يوم القيامة.

إن تحمّل المسؤولية يتطلب مبررات موضوعية لممارستها بإرادة وهذه المبررات هي:

1 . الصلاحيات: ضرورة لحمْل المسؤولية وتحمُّل ما يترتب على حمْلها من أعباء جِسام، ولذا فإنْ لم تُمنح صلاحيات للمسؤول فلن يجد المسؤول مسؤولية يحملها، ولن يكون فعّال في أداء مهامه ومسؤولياته مما يجعل الفساد يتفشى في دوائر الدولة من خلال مسئوليها. ولذا فالصلاحيات هي مجال الامتداد المسموح به للمسؤول الذي عندما يفعل يكون مسؤولاً، وعليه من يريد أن يكون مسؤولاً يجب أن يكون واعياً بصلاحياته تشريعاً قبل أن يقدِمَ على أفعال المسؤوليّة، وإنْ أقدمَ قبل ذلك سيجد نفسه في قفص الاتهامِ مذنباً.

---

[200] الأحزاب 72.

[201] البقرة 283.

2 . الاختصاصات: هي مجال الامتداد في دائرة المسموح به، فعندما يلتزم المسؤول بالحركة داخل مجال الامتداد تُعدّ ذاته متّزنة ومعتدلة في الحركة الموجبة، وعندما تخرج عن ذلك تقع في دائرة المساءلة والمحاسبة والعقاب، حيث تعد مثل هذه الأفعال أفعال سالبة أو منحرفة. وعليه لكي تؤدّى المسؤولية بإرادة في دائرة الإيجابية ينبغي أن تتماثل الصلاحيات مع الاختصاصات.

3 . الوعي: هو الاستنارة المترتّبة على النضج العقلي الذي به تؤدّى وظيفة الجهاز العصبي للإنسان، وهو نشاط ذهني أو فكري للعقل؛ فبالوعي يتمكّن الإنسان من التبيين والمعرفة، كما أنّه يتمكّن من التمييز بين الأفعال الموجبة والأفعال السالبة والتمييز بين كل مفضّل ومرغوب وبين ما هو غير ذلك ومرفوض، ولذا فإن الوعي ذا صلة مباشرة بالمدركات العقلية التي تمكّن الإنسان من الفهم والتفهّم والاستيعاب كما أنّها تمكّنه من الاختيار والتنفيذ والتقويم بمسؤوليّة مما يجعل الشخصيّة المسؤولة هي مركز الاعتدال والمعرفة الواعية مع وافر التوازن الانفعالي والسلوكي.

4 . القدرة: القدرة الذاتية هي التي تُمكِّن الإنسان من التحمّل لما يجب أنْ يتم تحمُّله باعتبارها طاقة تستوجب توفُّر الاستعداد للقيام بالمسؤولية في حدود القدرة على المستوى النفسي والمستوى البدني والمستوى المادي والمعرفي.

المساواة

المساواة أمر لا يعد سهلاً بما أنّ للأفراد فروق فردية من حيث القدرات والاستعدادات والإمكانات، وكذلك الفروق في الرغبات والميول والاتجاهات

والمهارات؛ فالمساواة في الخلق جاءت واحدة من حيث أنَّ الذكر إنسان مثلما الأنثى إنسان، ولا فرق بين الألوان البشرية من حيث ممارسة الديمقراطية بإرادة، وبما أنّ كل شيء نسبي فالمساواة بالضرورة أنْ تكون نسبية، ولهذا لن يكون الذكر مساوياً بالتمام للأنثى من حيث الطبيعة الخلقيّة، أمّا من حيث الحقوق والواجبات والمسؤوليات فلماذا لا تحدث المساواة؟ ولماذا التفريق بين الذكر والذكر، وبين الأنثى والأنثى، وبين الأنثى والذكر؟ ألا يكون الوطن حقّ للجميع، والثروة في الوطن ثروة للجميع، والواجب الوطني واجب على الجميع، ومسؤولية صون عِرضه مسؤولية للجميع!

يقال أن الإناث في البلدان المتقدمة هنَّ في حالة تساوي مع الذكور، ولكن إذا قمنا بمراجعة قائمة المعتلين للعروش، والرئاسات، لم نجد إلا ثمانية بلدان من دول العالم يعتلي رئاستُها ثمانية نسوة فقط؛ فهل هذه نتاج لقيمة المساواة بين الذكور والإناث؟

وإذا نظرنا إلى جميع أحزاب وبرلمانات ومجالس الحكم النيابيّة ووزاراتها في العالم، لن نجد إلا القليل القيل من الإناث اللاتي يكوِّنَّ نصف سكان الكرة الأرضيّة، وفي بعضها لم نجد إي أثر لقيمة المساواة بين الجنسين في هذا الأمر؛ فهل هذه هي الديمقراطية التي تمارس بمؤسسات برلمانية وحزبية وتعددية!

من المتوقّع في هذا القرن سيرتفع صوت النساء مساويا لصوت الرجال، ليُسهِمَ في الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي على سلم التطوُّر والحداثة. وإن حدث غير المتوقع لا قدَّر الله، لن يحدث الاستقرار، ولن تنتهِ في بعض البلدان محاباة الأبناء الذكور على حساب الإناث.

ولذا عندما يغيّب أو يُحرم 50% من عدد السكان من ممارسة السلطة، فهل يمكن لنا أن نصف دولة هذا حالها بالدولة الديمقراطية؟ أين مؤسسات المجتمع المدني؟ وأين النقابات؟ وأين البرلمانات والمجالس النيابية الممارسة للديمقراطية التقليدية؟

المساواة للإناث لا توجد إلّا استثناءا، وبالمطلق لم توجد إلَّا في التهريب (تهريب النساء يساوي تهريب المخدرات).

إنَّ قيمة المساواة تكمن في تمكين المرأة من التعليم والعمل، والمناصب الإدارية، وفي ممارسة الحقوق وتأدية الواجبات وحمْل المسؤوليات جنباً إلى جنب مع الرجل، وتمكينها من كل مؤسسات العمل الخاص والعام، وتمكينها من القرار والتنفيذ والمتابعة والمحاسبة والمساءلة، وإلا لن يتحقق التوازن الانفعالي والوجداني والاجتماعي على كل المستويات القيمية للمجتمع الإنساني.

تتمركز قيمة المساواة المعياريّة على استيعاب الآخر وتقديره والاعتراف بوجوده وتمكينه من ممارسة حقوقه وتأدية واجباته وحمْل مسؤولياته بإرادة، مع تقدير واعتبار ظروفه وعدم غضّ النظر عمَّا يمتاز به عن غيره من قدرات ومهارات واستعدادات وكذلك دون غضّ النظر عن تنميتها، ولهذا لا استثناء لأحدٍ على حساب آخر؛ فالجميع يجب أنْ يُمكّنوا من بلوغ درجات المساواة رعايةً وعنايةً واهتماماً.

المساءلة

في جميع الأنظمة الإنابية تجرى مساءلة بين الحكومة ونفسها، إي بين المجالس والبرلمانات والوزارات والإدارات الحكومية المنتخبة والمختارة والمعيَّنة من قِبلها، أو من قِبل الرئيس. ولا يحقّ للشعب مساءلة الحكومة مباشرة إلّا عن طريق نوابه المنتخبين. هذه المساءلات لا تعدُّ شعبيّة، بل

هي مساءلات بين دوائر حكومية. وبما أنَّ المساءلة قيمة ديمقراطية معياريّة؛ فلماذا لا تُمكَّن الشعوب من ممارستها في ضوء القرار والتنفيذ والمراقبة؟ ولذلك ينبغي أن تكون المساءلة للحكومة التنفيذية والحكومة التشريعية، لا أن تقتصر مساءلة الحكومة التشريعية على الحكومة التنفيذية.

ولذا فالمساءلة حقّ وواجب ومسؤولية؛ فهي حقّ من حيث كونها متعلِّقة بمن أولى أمره إلى من ارتضى أن يكون ولياً عليه، وهي واجب على من قبل إرادة أن يكون ولياً على الأمر الذي هو من قِبل من يتعلّق بهم أمراً، وهي مسؤولية أيضاً على كلِ صاحب أمر وعلى كلِ من وُليّ عليه كي يكون كل منهما على بيّنة بما له وبما عليه ربحاً أو خسارة (حسنات أم سيئات) ولكلٍ نصيب منها.

ولأنَّ المساءلة حقّ وواجب ومسؤولية؛ فهي على المستوى الجماعي والمجتمعي مساءلة مشتركة وليست مساءلة فرديّة، إلّا إذا أولى المجتمع أمر المساءلة لمن أولى إرادة، وهكذا تكون المناصرة بين أفراد المجتمع في كل مساءلة حقّ، ولهذا فالمناصرة على الحقّ حقّ، ولكن المناصرة على غير الحقّ باطل، {مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ}[202].

ومع أنّ المناصرة بين أصحاب الحقّ حقّ، إلا أنّ المناصرة في الأمور التي لا يليق الحديث فيها على المستوى الجمعي والأخلاقي تُعدُّ مناصرة باطلة؛ فالإنسان إنْ أُختير ولياً على الأمر من قِبل أفراد المجتمع على أيِّ مستوى إداري من مستويات حمْل المسؤولية يجب أن يساءل عن كلِّ كبيرة وصغيرة متعلِّقة بأمرهم الذي رضي أن يكون ولياً عليه، أمّا ما يتعلّق

[202] الصافات 25 . 27.

بعلاقته بربِّه فلم يكن أفراد المجتمع هم المسؤولون، بل هم المسؤولون عن اختيارهم له ولياً للأمر في الوقت الذي لم يُعد صالحاً لذلك، وهنا يصبح لهم الحقّ التام في تغييره لفقدانه الأهليّة والسلوك القدوة الحسنة، {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ}[203].

ولأنّ المساءلة حقّ لأصحاب الحقّ؛ فينبغي أنّ تكون المساءلة الحقّ بموضوعية حيث لا تَجنّي؛ مما يجعل الحقائق هي الدلائل المثبتة بمسوغات معتمدة وإجراءات شاهدة ودالة على الفعل، ولذا لا أحكام مُسبقة في أيّ مساءلة، {مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ}[204].

المساءلة المعياريّة لا تكون مقتصرة على مساءلة أولي الأمر في أيّ مستوى من مستويات تحمُّل المسؤولية، بل المساءلة تحتوي أيضاً الرعيّة (الجُند) الذين قبلوا أنْ يولى أمرهم لمن يصون أمنهم والبلاد وحدودها شريطة أن يكون هؤلاء الجُند هم من ضمن الذين قبلوه ولياً لإدارة أمرهم سياسيةً واقتصاداً وسلماً وحرباً، وهؤلاء لن يكونوا جنداً فاعلين إلا إذا كانوا هم من صُلب تُراب الوطن.

ولذا فالذين لم يلتزموا بأداء الواجبات فمن حقّ المسؤول أن يُساءلهم عدلاً، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ}[205].

---

203 الصافات 24.

204 القلم 36 ـ 42.

205 التوبة 38 .

ومع ذلك فإنَّ مراعاة الظروف واجبة؛ فالقُصّر من الرجال والولدان والنساء والمرضى لهم من المبررات التي لا تجعل المساواة بين المواطنين في تنفيذ الأوامر أمر ممكناً، {قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا}[206]، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}[207].

إذن المساءلة لم تكن معاقبة، بل المساءلة (عن حُسن نيّة) هي لتنظيف الأقوال والأفعال والأعمال والسلوكيات مما يعلق بها، ومن هذه الرؤية هي مساءلة موجبة، أمّا إذا كانت عن غير حُسن نيّة فتكون مطاردة وكيداً ومكراً، وعندما تكون كيداً ومكراً؛ فلا مبطل لكيد الكائدين إلا المكيد الأعظم، ولا مبطل لمكرهم إلا خير الماكرين جل جلاله، {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا}[208]، وقال تعالى {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}[209].

المحاسبة

قيمة ضبطية وفقاً للصلاحيات والاختصاصات والتصرّفات، تستوجب أجهزة رقابية مختارة أو منتخبة لتمارس رقابة على الفعل والسلوك، الذي

---

[206] الفتح 16 ، 17.

[207] المؤمنون 60 . 62.

[208] الطارق 15 . 17.

[209] آل عمران 54.

يستوجب إدانة وعقاب أو براءة وتقدير. هذه الأجهزة لها الحقّ في أنْ تتطلّع وتتابع عن كثب لتعرف العلاقة بين ما يُقَرّر وما يُنفَّذ. وهذه الأجهزة لا تعدُّ سلطاناً مطلقاً؛ فهي يجب أن تكون هي الأخرى تحت المراقبة والمساءلة والمحاكمة كلَّما أخلت بمهامها القانونية وفقا للصلاحيات والاختصاصات الممنوحة لها من الشعب.

المحاسبة الحقّ عدل؛ فلا ظلم ولا كيد ولا مكر، {فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ}[210].

المحاسبة لا تكون إلا وفق اشتراطات وعهود ومواثيق والتزامات ومعطيات وقبول كي لا يظلم أحد أحداً، {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}[211]، ولذا فالمؤمن بالوسطيّة هو من لا يقبل أن يسود الظلم بين الناس، بل هو من يتقي الله ربّه، وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا}[212].

التطلّع

لمّا كانت الوسطيّة تتطلّع إلى الإصلاح من أجل الرقي بالإنسان إلى إنسانيته في الحقّ والعدل، كان التطلّع معطية معياريّة من معطياتها، وهذه المعطية المعياريّة تمنح المُتّصف بها فُسحة الاطلاع على الواقع واستشراف المستقبل في عملية موازنة من أجل الإصلاح، ومن هنا تكون الوسطيّة حاملة لمعطية التطلّع التي تمنح الفرد والجماعة والمجتمع حرية

---

[210] المؤمنون 102 . 104.

[211] يونس 44.

[212] النساء 40، 41.

الاطلاع على تجارب الآخرين للتعرُّف عليها والإفادة منها، واستيعاب ما يكون فيه النفع والفائدة.

وأوّل وسائل التطلّع وأبسطها على جلالتها هي القراءة، وتُعد قراءة التاريخ والتعرَّف على ثقافات وحضارات الشعوب ذات فائدة للمزيد المعرفي، ولهذا فالوسطيّة لا ترى مكابرة في الاتصال مع الآخر من أجل أن تستفيد بكلِّ ما يُسهم في تطوّر حياة الناس. فلا داعي للمكابرة ولا داعي للتردّد الذي يجعل البعض على حالة من السكون، ولذا فمن يقرأ التاريخ يعتبر ويعرف أن الشعوب والحضارات دائماً في حالة اتصال وتواصل من أجل إحداث النُقلة للمستقبل الأفضل. أمّا الذي يُعطي للتطلُّع قيمة، هو التعرُّف، ولهذا كانت المعرفة حاجة ضرورية للإنسان تستوجب إشباعاً، وبما أنّ هناك آخر؛ فالطبيعة البشرية والإنسانية تستوجب التعرُّف عليه ليتحقق لها الإشباع. وبناء على ذلك فالانغلاق والانكفاء على المستوى الأنا فقط هو من الأفعال والسلوكيات غير الطبيعية.

الإنسان مجبول على التطلّع للمستقبل واستقراء أحداثه وتحولاته واستجلاء غوامضه وخوافيه استجلاباً للخير ودفعاً للشرّ، ولمّا كانت الوسطيّة من أجل وضع الناس على جادة الصواب، كان التطلّع إحدى معطياتها التي تحدث النُقلة في حياة الأفراد نحو الأفضل بما كان نافعاً للبشريّة مبنياً على معرفة النتائج من أسبابها، لأنَّ التطلّع للمستقبل ليس هروباً من الحاضر، ولا قفزاً على السنن الكونية، ولكنّه الأمل الذي يدفع إلى العمل ويُمكّن الإنسان من الاستخلاف.

لا ريب أن التطلّع إلى ما هو أحسن وأفضل شيء ليس خاطئاً من حيث المبدأ، لكن يجب على المتطلّع أن يدرك أنّ ذلك لا يخلو في كثير من الأحيان من المثالية والمبالغة الذي يخرج الأمر عن الوسطيّة، ولذا فإنّ

الإصرار على الحصول على الأفضل دائماً يجب أن يصحبه اعتقاد بالذي أمر بالوسطيّة وجعل الأمّة عليها، بأنّه لن يحدث الأفضل إلا ما أراده الله وقدّره، وهذا الذي أراده قد يوافق رغباتنا، وقد لا يوافقها، ثم إنّ الوصول إلى أي حلّ عاجل أو آجل من خلال التطلّع، لا يمكن إلا أن يظل خاضعاً للبيئة والمعطيات السائدة، وبما أنّ شروط الحياة الخاصة للفرد والحياة العامة للمجتمع تظلّ دائماً دون الطموحات والتطلّعات، لذا يظلّ الإنسان يشعر أنّ الوسط الذي يعيش فيه هو أقلّ مما يريده، وأقل مما ينبغي أن يكون، وهذا يعني أنّه لن يصل أبداً إلى حلول لجميع مشكلاته؛ لأنّ الحلّ الكامل يتطلب وسطاً كاملا، ولذا فإنّ عليه دائماً أن يتوقّع حلولاً منقوصة ونتائج محدودة، والذين لا يعرفون هذا المعنى سيظلون يشعرون بالخيبة على الرغم من تطلّعهم، ومن هنا تكون الوسطيّة ميزان العدل في التطلّع إلى إحقاق الحقّ والاستخلاف في الأرض إصلاحاً وإعماراً وفلاحاً دون أيّ سفك للدماء بغير حقّ.

الوَسطيّة بين المشكلة والحلّ

الوَسيطي لغة ثالثة ذات بُعدٍ ثالث، فهو من يقبل الجلوس بين طرفين بغرض جذبهما إليه، لتكون رؤاه الفكرية هي الحلّ، ولكي يصل الطرفان إلى ما يشاؤه الوسيطي عليهما بوضع راحتي يديهما مع راحة يديه ليتمّ القبض المُمكّن من الجذب بقوّة وإلا لن يصلا إلى المكان الذي يضع الوسيطي قدماه عليه، وفي دائرة الممكن احتمالات أربع:

الاحتمال الأول: أن يكون الجذبُ معسَّراً بما يواجهه الوسيطي من جهد مقاوم من كلا الطرفين المتطرّفين؛ فالتعسُّر يكون مصحوباً بمرارة التنازلات المستوجب تقديمها في سبيل الوصول إلى الوسيطية أو حتى الوسطيّة التي

عليها الوسطي يبذل الجهد من أجل قبول الوسطيّة حلاً بغض النظر عمَّا في التنازلات من مرارة.

وفي هذه الحالة إن قَبِل الطرفان ذلك بداية قد لا يقبلانها وسطاً ولا يقبلانها نهايةً، وهنا تكمن معطيات الانتكاسة الميسِّرة لفتح سُبل العودة إلى ذلك التطرُّف أو إلى تطرُّفٍ آخر.

الاحتمال الثاني: أن تكون نتائج الجذب معسَّرةُ بما يواجهه الوسيطي من جُهدٍ مقاوم من أحد الأطراف؛ وفي مقابل هذا التعسير تكون نتيجة من يُقدِّم التنازلات سريعة أن يحيد عنها بسرعة أكثر، مما يجعله يعود إلى ذالك الطرّف الذي جاء منه مجروراً بمجموعة من التنازلات.

ومن يكون معسَّراً في أمر جرّه بالقوّة الوسيطية بتنازلات يعرف أنّها سَتُلقي عليه عبء آخر لا يطيقه فكرياً أو نفسياً فهو كمن قَبِل بداية وتخلى وسطاً وتطرَّف نهايةً.

الاحتمال الثالث: أن تكون نتائج الجذب ميسَّرة من كلا الطرفين مع ما يبذله الوسطي أو الوسيطي من جهد لجذبهما تجاهه. هذه الحالة في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقّع إمَّا على احتمال اعتراف الطرفان بأنّهما كانا على غير حقِّ فيما قاما به من تطرُّفَ؛ فغلبت الموضوعية بعد نُضجٍ ورُشدٍ على تفكيرهما؛ فقرّرا العودة الميسَّرة. وإمَّا أنّهما لظروف مؤقتة قبلا بذلك دون أن يُشْعِرَ طَرَف الطَّرف الآخر بحقيقة أمره، ودون أن يعرف الوسطي حقيقة أمرهما أيضاً مما يجعل التنازلات المقدّمة بغرض أخذ ثمن لِيُسهِمَ في دعم الاتجاهين اللذين كان كلّ منهما متطرِّفاً عن الآخر. أو من أجل أن يقترب الطرفان مادياً لتكون الخطورة ميسَّرة بينهما كلّ ضدّ الآخر.

الاحتمال الرابع: أن تكون نتائج الجذب غير متوازنة بسبب اختلاف قوّة شدّ أحد الأطراف عن قوّة شدّ الطرف الآخر أو باختلاف قوّة توازن اليدين

الجاذبتين لهما في دائرة الانحياز النسبي. فعندما لا تكون الأطراف متوازنة أثناء الجذب بقوّة الوسطي، يسبق أحدهما الآخر وصولاً، وقد يغادر بأسباب تأخر الذي تعنَّتت به العلل والأسباب فأخّرته عن تقديم التنازلات أو تعنَّتت به في تفهُّم الظروف التي بها يتمّ استيعاب الآخَران (المواجه للأنا في الطرف الآخر + الوسطي).

أمَّا إذا كان الوسيطي منحازاً ولو قليلا لطرفٍ على حساب طرفٍ آخر فإذا ما اكتشف الطرف المنحاز عنه للطرف الآخر بذلك التحيُّز الوسيطي ثار من جديد على الأخضر واليابس دون أن يستثني وسطيّاً ولا آخر.

ومع أنّ كلّاً من الوسطي والوسيطي هما في دائرة الممكن على التساوي دلالة ومفهوماً، إلا أنَّ لكلِّ منهما ما يخصَّه من دلالةٍ ومفهومٍ؛ فالوسيطي هو الثالث الذي يتوسط بين الأنا والآخر ليجرهما إلى حلّ بعد إعطاء تنازلات. والوسطي كذلك يُعدُّ هو الثالث بالنسبة للأنا والآخر، ومن حيث خصوصية المفهوم فالوسطي هو الاعتدالي وليس العدلي، فالاعتدالي هو من يميل إلى العدل ميلاً، مما يجعل الميل إلى العدل نسبياً يختلف من شخص لآخر قرباً أو بعداً، ولذا فإنَّ بلوغ العدل ليس الميل إليه، ولهذا فالوسيطيّة تدعو إلى الميل إلى العدل وليس إلى الأخذ بالعدل هو كما هو، ولأنَّ الاعتدلية ميلية؛ فالميل يُعد استحسان من باب الجواز (يجوز ولا يجوز) حسب الحالة والظرف النفسي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والمصلحة، وهذا ما ليس بعدلٍ، العدل هو الأخذ بالحقِ والعمل على إحقاقه هو كما هو، بأساليب متنوعة حيث لا إكراه بل كلّ شيء بالإرادة.

ولأنّ الوسطية اعتدالية والاعتدالية تميل بالأنا والآخر عمَّا هما عليه تجاه العدل؛ فإنّ الاتجاه نحو العدل يُمكِّن من الأخذ منه ما يمكن أخذه وترك ما لا يرغب أحد الأطراف الأخذ به. ولكن هل هذا من العدل أم أنَّ العدل هو

الأخذ بالحقيقة التي إن تمَّ الأخذ بها بإرادة أصبحت الهوّة بين الأنا والآخر في خبر كان، وإذا ما تمَّ ذلك فلن يكون هناك مكانُ لوجود من يدَّعي وسطيّة أو وسيطيّة.

وإذا قبل البعض أنّ الميل إلى العدل مرحلّة ضرورية لمن كانوا هم متطرِّفين، إذن ألا يكون ذلك الميل دليل اعتراف من قِبل هذا البعض بقبول التنازلات ولو كانت مرحلّية! وإذا أجاز أحد هذا الأمر ألا تكون المرحلّية مؤقّتة وهي في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع ليس بمضمونة النتائج حيث تغيُّر الظروف ومعطيات الانتكاسات المتعددة.

ولهذا لا حلّ إلا بالعدلية وحدها، أمَّا الاعتدالية (الوسطية) فهي ليست حلاًّ، بل هي من يأمل الحلّ، ولهذا الفرق كبير بين الحلّ، وبين من يرى الميل إلى الحلّ هو الحلّ.

ولذا فمن يقبل الوسطيّة حلاًّ ليس له بدّ إلا أن يتخلي عمَّا هو عليه من تطرُّف، ثم يقبل بتقديم التنازلات التي بها يتمكَّن من الجلوس مع الآخر ليشكِّل معه جناحي الوسطيّة اللذين بهما تُحلّق، ولكن إن اكتشف الطرفان أنَّ وظيفة الجناحان تنفيذ قرار الطيران الذي ليس لهما رأي فيه؛ فقد ينقبضان، ولا يمتدان ثانية مما يجعل الوسطيّة وجناحيها ضحيّة ما كانت تدعو إليه.

ولذا تُرفض الوسطيّة كونها على حساب إحقاق الحقّ؛ فهي (أنا) بين (آخَرَين) كلّ منهما يعتقد أنّه على صواب وهو صاحب الحقّ؛ فتحاول الوسطيّة أن تُقدِّمَ حلّا مرضياً لكلٍّ من الطرفين، وهذا الحلّ لا يمكن التوصل إليه إلاّ من خلال تنازلات يُقدِّمها كلّ طرفٍ للطرف الآخر ووفقاً لرؤية الوسطي الذي يرى أنّ الأمور لا تُحلّ إلا بما يُمكِّن من امتصاص الغضب وقبول الآخر هو كما هو، ثم قبول كلّ منهما بتقديم التنازلات

لأجل أن يتمّ التفاوض والتحاور والمراجعة التي رسم خيوط نسيجها الوسطي.

ولأنَّ كلاً من الأنا والآخر يرى نفسه أنّه على حقٍ وغيره على باطل فالوسطي يرى أن الحقَّ ما ليس عليه الاثنان، وفي هذه الحالة يُعتبر الوسطي طرف ثالث، وهذا يُظهر تعدّد الأطراف إلى ما هو أكثر من الأنا والآخر، وبإجازة ظهور التعدّد في إظهار الحقّ من الباطل فإنّنا نقبل بظهور رابع يمكن أن نسميه المواجه لهؤلاء الثلاثة بالحقيقة؛ أو أنّه الوسيطي الذي يعرف أنّ الأنا قد يكون على حقّ والآخر على باطلٍ ومع ذلك يتدخل، لجرِّهما إلى نقطة الالتقاء المؤقّتة وفقاً لِما يقبل به كلّ طرفٍ من تقديم التنازلات، وفي هذه الحالة كيف إذن سيكون الحلّ! هل يكون بقبول ما جاء به الرابع أم من الأفضل أن ننتظر خامساً في دائرة ظهور الممكن!

كلّ المعطيات على أرض الواقع تُثبِتُ التعدّد والحقيقة واحدة؛ فاليمين المتطرّف يرى أنّه المالك للحقيقة، ولهذا يَدعو إليها كما هي متهيِّئة له، واليسار المتطرِّف يرى أنّه المالك للحقيقة وغيره لا حقيقة عنده، والوسط كذلك، ويمين الوسط هو الآخر لم يرَ الحقيقة إلا كما هي متهيّئة له، وهكذا كان الماركسيون والبعثيون والناصريون والإخوان المسلمون، وكلّ حزب بما لديه فرح وكأنّه امتلك الحقيقة دون أن يترك لغيره شيئاً منها، وفي هذا التعدّد يذوب الوسطي الذي يعتقد أنّه جاء بالحقيقة، مما يجعل العدل هو توازن المركز الذي لا يميل عن أحدٍ، ولا يميل به أحد، وهو الذي يسع الجميع دون أن يجعل أحداً منهم طرفاً متضاداً لغيره.

فالوسطي لو لم يرَ أنّ الطرفين ليسا على حقٍّ، ما قدَّم بينهما حلّاً آخر (الحق كما هو متهيّئ له)، وفي هذه الحالة لا يمكن أن يكون وسطياً، بل

إنّه الآخر غير الطرفين السابقين، الطرفان السابقان ليسا على الحقّ، والطرف الثالث إن كان على الحقّ فهو ليس بذلك الوسطي، بل إنّه المواجه للجميع بالحقيقة وأهميّة إحقاقها. وهذه الحقيقة لا تتطلب تقديم التنازلات بل تتطلب التخلّي، التخلّي التامّ عن كلِّ ما من شأنه قد أدّى بالطرفين أو الأطراف إلى الاعتقاد في التطرُّف وارتكاب أفعاله بأساليب غير مشروعة وإن شَرَّعَ لَها من شرَّع تحت أيّ صفة من صفات امتلاك القوّة.

إذن عندما تكون الأطراف المتعددة على غير حقيقة، يكون الغافلون هم الميدان الواسع لانتشار الفرقة بادعاءات الحقيقة التي لا يمكن أن تتجزأ، ولأنَّ الحقيقة واحدة لا تتجزأ، لذا لا شرعيَّة لمن يدَّعيها، بل الشرعيّة لمن لا يحيد عنها. وهنا على العقل البشري أن يُفرّق بين مُدّعي الحقيقة وبين الحقيقة هي كما هي؛ فإن لم يتمكّن من التمييز سيجد نفسه مُنجرًّاً تحت مظلة أحد المدَّعين لها غفلة لا صحوة. وهؤلاء ومن هو على مثلهم، هم الذين في حاجة لوسطي ليجذبهم عمَّا هم فيه من غفلة لتكون الصحوة لهم من بعد ذلك دافعة تجاه الوقوف على الحقيقة التي سبق لهم الغفلة عنها.

أمَّا أولئك الذين هم على الحقيقة سواءً أكانوا أناة أم الآخرين؛ فهم ليسو في حاجة لوسطي يجرَّهم إلى الوسطيّة أو الوسيطيّة ليكون الحلّ مع غيرهم من الذين هم على الظلم المركَّب من الجزأين، جزء من الحقيقة والجزء الآخر من الباطل، مما يجعل الوسطيّة أو الوسيطيّة مكوّناً مركَّبا من قبول جزءٍ من الحقِ مع جزءٍ من الباطل، وإن تمَّ ذلك يصبح كلُّ منهما لا حقيقة بأسباب خلط جزءٍ من الحقيقة مع الباطل، وكذلك لا تصبح باطلاً بأسباب خلط الباطل بالحقيقة، ولهذا يكون التعريف بالوسطيّة من هذا المركَّب، مما يجعل البعض رافضاً لها حيث عدم قبوله اختلاط الحقّ بالباطل، ولا

يقبل التعاون والمشاركة مع من يقبل بذلك، بل سيكون البعض متطرِّفاً ومقاوماً لكلّ هذه الأساليب التي أدّت إلى اختلاط الحقّ بالباطل، ومن هذه الزاوية ينظر إلى الوسطيّة بأنّها جزءاً من المشكلة وليست بجزءٍ من الحلّ.

وعندما تطرح الوسطيّة رأيها حلّاً ثالثاً بين طرفين تكون قد بعُدت عن الوسط الذي يرسم نقطة التمركز العدل دون ميل؛ فإن كانت الوسطيّة بين طرفين يمثِّل أحدهما السلطة (الحاكم)، والطرف الآخر يمثل التطرّف عن السلطة، وعندما تأتي الوسطيّة وتطرح حلّاً وسيطاً فهي لم تكن مع رؤية الحاكم بالتمام ولم تكن مع رؤية المتطرّف بالتمام، وإذا ارتضى الطرفان بما قدّمت الوسطيّة من حلّ؛ فهذا يستوجب تنازلات من الحاكم ومن المتطرّف، تجعل كلاً منهما على حالةٍ من الالتقاء مع الآخر، ولكنَّه ليس معه بالتمام، حيث أنّه لا زال كلّ من الطرفين متمسِّكاً بنصف ما كان لديه من أفكار تجاه الآخر ورؤاه مع فتحه خانة جديدة تشغل حَيِّزَ النصف الثاني الذي فُرِّغ بتقديم التنازلات ليمتلئ بما يتم الاتفاق عليه بين الطرفين، ولهذا فإنَّ بذور الفتنة التي أنبتت التطرُّف لا زالت متأهبة للظهور من النصف الذي لم يمسَّه تقديم التنازلات كلَّما توفرت لها بيئة مناسبة للنمو.

إنَّ الوسطيّة في مفهومها اللفظي لا الاصطلاحي تحمْل مدلولات وجوب تقديم تنازلات تستدعي حلّاً من أجل فكّ التوترات والخصومات والمصادمات التي تدور رحاها بين الأنا والآخر، وبهذه النظرة هي أقرب لأن تكون شُرطيّاً لا قاضياً؛ فالشرطي إنْ حدثت اشتباكات بين الأطراف الذين هم في دائرة اختصاصه يأتي لفكِّ الاشتباكات ويترك الأمر، وإن اشتكى أحد الأطراف ضد الآخر سيكون الأمر العدل متعلقاً بوجوب قاضٍ عدل، ليحكم بالحقِ لا بتنازلات من أحدٍ لحساب آخر، ومع ذلك فالصلح خير لأنَّه إرادي فيه يتمّ التقدير المتبادل بين الأطراف المتنازعة.

وللتعرُّف على الوسطيّة ينبغي تحديدها ظرفياً بين مَن وبين مَن؟

. هل هي بين الحقّ والباطل؟

. هل هي بين حاكم ومحكوم؟

. هل الوسطيّة هي المائلة؟ أم هي التي يُمال إليها؟ أم أنها هي المحفِّزة على الميل؟

. هل الوسطية بين وسطٍ ومتطرّف أم أنها بين متطرّفين؟

. هل الوسطيّة بين معتدل ومتطرّف؟ أم هي بين متطرّف وأكثر تطرّفاً؟

. هل ستتحقق الوسطيّة فعلاً على أرض الواقع بما تتركه مجازاً أن يؤخذ ميلاً تجاه العدل؟

. ألا تكون الوسطيّة حاملة لبذور فنائها كونها تحمل مبررات العودة إلى التطرّف بمن قَبِل بإعطاء التنازلات حلّا مؤقتاً لأن يعود إلى ما كان عليه!

. ألا يعدُّ تقارب الأطراف بتنازل كلّ منهما عن جزءٍ من الحقيقة تطرّفا جديداً عن ملامسة الحقيقة هي كما هي!

. ألا يكون الميل إلى العدل دليل إثبات أنّه ليس بعدلٍ؟

. هل الحقيقة أن تكون الوسطيّة على مسافة واحدة من جميع الأطراف عادلها وظالمها، وحاكمها ومحكومها، وحاميها وحراميها!

إن الذي يتنازل عن جزءٍ من قضيّته، ويحاول أن يغيّر قناعاته وخاصة في مسألة الدين والعرف والحقوق؛ فذلك لأسباب ظرفية تحدث فيها التنازلات، ولكن عندما تتغير الظروف التي فرضت التنازلات ويكون الإنسان قادراً على إحقاق الحقّ فإنَّ الرجوع عن تلك التنازلات أمر لا بدّ منه مما يستوجب العودة عن التخلّي عن التنازلات الظرفية، وهكذا المتطرّف عندما يقبل الحلّ تحت ضغط الظروف ويتفاوض من أجل تقديم تنازلات، فإن لم تتغير قناعاته الأولى لا بدّ أن يعود إلى ما كان عليه، وقد يكون أكثر شدّة

إذا كانت الظروف تصبُّ في مصلحته، ولكن إن كانت عن قناعة تامّة فلن يعود إلى ما تخلّى عنه، ويكون أكثر تمسُّكاً بما وصل إليه من حلّ.

بهذه الرؤية تكون الوسطيّة والوسيطيّة تقريبيتين، تهدفان إلى تقريب وجهات النظر بين الأطراف المتطرِّفة مما يجعل الاتفاق على ما هو ممكن وبقاء غير الممكن ساكناً، ولذا فإنَّ سكون البركان لا يعني انتهاء أمره، بل يعني أنّه في دائرة غير المتوقع سيكون مفاجئاً لمن يعتقد أنّه خمد إلى النهاية، ولهذا فالفكر المتطرّف والرؤية المتطرِّفة إن هدأت وسكنت تدلُّ على أنّها ستثور من جديد ويكون الغبار المنفوض بقوّة نفخُ الثوران كافياً لأن يعيق الحركة التي في مجاله أو حتى توقُّفها كما فعل بركان أيسلندا بالملاحة الجوية في أوربا هذا العام من شهر مايو 2010م.

ولأنَّ الإنسان لا يمكن أن يتنازل عن حقّه إلاّ إذا كان غافلاً أو مُغفَّلاً أو قاصراً أو مغلوباً أو مقهوراً ومغيباً، فإنَّه متى ما امتلك مقاليد القوّة وزمام أمره تمكَّن من إعادة حقوقه بالقوّة حتى وإن وُصِفَ من الآخرين بأنّه متطرِّف.

وعندما يُثار التساؤل عمَّا إذا كان التطرُّف قوّة أم ضعفاً! يُثبت التطرُّف ذاته بأنّه لو لم يكن قوّة ما كان سبباً للتفاوض؛ فهو من وجهة نظر الأنا الحاكمة تطرُّفاً وهو القوّة التي بها يستقرّ الأمن، وتُفرض الرؤية الخاصة على الآخرين ومن تسوِّل له نفسه أن يكون معارضاً فعليه بتحمُّل دفع الثمن. وهو أيضاً من وجهة نظر الآخر قوّة مُمكِّنة من نيل الاعتراف والتقدير وإعادة الحقوق، وتقويم الاعوجاج.

ولذا لو لم يكن التطرُّف قوّة ما كان لأحداث 11 سبتمبر أثرٌ يُستدل به على المتطرِّفين الذين أصبح الانتماء إليهم بين الشباب يزداد بأسباب توفُّرَ معطيات البيئة التي تنتجه، ومنها الإجراءات القهريّة وانتشار المظالم،

والحرمان من ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليات، ومنها الاعتداءات الصارخة على الملكية الخاصة والملكية العامة وعلى أعراض الناس، ومنها احتلال الأوطان وسلب خيراتها، ومن معطياته الرئيسة أيضاً المعلومات المزّيفة، والمساس بالدين والعرف، والمغالبة بغير حقٍ على المستوى الداخلي (داخل البلد) أو على المستوى الخارجي (في الهيئات والمنظّمات والجمعيّات الدولية والعالمية)، ومع أنَّ البعض يعتقد أنّ الفقر هو الذي يدفع الشباب إلى ارتكاب أفعال التطرُّف، إلا أنَّ القادرين هم الذين يتصدَّرونه فكراً وفعلاً، أمَّا أولئك الذين هم على الحاجة لا وقت لهم غير البحث عمَّا يُشبع حاجاتهم وحاجات من له الحقّ عليهم، وللنظر إلى السيد بن لادن والسيد الظواهري، وكذلك الذين نفَّذوا أحداث 11 سبتمبر 2001م، نجد أنهم لم يكونوا من الفقراء، بل أنهم من الملّاك والمهندسين القادرين والفاعلين.

ولننظر أيضاً إلى بعضٍ من قيادة الجماعة المتطرّفة في ليبيا الذين أُطلق سراحهم بعد قيامهم بمراجعات موضوعية بما قاموا به من دراسات تصحيحية في مفاهيم الجهاد والحسبة والحكم على الناس، نجد من قياداتهم سامي السَّاعدي، وعبد الحكيم بالحاج، وخالد الشريف هم ليسو بفقراء. وهكذا نجد في بيئات ظهور التطرُّف الكثير من الذين اتخذوا الصفات البديلة أسماء لهم من أجل قضايا هم يرونها حاقّة للحقّ هم ليسو بالفقراء. وهذا لا يعني أنَّ الفقر لا تأزُّمات بأسبابه، ولكن التأزُّمات المترتّبة على الفقر أكثرها جرائم وانحرافات سرقة، وتعاطي، وتسوّل، وقلقلة أمن الشارع بما يُخيف المواطنين على أمن ما يمتلكون، وقد يُجنَّدُ أولئك المنحرفون بأسباب الحاجة من قِبَلِ الآخرين ويُستخدمون بموجَّهات داخلية

وأجنبية ضد النظام ومصالح الوطن، وقد يكون البعض من الناس (مواطنون وأجانب) ضحية بين أيدي الذين دفعتهم الحاجة إلى الجريمة.

ولذا فالتطرُّف لم يكن على نوعيّة واحدة، ولا تنظيماً فكرياً واحداً، بل هو المتنوع مولود البيئات المتنوعة؛ فهو في أساسه المؤسس على التهيّؤ والاستعداد والتأهُّب والفعل الإرادي، ولم يكن المؤسس على التنظيم كما هو حال تنظيم الإخوان المسلمين الذين يخططون ويبرمجون وفقاً لأهداف هم يرونها واضحة الدلالة والمرمى ثم ينظِّمون المنتمين إليهم إعداداً وفق حلّقات ودوائر ومستويات تراتبية مع القبول بتنوّع الأساليب.

ومع أنَّ التطرُّف في أساسه لا تنظيم إلّا أنّه بعد التهيّؤ والاستعداد والتأهُّب والفعل الإرادي يصبح في دائرة الممكن ظهور التجمُّع واتساع دائرة المعارف ممكناً ليكون الجهد الموحِّد أقوى من الجهد المنفرد وفقاً لقاعدة: (الفرد قوّة، والجماعة أقوى، والمجتمع أكثر قوّة) وتكون المناصرة قاعدة لتبادل المعلومات وتمكين المتطرِّفين من تنفيذ أفعال التطرُّف بنجاح قدر الإمكان.

ولأنَّ التطرُّفَ قوّة؛ فهو المسبب للتصدُّعات والتأزُّمات الحكومية والمُرِهق لأجهزتها الأمنية، والمُرهق للاقتصاد الوطني والاستقرار الاجتماعي، ولأنَّه كذلك فإن القوّة تُعدّ لمقاومته وردعه ومحاولة قهره وهزيمته كلٌّ وفق استطاعته.

وكذلك من وجهة نظر الوسطي فإنَّ التطرُّف قوّة؛ فهو لو لم يعتبره الوسطي قوّة ما عرض نفسه قوّة غير مواجهة له (للتطرُّف)، بل قوّة تعترف به في دائرة الممكن مثلما تعترف بالآخر، ولأنّ التطرُّف قوّة فإنّ الكثيرين يخشونه ويجتنبون أصحابه الذين هم في كثيرٍ من الأحيان غير مأموني الجانب.

ومع أنَّ التطرُّف قوّة إلّا أنّه لا يخلو من نسبة الضعف فيه، وفقاً لقاعدة (لا قوّة مطلقة إلاّ من القويّ المطلق) مما جعل من هم في دائرة النسبية على القوّة والضعف من متغير لمتغيِّر، والضعف بين سالبٍ وموجبٍ هو القوّة في دائرة النسبية والممكن؛ فالذي يُستدرج بداعي الضعف لتقديم تنازلات ويقبل ذلك في فترة ما؛ فهو قادر على أن يحتفظ بقوّة ضعفه التي تسمح له بمقاومة الظرف في الانقضاض على الآخر لاسترجاع ما تمّ التنازل عنه.

ومن يتم استدراجه بتداعيات الإصلاح والتسامح والاستيعاب والتفاهم والتفهُّم من أجل أن يحقِّق الآخر غاية له في ظرف معيّن؛ فهو بعد تغيّر الظرف وتوفّر المعطيات التي تسمح له بالانقضاض ليظهر القوّة التي كان البعض يعتقدها ضعفاً؛ فلن يتردّد أبداً ليثبت أنّ قوّة الضعف قوّة تُمكِّن من كان يشار إليه بالضعف بأنّه على القوّة المؤثرة والفاعلة في الزمن غير المتوقع.

إذن في معطيات الضعف توجد معطيات القوّة، ولهذا ما يظهره الإنسان من ضعفٍ في القولِ أو العملِ أو السلوكِ قد لا يكون كما هو مُظهَراً؛ بل قد يكون مغايراً لما في باطنه أو ما يضمره من أجل توفير هذه القوّة التي يراها الآخر ضعفاً إلى أن تتهيّأ لها الظروف المناسبة لإظهارها قوّة. وقد يكون إظهار الضعف من أجل استنفاذ قوّة الآخر، أو من أجل استدرار عطفه وتغفيله عمَّا يمكن أن يُفكِّر فيه تجاه الآخر الذي يظهر الضعف من أجل غاية في نفسه، وعندما يكون الضعف على هذه الحالة؛ فهو في أعلى درجة من القوّة لِمَا وفّره من جهد في نيل الوطر.

وهنا وجب النظر إلى القضايا بأبعادها الكامنة وليس بما يبدو ظاهراً منها أمام الآخرين؛ فمعطيات القوّة تتوفّر بمتغيّراتها والظروف التي تسمح لها

بالظهور كلّما تهيّأت، مما يجعل القوّة نبتة قويّة في بيئة الضعفاء والمستضعفين، وفي مقابل ذلك يصبح الضعف هو البِذْرَةُ التي تنمو في نفوس الأقوياء.

ومن خلال ذلك فإنَّ الأنا والآخر والوسيطي هم على أطراف القوّة والضعف؛ فالوسيطيّة تقبل أن تعالج القوّة بقوّة والضعف بضعف، ولأنّها وسيطية فهي لم تُقرّ العلاج بالقوّة المطلقة ولم تُقرّهُ بالضعف المطلق الأمر الذي جعلها على طرفي نقيض من الطرفين.

ولأنّ الوسيطيّة مؤسسة على ضعف وقوّة، لذا فهي تقبل بمعطيات وجوب التنازل النسبي عن الضعف بالميل إلى القوّة، كما تقبل بمعطيات وجوب التنازل النسبي عن القوّة بالميل إلى الضعف، وأينما يلتقي القويّ مع الضعيف أو القويّ مع من هو أقوى منه تعتمده الوسيطيّة حلاًّ مناسباً ومرضياً للطرفين.

ولكن:

. هل تُعدُّ نقطة الالتقاء (على الوسطيّة) هي الحلّ بالحقّ والعدلِ؟

. هل تُعد نقطة الالتقاء (على الوسيطيّة) إنصافاً بموضوعية؟

ومع أنّ الوسطيّة تطرح الحلّول التوفيقية، إلاّ أنّها تعلم الحلّ (الحقيقة) ولكنَّها من أجل نزع فتيل الاشتعال تقبل غض النظر عن بعض الحقائق وما يستوجب أن يكون من حلّ عدلٍ.

ولأنّ الأمر كذلك ألا تكون معطيات التطرّف قد تأسست من جديد برؤية وسطيّة تعلم أنّها قد نزعت الفتيل وأبقت اللغم بجانبه الأمر الذي يُمكِن لأيٍّ كان أن يُعيد الفتيل إليه لِيَنفَجِرَ من جديد بقوّة أعنف مما كان عليه ويصبح الغافلون هم الضحيَّة المعرَّضة للتفخيخ في الصدامات الدائرة رحاها بين متطرّفٍ وأكثر تطرّفاً.

الوسطيّة تنظّم العلاقات

قدّمت الأديان السماوية للحياة جملة من القضايا الروحية والماديّة على حدٍ سواء؛ فهي في كلِّ جزءٍ من أجزاء الحياة، وفي كلِّ مستوى من مستوياتها تقدِّم ما تقدِّم من أجل أن تكون الحياة أكثر يُسرا، بغاية التيسير على الإنسان وهو يواجه مهمَّته الأساسية المتمثلة بإعمار الأرض.

والحلُّ من أهمِّ ما قدَّمت الأديان على صعيد القضايا عموماً وخصوصاً، عموماً للنوع والجنس والعلائق، وخصوصاً لقضايا محددة يمكن أن تكون منطلقاً لقضاياً متشابهة أو متماثلة، ومن هنا كان من الصعب القول أنَّ الدين السماوي لم يقدِّم حلاً لمشكلةٍ ما، ولكن من السّهل أن نقول أنَّ اتباع ديانة ما عجزوا عن استمداد الحلّ من النصوص الثابتة للمشاكل.

فالمسألة تتعلق بالمُتغيِّر لا بالثابت، فالثابت يحمل المفصَّل والمجمل والمحكم والمتشابه، المباشر والمؤول، وهذه من ميزات النصّ الثابت المطلق، وهي تكسبه حيوية في التعاطي وديمومة في الحضور، الأمر الذي يجعله أكثر قدرة وتأثيراً في إيجاد الحلّ.

إنّها الوسطية التي قدّمها الدين الإسلامي بنص القرآن الكريم من خلال عدد من الآيات منها قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}[213]، وإيحاءً كما في آيات كثيرة منها قوله تعالى: {وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ}[214].

هذه الآية ربما من أهم إيحاءات النصّ القرآني عن الوسطيّة، وذلك لأنَّ المذكور فيها هو ميزان الله عز وجل، ومعلوم أنَّ المقصود بهذا الميزان هو

---

[213] البقرة 143.

[214] الرحمن 7،8.

القسط والعدل في كل شيء، وهو غير مقتصر على شيء بعينه، لأنّ الأمر متعلق بالله الذي بيده الأمر المطلق، وفي المقابل كان الأمر والوصية بوضع الميزان البشري وعدم الطغيان فيه، وهذا الميزان يجب أن يكون عاماً شاملاً لكلِّ التعاملات البشرية وغير مقصور على الكيل المجرد لأنّه لو كان ذلك لاختلّت الموازنة الدلالية في النصِّ بين الميزان المطلق وآخر لا يعدو أن يكون أداة كيل، وهذا محال في مقصد النصّ، والأمر يشير بوضوح إلى أنَّ الوسطيّة ليست منهجاً دينياً يتمّ التَّعبد به أو في ضوء مرتكزاته بل هو منهج حياة يسعى للإصلاح.

لكنَّ هذا المنهج الفكري (الوسطيّة) لم يأخذ مكانته الحقيقية لا عند المسلمين ولا عند غيرهم، وذلك راجع إلى حصر فكر الوسطيّة بالدين الإسلامي وبالمسلمين، حتى أضحت أغلب الأطروحات تسير بأفق خاطئ، وتنطلق من مرتكز واهن هو أنّها تريد أن تزكِّي الدين وتدفع عنه الشبهات من خلال الحديث عن وسطيّة الإسلام، وهذا الأمر يعبر عن قصور في الفهم الحقيقي للوسطيّة التي قدمها الإسلام، كما أنّه كذلك أدّى إلى نوع من النفور من قبل الآخر لهذا المنهج الذي يصلح للحياة في كل زمان وأي مكان.

إنَّ الإسلام لم يكن دين المسلمين فقط، بل هو دين العالمين الكافة، ولم يكن لزمن معين ولا مكان محدد ولا جنس مقصود، بل هو لكلِّ الأزمان، وجميع الأماكن، وكل الأجناس، لذلك وجب أن تكون أفكاره للكافة من حيث صلاحية التطبيق وملائمة المضامين.

ويُصرُّ كثير ممن يعرض للوسطيّة على ربطها بالدين ويحتجّ على ذلك بنصوص آيات مخصوصة فيها ذكر مباشر للوسطيّة بلفظة من مشتقاتها وكأن الوسطيّة التي يريد الإسلام نشرها منهجاً إصلاحياً للبشرية جمعاء

هي الوسطيّة المنصوص عليها بلفظها لا بمضمونها، كالاستشهاد بقوله تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)، وكذلك قوله تعالى: {قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ}[215]، متغافلين عن حقيقة أنَّ ما من آية في القرآن تتعلق بالعبادة أو بالمعاملات إلا وفيها صورة تطبيقيّة للوسطيّة، مثلا في موضوع يشغل فكر كلَّ متدبِّر هو موضوع انتماء الإنسان للدنيا وما فيها أو للآخرة وما فيها، يقدّم النصّ القرآني وسطيّة مثلى تتجسّد في قوله تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}[216]، هذه وسطيّة تطبيقيّة بل هي أجلى صور الوسطيّة في التعامل مع موضوع دقيق يخصّ الإنسان من حيث تعامله مع الدين والدنيا.

ولذا فالوسطيّة غير متعلقة بالدين فقط، بل نعتقد جازمين أنَّ الوسطيّة هي منهج حياة إصلاحي يكون الدين أحد مرتكزاته، وإلى جانب الدين هناك الكثير من القضايا التي ترسم للإنسان نهجاً تيسيراً إصلاحياً في الحياة، {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا}[217].

الوسطية لم تشمل الدين فحسب بل شملت قضايا متعددة تتعلق بأهم قضايا الإنسان، منها:

---

[215] القلم 28.

[216] القصص 77.

[217] الإسراء 26- 29.

الدين: وهو ما تجلّى في قوله تعالى: (إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا)، من حيث ربط التبذير بالشيطان انتهاءً بالكفر الذي هو المقابل الضدي للإيمان.

العلائق الاجتماعية، ويتجسد في قوله تعالى: (وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا)، ورد النصّ على ثنائية (الانفصال والاتصال)، حيث يتضمّن النص متضادين متقابلين هما صورة حقيقة للوسطيّة؛ فهو يتضمن قوله تعالى: (وإمّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ، فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا)، وهنا دقة عالية ومعجزة في انتقاء اللفظ حيث يجب أن يكون الإعراض متّصل لا ينتهي بالمقاطعة المطلقة والتامة انسجاماً مع المضاد وهو القول الميسور، فلو كان الإعراض مطلقاً بمعنى الانقطاع المطلق لَما استقام النصّ، وحدث التناقض مع القول الميسور.

من هنا فمن الوسطيّة أن يكون الانقطاع عن الآخر قابلاً لحصول الضد (الاتصال)، ودون إصرار على الانقطاع التام، فقرار أن تنفصل بالمطلق عن الآخر ولا تترك للعودة خيار هو تطرّف سلوكي وعلائقي، ولكن بقاء الاتصال بالقول الميسور يدلّ على وسطيّة التعامل العلائقي.

الاقتصاد: وذلك في قوله تعالى: (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ)، هذا هو التوازن الاقتصادي في الإنفاق، وهو توازن يدلّ على وسطيّة في الاقتصاد لو قُدّر أن تتحقق في أيِّ زمان، وأيِّ مكان، وأيِّ نوع من التعاملات الاقتصادية لما وقعت الخسائر الهائلة والإفلاس الغريب لكثير من الأفراد والشركات في كلِّ أنحاء العالم.

النفس: ويتضح في قوله تعالى: (فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا)، اللوم هنا والتحسُّر قضيّة نفسيّة؛ فالإنسان أكثر ما يؤثّر فيه كثرة الملامة على قراراته التي اختارها بإرادة، لأنّه يتحمَّل مسؤولية اختياره، ومن ثمَّ الملامة تؤدي إلى

الحسرة التي تسير بالإنسان نحو اليأس الذي يرتبط أو ينتهي في كثير من الأحيان إلى عقد نفسيّة.

هكذا يتبيّن من نصٍّ واحدٍ أنّ الوسطيّة التي جاء بها الإسلام لا تقتصر على الدين، بل هي تنطلق منه إلى قضايا الحياة المتعدِّدة والكثيرة، ولو أردنا أن نوسّع البحث في وسطيّة الإسلام من خلال نصوصه الثابتة فلاشك أننا سنصل إلى آيات أخرى في غاية الإعجاز المعبّر عن الوسطيّة منهجاً دينياً وحياتياً، {وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}[218].

يضيف هذا النص أنموذجاً وسطيّاً شديد المساس بالحياة، هو وسطيّة السلوك وذلك بقوله تعالى: (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ).

للنص استدلالاته المهمة ومنا:

---

[218] لقمان 13-19.

لا تصعر، أي لا تتكبّر بما يقطع العلاقة مع الآخر، ومعلوم أن التكبُّر يُحدث الانفصال بين الأنا والعموم، وهذا بالتالي يجعل الأنا مرتكز على ذاته وهو ما يؤدّي إلى التطرُّف الذي هو ضدّ الوسطيّة.

لا تختال على الناس، أي لا تتخيل أن الناس دونك بل يجب أن تكون في مستوى الناس وهو من مبادئ الوسطيّة.

اقصد في مشيك، لاشكّ أنّ النصّ يحمل وجهين من أوجه الدلالة هما:

المباشرة: ويقصد به المشي الحقيقي باعتدال.

الإيحائي: وهو مقصد أقوى من حيث الدعوة إلى الاعتدال في السير بخطوات الحياة بتوازن دقيق بين الثابت والمُتغيِّر.

اغضض من صوتك، على الرغم من أن الظاهر في النص هو المعنى المباشر لغضّ الصوت، إلا أنّ دلالات ذلك الغض أوسع من حقيقة أنّ المراد خفض الصوت فحسب، ولعل المسألة تعني أموراً أخرى من أهمهما احترام الآخر، وعدم مصادرة صوته ورأيه، والتوصُّل معه حوارا بمستوى التماثل.

وبعد فإن هذه الآية التي بيّنت بجلاء وسطيّة السلوك هي آية غير مخصوصة كما هو معلوم لا بالحادثة المتمثِّلة بوصية لقمان لابنه ولا بالمسلمين ولا بأيّ دين، بل هي أنموذج لما يجب أن يكون عليه السلوك البشري في كل زمان ومكان.

كذلك يتبيّن من مجموع الآيات التي تمَّ الاستدلال بها والتي لا تمثّل كلّ الآيات الموجودة في نص القرآن الكريم، أنّ الوسطيّة منهج إصلاحي لا يتعلّق بالدين فحسب، نعم إنَّ الدين الإسلامي هو من قدَّم هذا المنهج ولكنّه لم يقدّمه لأداء طقوس وشعائر دينية فقط، بل قدَّمه ليكون منهج حياة، به يتحقق الإصلاح، وتكون الحياة أكثر يسرا.

الوسطيّة غايتها الإصلاح

منهج الإصلاح والتغيير الذي تحمله الوسطيّة يتمثل في كلمة جامعة مانعة في الآية الكريمة من قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}[219].

إذن الوسطيّة تدعو الناس إلى نفسها بأخذ معطياتها كونها معطيات الخير والحقّ، وتدعو الناس إلى تغيير معطياتهم بما يتوافق مع معطياتها ليكونوا عليها، و لا يمكن أن يُفهم من دعوة التغيير سوى التوجّه نحو الفضائل والقيم الخيّرة وترك ما في النفس وما تحمل من معطيات الشرّ والسوء بالإقلاع عن الهوى والابتعاد عن الفحشاء والكفّ عن المظالم والترفّع عن الباطل والامتناع عن العدوان؛ فإذا جانبت النفس معطيات المفاسد التي تؤدي إلى الفساد، لابدّ أن يحلّ محلها معطيات مغايرة تكون نقيضة لها، وليس من نقيض لمعطيات الإفساد إلا معطيات الإصلاح، ثمّ إنّ هذه النفس التي تترك ما كانت عليه من طباع وممارسات وتأخذ بمعطيات جديدة تتدرّج فيها سموّاً نحو الفضيلة التي تفضي إلى الإصلاح، تراقب ذاتها وما يحدث من تغيير في طباعها وأحوالها بعد أن أخذت بالحلول الوسطيّة، ما يترتّب عليه أن تبدأ النفس بالتغيير نحو الإصلاح على أثر الأخذ بالأسباب حتى يغيّرها الله تعالى، فإنّه سبحانه لا يغيّر بؤسى إلى نعمة، ولا يغيّر ذلّةً إلى عزٍّ، ولا يغيّر مهانةً إلى مكانةٍ، ولا يغيّر ضلالاً إلى هدى، إلّا أن يغيّر الناس من مشاعرهم وتصرّفاتهم وأقوالهم وأفعالهم وأعمالهم وسلوكهم وواقع حياتهم تجاه المعطيات المفسدة، وحينئذٍ يغيّر الله ما هم فيه وفق ما صارت إليه نفوسهم وأعمالهم وسلوكهم، وإن كان الله تعالى يعلم ما سيكون منهم قبل أن يكون، ولكن ما يقع عليهم يترتب على

---

219 – الرعد 11.

ما يكون من تصرّفاتهم وسلوكهم، وهذه الحقيقة تلقي على الناس تبعة ثقيلة؛ فقد قضت مشيئة الله وجرت بها سنته، أن تترتب مشيئة الله بالإنسان على تصرّف الإنسان نفسه؛ وأن تنفذ فيه مشيئته وسنّته بناء على ما تعرّض الإنسان لهذه السنة في السلوك، ومن هنا كانت دعوة الوسطيّة إلى الإصلاح بالأخذ بأسبابها والتمسّك بمعطياتها.

وهناك من يرى أنّ له في العلوم الوضعيّة مندوحة عن الوسطيّة بما تحمل من حقائق تؤدّي إلى حلّ كثير من المشاكل التي تعترض الإنسان في حياته كالفلسفة والطب والهندسة والاجتماع والاقتصاد، ومع أنّ هذه العلوم نافعة مفيدة، لكنّ منفعتها كلّها دنيوية، لأنّها تفيد في شؤون متعلقة بواقع الإنسان على هذه الأرض وتحقّق له مصالح في الدنيا ربّما يكون بعضها على حساب الآخرين وهو كثير، ومع أنّها تحمل حلولاً للمصالح ولكنّها تفتقد حلول الإصلاح، ومن هذا الجانب لا يمكن أن تكون مطلباً نهائيّاً للإنسان، إذ لا تستطيع أن تنافس ما جاءت به الوسطيّة التي تحملها النبوة، ذلك أنّ ما جاءت به الوسطيّة يحقق أشياء تعجز عنها العلوم الوضعية؛ فإصلاح الأخلاق النفسيّة لا يقوم بهذه العلوم الوضعية التي ينصبّ اهتمامها على الجانب المادي، ومن هنا كانت بعيدة عن إصلاح النفس وإن كانت تصلح الجسد، ومن المعلوم أنّ إصلاح النفوس ومداواتها أهم من إصلاح الأجساد ومداراتها، وبناء الروح وسموّها أهم من بناء الأرض وإعمارها، لأنّه بإصلاح الروح والنفس يتمّ إصلاح الأرض وإعمارها ولا عكس.

ثمّ إنّ دفع مظالم الناس الذين لم تصلحهم الموعظة وإيقاف التظالم بينهم ومنع العدوان عنهم لا يمتنع بالعلوم الوضعية وعلى رأس ذلك علوم القانون، لأنّها صنع بشري كلٌّ وضعها وفق مصلحته، وأنّ تنظيم أمور

المعاش وإحقاق الحقّ وإقامة العدل بين الناس قائم على رؤية المشرّع في العلوم الوضعية بما يناسب البيئة والمجتمع في الزمان والمكان الذي يفقدها ديمومة الحلّ، ولذلك كانت علوم اجتهادية تصيب وتخطيء، واحتمال الخطأ فيها أكثر من الصواب، ولأنّها اجتهاد بشري؛ فأحياناً كثيرة غير ملزم لا ينقاد له الناس بالطاعة كما ينقادون لأوامر صادرة من خارج نطاق الاجتهاد الإنساني.

ثمّ إن هذه العلوم والتشريعات لا تكفل نجاة النفس بعد المرحلة الدنيوية وإن أخذت بتلك الأحكام الصادرة عن التشريعات.

إلا أنّ هناك شيء مهمّ في هذه العلوم لا بدّ من ذكره مع أنّه ليس من الضرورة، والأخذ به يؤدّي إلى فائدة ولا يترتّب على تركه شيء من الضرر، لأنّ في الوسطيّة ما يغني عنه، وذلك أنّ الإنسان البعيد عن الوسطيّة يستطيع بالاستدلال العقلي البرهاني والتمرّس بالفكر المنطقي، أن يتوصّل إلى الوسطيّة، ومن لم يأخذ بهذا ففي الوسطيّة ما يغنيه كونها صالحة لكلّ زمان ومكان وليست وضعيّة من علوم البشر.

إنّ العلوم الوضعيّة يقاس إليها ما أصلحته انطلاقاً من مصادرها البشرية التي عالجت الواقع الذي أفسده الإنسان بالتخلي عن الوسطيّة، وهنا يكون الإصلاح في حال احتمال الصواب والخطأ، ولذا لابدّ من العودة إلى مقياس إصلاح شامل خارج الوضع البشري الذي يضمن توزيع الحقوق والواجبات والمسؤوليات يبيّن الموازين للإنسانية في السنن الاجتماعية للناس بين الحقوق والواجبات والعلاقات والروابط في الزواج والطلاق والبيع والشراء والدين والمواريث والحلال والحرام حتى يربط الحياة الدنيا بالحياة الآخرة، وكذلك في القيم الأخلاقية، وموازين الأعمال والمقاصد، والذي يؤمّن ذلك معطيات الوسطيّة؛ فحين تقاس عناصر التفرُّد والتميّز والتفوّق

الإنساني، على أساس الوسطيّة وفضائلها وما تدعو إليه من سنن اجتماعية، وما تثني عليه من قيم أخلاقية، وموازين الشرع، تحفظ لعناصر التفرّد مكانتها وتضمن للبقيّة حقوقها، وبهذا تبقى معبّرة أصدق تعبير عن إنسانيّة الإنسان في الحفاظ على إنسانيته، وتظلّ على توالي الأجيال، واختلاف الأزمنة والأمكنة، باعتبارها أفضل الطرق وأكرمها للإصلاح، وباعتبار أصحابها مثّلوا الإنسانية في وسطيّتهم، بما تفرّدوا به وامتازوا، وبما تفوّقوا به في مجال الإصلاح في الحكم والسلطان، وفي العلاقات الاجتماعية، أو في الفكر الإنساني عامة وفي فروعه من الثقافة والعلم والمعرفة.

إنّ غير الوسطيّة مهما ارتقت في الفكر الإنساني، لا يمكن أن تقدّم إصلاحاً شمولياً للإنسان يوائم ما بين الدنيا والآخرة لأن معظم طرق الإصلاح البشري مصدره القيم التي لا ترقى إلى الفضائل إذ أنّ سُلَّم القيم يبيّن حال المجتمع من خلال أفراده عندما تبدأ بعض السلوكيات كظواهر معزولة ثم تنتقل إلى اتجاهات مشهودة ثم تتحول إلى قيم حاكمة، وعند هذه المرحلة يتطبّع المجتمع بطبيعة تلك القيم الحاكمة لسلوكه، ولهذا فإنّ المصلحين الواعين لهذه الحقائق يسعون دائماً إلى منع الظواهر والاتجاهات السلبية التي تنشأ في المجتمع من مواصلة تسلّق السلم قبل أن تصبح قيماً، فيسعون إلى ترشيدها وتهذيبها قبل وصولها رأس الهرم؛ فيصعب الاقتلاع والتغيير ويحصل التحوّل والتبديل، ولذا يصحّ أنْ نعدّ صراع التحوّلات في المجتمع أنّه صراع قيم, أي إحلال قيم محلّ أخرى, مع أنّ هذا الصراع ليس دائماً سلبياً، لأنّه ليس كلّ قيمة في المجتمع هي قيمة إيجابية، فالاستبداد في ميادينه المختلفة والفساد الاجتماعي والاقتصادي والإداري، وبعض القيم التي تحكم كثيراً تصرفات الحاكم والمحكوم وبعض

القيم الاجتماعية هي قيم حاكمة سلبية، والإصلاح يكون في تغييرها أو تهذيبها، وهذا التغيير لا ترقى القيم إلى إصلاحه، لأنّه ربّما تحلّ قيمة مكان قيمة أخرى تصلح في مكان وزمان محدّدين لا تصلح في غيرهما، ولذا يحتاج الأمر إلى فضيلة معياريّة تتجاوز مع الزمان المكان كما جاءت بها الوسطيّة حيث تنشر الفضيلة وتغيَّر قيماً وتهذّب أخرى؛ فهذه المسؤولية التي ترتقي بها الوسطيّة بما تحمل من معطيات تجعل من غايتها الإصلاحية ممكنة التحقق لانتزاعها السلبيات أو العمل على اقتلاعها وإحلال الموجبات من خلال الصراع بين الخير والشرّ عامة الذي يعني بأبسط صوره صراعٌ بين الفضيلة وبين الرذيلة، وبالتالي فهو صراع بين الوسطيّة وغير الوسطيّة.

والوسطيّة من عدلها وإنصافها النابع من الحقّ تبيّن من خلال طرحها أنّ الإصلاح غايتها ومبتغاها، وعلى هذا فهي ليست لأهلها وللذين يأخذون بها، وطالما أنَّ الوسطيّة إصلاح لذلك نهت أصحابها عن عدم الإقساط للآخرين وإن كانوا خارج دائرتها مصداقاً لقوله تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[220]. وما أمرها لأصحابها بالبرّ إلى الآخر، إلّا من باب الإصلاح الذين يجعلها محببة إلى الآخر ومن ثمّ تكون مطلباً له.

إنّ الإصلاح لا يختص بأحد دون آخر، لأنّه ربّما يكون الإنسان أو جماعة من الناس صالحين على الوسطيّة؛ ففي دائرة الممكن أن يخرجوا عنها، ومن هنا تناولت الوسطيّة احتمالات الإمكان للوسطيين أنفسهم،

---

[220] – الممتحنة 8، 9.

مصداقاً لقوله تعالى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}[221]. فالأمر ليس فيه قتال ابتداءً، ولكن إذا حصل القتال بين طائفتين من المؤمنين نتيجة بغي إحداهما على الأخرى وجب الإصلاح بينهما دون قتال ما أمكن ذلك امتثالا لأمر الله تعالى ويكون الإصلاح بالعدل والإنصاف، وعندما تكون إحدى الطائفتين أقرب إلى الحقّ، فتُعان على الحقّ ويحال بين الأخرى وبين البغي والظلم، فإن أبت الفئة الباغية قبول الصلح والحكم بينهما بالحقّ، واستمرّت في البغي والتمادي في الباطل، فعند ذلك تُقاتَل تلك الطائفة منعاً للقتال الذي هو أعظم من قتالها، لأنّها إذا لم تُقاتَل حتى تفيء إلى أمر الله، وتُركت فيما هي عليه من البغي حتى تتقاتل مع الأخرى صار الفساد أعظم، ثم إن الذي يقاتل الطائفة الباغية غير الطائفة المبغي عليها، فهذا من باب نصر المظلوم دفعاً للفساد العظيم وإقراراً للإصلاح.

الوسطيّة حلّاً

ليست الوسطيّة كلمة تتجسّد في لفظها، وإنّما تتمثّل في امتداداتها من الثوابت صعوداً، إلى المعطيات نزولاً وما تحمل تلك الثوابت وهذه المعطيات من فضائل وقيم ترسم منهج الحياة للأحياء، ولمّا كانت الوسطيّة مستمدة من نصوص إلهية فهي صالحة في ذاتها انطلاقاً من ثوابتها، ومُصلحة في غيرها انطلاقاً من المعطيات.

221 - الحجرات 9.

غير أنّ الإصلاح لا يتمّ إلا بوسائل علاجية تحمل الحلول للمشاكل التي تعترض الإنسان في حياته أو تعرض له، ومعلوم أنّ المشاكل ذات مصادر متعدّدة ينتج أغلبها عن الخطأ والنسيان والتجديد القائم على التجربة التي تحتمل الصواب والخطأ، وكذلك ينتج عمّا تحمل النفس الإنسانية من نوازع حبّ التملّك والسيطرة والنفوذ والشهرة بغير وجه حقّ مما يترتب عليه ظهور الباطل والظلم والعدوان، ومعلوم أنّ هذه المشاكل طارئة عارضة في حياة الإنسان لم يفطر عليها ولم تخلق معه، وإنّما هي نتائج لأقوال وأفعال وأعمال وسلوكيات خاطئة أدّت إلى ظهور الباطل والظلم والعدوان ليس بالمعنى التجريدي لأنّ الشرّ موجود ولا يقع إلّا بالممارسة مصداقاً لقوله تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}[222]، وإنّما بالمعنى الواقعي من خلال الأدوات في الممارسة.

ولمّا كانت تلك الممارسات تنضوي تحت تلك المسميات من الباطل والظلم والعدوان وعلمنا أنّها طارئة تنتمي إلى الشرّ، إذن وجب العودة عنها إلى الأصل، وهذه العودة إلى الأصل تمثّل الحلّ المعلوم صدقه للعقل، ولو لم يكن العقل يعلم الحلّ قبل وقوع المشكلة ما حكم ببطلان الممارسة والعودة عنها لمعرفته بما هو أحقّ أن يتّبع من خلال ما يمتلك من المعارف التي تجمّعت لديه من الفطرة والنقل والتجربة، وعليه فإنّ الحلّ موجود قبل وقوع المشكلة، إذ لو لم يكن الحلّ موجوداً، ومعلوم الصواب من حيث الوجود ما دعا العقل إليه من أجل الابتعاد عن المشكلة، وهذا يعني أنّ حلول القضايا من حيث الوجود هو أسبق من مشاكلها، ذلك أنّ المشكلة المستحدثة هي في الأساس خروج عن الحلّ الذي تعود إليه بعد حدوثها، وهذا وجه من وجوه مفهوم الوسطيّة التي جُعِلت عليها الأمّة، مصداقاً لقوله

[222] – الزلزلة 8.

تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}[223]. وما كان الله سبحانه وتعالى ليختار غير الخير للأمّة التي ستكون شهيدة على الناس ويكون الرسول شهيداً عليها، ومعلوم أنّ الخير قيمة مطلقة لا تخرج معطياته عن الصواب والحقّ والعدل، ولمّا كان الخير من معطيات الوسطيّة فالتمسّك بمعطياتها ينفي حدوث المشكلة، ومن هنا كانت الوسطيّة هي الحلّ لمنع حدوث المشكلات، غير أنَّ التراخي عن المعطيات يؤدّي إلى الابتعاد عن الوسطيّة الأمر الذي يسبب حدوث المشكلات التي تتطلب حلّاً، وهنا تصبح الوسطيّة حاملة لحلول المشاكل، وعلى هذا فالوسطيّة حلّاً تحمل حلولاً.

فمتى تكون الوسطيّة حلّاً ومتى تكون حاملة للحلول؟

الوسطيّة بحدّ ذاتها حلّ بوسطيّتها لجميع المشكلات، لأنّ الإنسان لو أخذ بالوسطيّة لم تعترضه مشكلة كي يطلب لها حلّاً، والوسطيّة كونها فضيلة من الله تعالى؛ فإنّ الحلّ الذي تمثّله أو الحلول التي تحملها لا تقتصر على الحياة الدنيا، وإنّما هو حلّ دنيوي مرتبط بالآخرة، وأوّل حلّ يتجسد في الوسطيّة هو مسألة العقيدة التي افترق عليها الناس بعد أن كانوا أمّة واحدة على الوسطيّة مصداقاً لقوله تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[224]؛ فالناس كانوا على الوسطيّة، لأنّها بذاتها حلّاً، وهذا الكون الذي كانوا عليه يمثّل وحدة الأمّة التي جعلها الله تعالى

[223] – البقرة 143.

[224] – البقرة 231

أمّةً وسطاً على الحلّ الذي ارتضاه لهم من وحدة التسليم في العقيدة، فلمّا افترقوا واختلفوا فيما اختلفوا فيه، بعث الله تعالى الأنبياء والمرسلين مبشّرين ومنذرين ليردّوا الناس إلى الوسطيّة العقدية، وهنا أصبحت الوسطيّة تحمل حلولاً بالتبشير والإنذار؛ فالأنبياء والرُسُل هم دعاة إلى الوسطيّة من خلال الحلول التي جاءوا بها من معطيات الوسطيّة ذاتها، وعلى هذا فالوسطيّة من الإنسان على حالين وهو منها على أحد أمرين:

الأول: أنّها حلّ دائم عندما يكون الإنسان متمسّك بالوسطيّة ويعمل بها، عندئذٍ ليس هناك مشكلة تعترض الإنسان أو تتعارض مع الوسطيّة من خلال السلوك.

الثاني: أنّها حلّ تحمل حلولاً عندما ينفلت الإنسان من الوسطيّة ويعمل بغيرها، وهنا تبرز المشاكل المتعارضة مع الوسطيّة، وبالنظرة إلى الوسطيّة من خارجها من قبل من خرج عنها يجدها تحمل حلولاً لما يعترضه من مشكلات، حيث نقف على ذلك بوضوح في قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ}[225].

فهؤلاء عندما خرجوا عن الوسطيّة برزت لديهم مشاكل كثيرة ومتنوّعة دنيوية وأخروية، فكان طرح الإيمان والتقوى من معطيات الوسطيّة التي تحمل الحلّ في تكفير السيئات ودخول الجنّة بعد ذلك؛ فكانت الوسطيّة حلّاً لرفع العقاب ومنح الثواب، ثمّ بعد أن قدّمت الأهمّ على المهمّ ذكرت حلولاً للمشكلات الدنيوية، وهنا لابدّ من القول أنّ الابتعاد عن الطريق القويم الذي يتمثّل في الوسطيّة يجعل القضايا الإشكالية بتراكمها وتعقيداتها

---

[225] – المائدة 65، 66.

عصيّة على الحلّ، فيلجأ العقل إلى علمه ومعرفته وما اكتسب من خبرات من تجاربه إلى التعويل على هذه الملكات في حلّ مشاكله، ولجوء العقل إلى الاقتصار على معرفته سيؤدّي به إلى أخطاء أخرى، بدليل أنّه أخطأ عندما تنازل عن التمسّك بالحلّ الذي تحمله الوسطيّة، لأنّ المعرفة التي يمتلكها العقل في حكمه على صواب القضايا أو خطئها غير كافية لإدراك الحقائق، أو لنقل العجز عن إدراك جميع الحقائق، وقد أعلن العقل أنّ علمه ومعرفته عاجزان عن حلّ جميع المشاكل، وأنّ الذهن البشري وحده لا يستطيع فهم جميع حقائق الحياة، وتبيَّن بعد طول جهد مبذول أنّ العقل لا يكشف المجهول من الأسباب، ولكنّه يدرس الظواهر من خلال وضع الفرضيات في أوّل أمره، فإذا ثبتت بالتجارب أصبحت تمتلك نوعاً من الصواب مع احتمال الخطأ، وإذا فشلت وقف العقل حائراً حيالها.

إذن لا بدّ لهذا العقل من مصدر آخر غير علمه ومعرفته لحلّ القضايا التي استعصت عليه، فكان هذا المصدر هو الخبر النقلي الذي تحمله الوسطيّة لحلّ إشكاليات ما وراء العقل وما استعصى عليه، إذ ليست جميع المعارف والعلوم التي حكم العقل بصدقها من إبداع العقل سواء أكان الحكم ناتجاً عن القضايا الآحاد أم الثنائيات، والآحاد هو الحكم على نتيجة قضية بالصحة من خلال أسبابها مفردة، والثنائيات القائمة على اتحاد قضيتن والحكم على النتيجة بصدقها، أم انفصال القضيّة الواحدة إلى قضيتين أو أكثر والحكم على النتيجة بصدقها أيضاً.

إنّ كثيراً من القضايا التي لا تعدّ ولا تحصى وجدنا الوسطيّة تحمل حلولاً لها، ولكنّ كثيراً من الناس يقفون حيالها بين حيرة التساؤل وتردّد التصديق، فيأخذون المعلومة على الشكّ من الخبر النقلي دون التسليم إلى أنْ يتّضح صدقها بنفسها بأحد أمرين الزمن أو التجربة.

الزمن: عندما تخبر النصوصُ النقليّةُ العقلَ بما لم يتحقق فيما سيتحقق وهو كثير، ومن ذلك قوله تعالى: {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آَمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا}[226]. فكان الإخبار حلّاً لمعاناة المهاجرين الذين فارقوا أهلهم وديارهم، ولا يفصل الخبر عن صدق تحققه سوى الزمن المستغرق بين الإخبار والتحقّق.

التجربة: لقد جاء الخبر الذي تحمله الوسطيّة بصدق آيات الخلق التي تكلّمت عنها في أصولها وفروعها وحركتها وسكونها ومبداها ومنتهاها قال تعالى: {وَآَيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}[227].

فهذه الحلول التي قدمتها الوسطيّة هي إجابات على تساؤلات كانت تراود أذهان كثير من الخلق وتجري على ألسنتهم دون أن يعرفوا لها إجابات، علماً أنّ الحلّ محمول في الوسطيّة، ولمّا أثبتت التجارب صدق ما جاءت به الآيات أيقن الناس أنّ حلّ هذه التساؤلات موجود ولكنّهم حملوه على الشكّ، غير أنّ هذا الشكّ انتفى بالتجربة العلمية والخبرة المتراكمة عندما تطابقت مع ما جاء به الخبر النقلي الذي يفتقده العقل، وقد ثبت أنّ الظلمة هي الأصل والنور طاريء عليها، وقد ثبت شكل الأرض بالحال التي هي عليها، في دورتها حول نفسها في مواجهة الشمس، وتمر كلّ بقعة منها بالشمس؛ فإذا هذه النقطة نهار، حتى إذا دارت الأرض وانزوت

---

226 - الفتح 27.

227 - يس 37- 40.

تلك البقعة عن الشمس، انسلخ منها النهار ولفّها الظلام، وهكذا تتوالى هذه الظاهرة على كل بقعة من الأرض بانتظام وكأنما نور النهار ينزع أو يسلخ فيحلّ محلّه الظلام، فيما عدا بعض المواقع التي يدوم فيها النهار كما يدوم فيها الليل أسابيع أو أشهراً قرب القطبين في الشمال والجنوب نظراً لشكلّ الأرض؛ فهذا الوصف يصوّر حقيقة من الحقائق الكونية أدق تصوير.

وقد بدأ بالليل المظلم وانتهى بالظلمة التي يتوسطهما النهار، أمّا قوله(ولا الليل سابق النهار) فلا يفهم منه أنّ النهار قبل الليل، ولكنّ المفهوم أنّه لا يأتي ليلان في يوم واحد، لأنّه إذا سبق الليلُ النهارَ، فسيكون هنالك ليلان متواليان وهو محال هذا في القضيّة الأولى، ثمّ إنّ هذه الأقمار الصناعية التي تملأ الفضاء وتؤدّي خدمات لا حصر لها في جميع المجالات العلمية والتقنيّة والعسكرية والاقتصادية، مردّها إلى معرفة مبدأ السابحات في أفلاكها التي حملت حلاًّ لكلّ هذه القضايا وسخّرها الإنسان خدمة له.

ثمّ إن الإخبار عن خلق الإنسان ومراحل تكوينه في الرحم هو حلّ لتساؤل أزال الشكّ بالتجربة مصداقاً لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ}[228].

فقد أثبتت العلوم الطبيّة بالتجارب التي تابعت حمل المرأة، من أوّل مراحل الحمل إلى الولادة، أنّ نتائج تلك التجارب مطابقة لما جاء وصفه عن مراحل تكوين الإنسان في بطن أمّه من النطفة إلى أن يخرج طفلاً.

وحقٌّ لسائل أن يسأل ما علاقة الوسطيّة بهذه الأمثلة من الآيات؟

---

[228] – الحجّ 5.

إنّ هذه الأمثلة من الوسطيّة بمكان! ذلك أنّ الحقّ كما هو ثابت ومعلوم من معطيات الوسطيّة، والحقّ في أصوله يعني الثبوت الذي لا يقبل التغيير، في الاستعمال والنقل والإخبار، ولا يمكن تصوّر التغيير فيه بحال من الأحوال، ثمّ الخبر المطابق للواقع حقّ حين الإخبار به، وهو حقّ مطابق لواقعه بعد الإخبار به، وهو حقّ في نفسه مطابق لواقعه قبل الإخبار به، ولا معنى لتصوّر التغيير في الحقيقة، والحقّ معنى واقعي لا معنى اعتباري ذهني، فإذا كانت تلك الأخبار مطابقة لأحوالها في جميع حالاتها وفي جميع أزمنة الإخبار عنها، ومطابقة لواقعها وإن لم يُخبر عنها، فهي حقائق حقٍّ، والحقّ من معطيات الوسطية، فتكون الوسطيّة قدمت حلولاً حقّاً بكلّ ما أخبرت به.

وأمّا الحلول التي تحملها الوسطيّة للإنسان فتنقسم على قسمين، قسم خاص بأهل الوسطيّة ولمن يصبح عليها، وقسم آخر بين أهل الوسطيّة و بين غيرهم؛ فأمّا الحلول الشاملة لأهل الوسطيّة من العلاقات الإنسانية في الخطبة والزواج والطلاق والنفقة والرضاعة والمحارم وأنصبة المواريث والديون والبيع والشراء وكلّ ما له علاقة بحياة الإنسان ونكتفي بمثال واحد من هذه الأوجه الكثيرة في قضيّة الدَّين الذي لا يتوفّر له شهود، فقد أخبر النقلُ العقلَ بالحلّ حيث قال تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}[229].

إنّ الأوامر والنواهي التي تدعو إليها الوسطيّة، هي مجموعة من الحلول لمشاكل تواجه الإنسان على مستوى الأسرة في البيت الواحد، أو على مستوى الأفراد داخل المجتمع، وعلى ما تحمل من فضائل فهي تقدم

[229] – البقرة 283.

الأخلاق حلاً، قال تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[230].

إنّ الفضائل والقيم الخلقية السامية هي الجوهر الأساس للوسطيّة بعد التوحيد، لِما تأمر به من أخلاق وآداب من أجل تزكية النفس، لذلك نرى اهتمام الوسطيّة بالجانب السلوكي والتربوي حلّ عظيم للترقّي بالإنسان في جميع مناحي حياته وتصرفاته نحو السمو والابتعاد به عن المنزلقات الخاطئة من خلال طرح الحلّ الذي يجمع خصال الخير، لذلك فإنّ الوسطيّة لا نقول أنّها تبرز بشكل قوي في مواجهة التحديات، لأنّه ليس هنالك تحدٍّ بين الحقِ والباطل، وإنّما هو قذف ودمغ من الحقّ للباطل، بل هي حلول لما يعترض الإنسان من مشاكل تؤطر هذه الحلول مجموعة من الأخلاق والآداب والقيم التي يجب أن تحيط بالإنسان في جميع أحواله وعلى جميع مقاماته ومستوياته ومختلف مسؤولياته.

إنّ الوسطيّة الحلّ تبيّن الحقوق والواجبات والمسؤوليات للإنسان من خلال معطياتها التي يعمُّ إشعاعها الداخل والخارج، إنّ الوسطية تتمثل في المعطيات والأفكار والمعاملات أولا ثم تنقلها إلى الخارج لا من خلال الأفكار فقط ولكن من خلال السلوك في التطبيق بعيدة عن العنصرية والتحيز، لأنّ ضابط الحلّ في الوسطيّة هو العدل القائم على الحق؛ فمن أراد أن يكون على حدود الوسطيّة، يقوم بحدود الحقوق في الأخلاق والأقوال والأفعال والأعمال والسلوكيات عن رضا.

---

[230] – لقمان 14– 15.

فهرس الموضوعات

المقدمة

الأمَّة الوسَط

فهرس الموضوعات

المقدمة

الأمَّة الوسَط

علاقة الأمَّة بوسطيَّتها
شهادة أمَّة الوسَط
الوسطيَّة بين الثابت والمتغير
الوسطيَّة ثابتة منبثقة من ثابت
الوسطيَّة ثابتة تعالج متغيرات
استدعاء الوسطيَّة
الوسطيَّة بين الغاية والوسيلة
مرتكزات الوسطيَّة
معطيات الوسطيَّة
معيارية الوسطيَّة
الوسطيَّة بين المشكلة والحل
الوسطيَّة تنظم العلاقات
الوسطيَّة غايتها الإصلاح
الوسطيَّة حلاً